

أديان العرب

فى الجاهلية

محمد نعمان الجارم

- الحرم ومكانته عند العرب
- أصنام العرب وبيوت عبادتها
- عبادة الحيوان و الأشجار
- اليهودية والنصرانية
- المجوسية والزندقة
- التناسخ والمسخ والختان
- عبادتهم للكواكب وأثار عبادتهم لها



مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

أديان العرب

في الجاهلية

تأليف

محمد نعمان الجارم



بيانات الفهرسة أثناء النشر
(الإدارة المركزية لدار الكتب)
الجارم، محمد نعمان
أديان العرب في الجاهلية / تأليف : محمد نعمان الجارم . ـ ط ١ . ـ
الجيزة. مكتبة ومطبعة الغد، ٢٠٠٨م ١٦٨ ص؛ ٢٤سم.
تدمك : ٤ ١٨٢ ٣٤٨ ٩٧٧
١ ـ الديانات القديمة
أ ـ العنوان ٢٩١,٠٤٢
رقم الإيداع : ٢٠١٣٣ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولي : I.S.B.N . 977 – 348 – 182 - 4
الطبعة الأولى : نوفمبر ٢٠٠٨م



٢٣ ش سكة المدينة ـ ناهيا ـ جيزة ـ ج.م.ع

تليفاكس: ٣٣٢٥٠٢٠٢

تقديم الناشر

حين نظرنا ووجدنا أنه كلَّ حين تثور بعض النعرات الدينية، سواءً بين أصحاب المذاهب المختلفة في الدين الواحد (كالشِّيعة والسُّنة في الإسلام والبروتستانت والكاثوليك في المسيحية) أو بين أبناء الديانات المختلفة؛ فكرنا أن نبحث في أصل تلك المسألة خاصة في منطقتنا العربية، وأن نبحث في أصل الديانات التي كانت شائعة في هذه المنطقة منذ عصور التاريخ الأولى، وذلك حتى نفهم ما آل إليه حالنا الآن .. حينما قرَّرنا ذلك جُلنا ببصرنا في الأرفُف المهملة من مكتبتنا العربية، فوجدنا عددًا من الكتُب قد علتها أكوامٌ من التراب تتحدَّث في هذا الشأن، ومن بين تلك الكتُب وجدنا هذا الكتاب الذي يحمل عنوان «أديان العرب» لمؤلِّفه محمد نعمان الجارم، ذلك الرجل الذي يجهله الكثيرون رغم أنه وهب حياته كلَّها للبحث في تفاصيل الحياة العربية القديمة في كافة جوانبها وتفاصيلها.

كلُّنا تقريبًا يعلم أنَّ منطقتنا العربية هي مهد الديانات السماوية، وأنَّ إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام هما من بنيا الكعبة بأمرٍ من الله، وأنَّ العرب قبل البعثة المحمدية كان أكثرهم وثنيون .. هذه تقريبًا هي غاية معلوماتنا العامة، أمَّا ما آلت إليه تلك الديانات السماوية، وكيف تحوَّلت إلى الوثنية، فذلك ممَّا لا يعلمه غير من عَمد إلى البحث والاستقصاء.

بحثنا في كلِّ الكتُب بعد أن نفضنا من عليها التراب فوجدنا أنَّ هذا الكتاب الذي بين أيديكم، والذي كتبه مؤلِّفه في أوليات القرن العشرين، قد تناول ذلك الموضوع بتعمُّق دون تعقيد وفي الوقت نفسه بسلاسة دون

تسطيح، لذا فقد وقع اختيارنا عليه لإعداده وإعادة تقديمه إليكم لتوضيح ذلك الشأن الهام .. عاقدين العزم أن يكون ذلك الكتاب جزءًا أول على أن نعقبه بكتابٍ آخر حديث يتحدَّث في نفس هذا الشأن ولكن في الجانب المعاصر منه، والذي ثارت فيه صيحات بهائية وشيعية وغيرها من ملل ومذاهب لم يتعرَّض لها هذا الكتاب، وآثرنا أن نخصِّص لها كتابًا آخر حتى نبحثها بالشكل الوافي الذي تستحقُّه.

أمَّا هذا الكتاب فقد بدأه مؤلفه منذ بناء بيت الله الحرام، ومرورًا ببعض الشعائر والطقوس التي انتشرت بين العرب .. وكذلك عرض الديانات – سماويةً كانت أو غير سماوية – التي انتشرت بينهم حتى البعثة المحمدية .. كلُّ ذلك بشيء من التفاصيل والاستشهاد بالأبيات الشعرية التي كان العرب يسجلون بها كلَّ ما يمر بهم من أحداث.

هو باختصار كتاب هام، لا يخلو من فائدة ولا تغادره متعة، وذلك هو ما نرجوه دائمًا مع كلِّ كتابٍ نقدمه لكم بإذن الله.

الناشر



مقــدِّمة

الإنسان يمتاز عن سائر الحيوان بالنفس الناطقة وبقوَّة التفكير فيها، حيث يستدل بالأثر على وجود المؤثِّر، ثم ينتهي بها البحث إلى أنَّ المؤثِّر في الأكوان لابدَّ أن يكون واجب الوجود لذاته تلك فطرة في الإنسان؛ ولذلك ذهب الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان ومَن تابعه على ما هو الصحيح الموافق لظاهر الرواية إلى أنَّ التكليف منوط: إمَّا ببلوغ دعوة الرُّسل وإما بمُضي مدَّة يتمكَّن العاقل فيها أن يستدلَّ بالمصنوعات على وجود صانعها؛ وذلك لأنَّ الدِّين من خواص النفس الناطقة - كما تقدَّم - وذهب علماء الأخلاق إلى أنَّ الدِّين ليس من لوازم النفس الناطقة؛ لأنَّ بعض الأمم والقبائل لا تدين بدين.

هذا والدِّين قديم، وُجد مع الإنسان، أمَّا عند أهل الأديان السماوية فلأنَّ آدم أبا البشر كان نبيًّا، وأما عند غيرهم فلأنَّ الناس في أطوارهم الأولى كانوا يعتقدون باليوم الآخر، وأنَّ للإنسان نفسًا خالدة، فكانوا يدفنون مع الميت أمتعته ومقتنياته؛ لينتفع بها في العالم الآخر، وهذا من المبادئ الدِّينية.

وجميع الأمم والقبائل تعتقد بعالم الأرواح، والمتوحِّشون منهم ينسبون الموت والمرض للرُّوح، وهذه عندهم كالنفس، إلاَّ أنَّ الرُّوح أقوى وأكثر دخلاً في أحوال الناس ومصالحهم؛ فينسبون إليها الموت والمرض والمحَن والخُطوب؛ لذلك ترى البدائيِّين يحرصون على دفع

غضب الأرواح الشريرة باسترضاء الأرواح الصالحة التي هي غالبًا نفوس السّلف الصالح من آبائهم وأجدادهم الذين لهم في القبيلة أثر محمود ومقام مشكور؛ لأنهم يرون أنَّ نفوسهم أقوى وأقدر على جلب المصالح ودفع المضار، فلذلك عظّموهم بعد الموت ونصبوا لهم التماثيل، ولجئوا إليها يستعينون بهم عند نزول الخطوب .. وهذا أصل عبادة الأجداد.

هذا وإنَّ الدِّين من غير نظر إلى الوحي ابتدأ باعتقاد الإنسان أنَّ له مُوجدًا أوجده وغيره من الممكنات، وإنَّ له نفسًا أو رُوحًا خالدة تصير بعد الموت في عالمٍ آخر .. ذلك مبدأ اعتقاده بالرُّوح والرُّوحانيات.

ثم توسَّع بعد ذلك في عالم الرُّوح فاعتقد أنَّ لكلِّ كائن من الكائنات رُوحًا تُدبِّره، حيوانًا كان ذلك الكائن أو جمادًا، وهذه الرُّوح تكون قوية إذا كان الكائن المتصلة به من عظيم المخلوقات، وما زال يرتقي في الوهم حتى تخيَّل بعض الأرواح آلهة فعبدها بعبادة المادة المتعلِّقة بها، ومن ذلك عبادة الهنود لنهر الكينج والمصريين القدماء لنهر النيل والمجوس للنار والصابئين للكواكب، وعبادة أهل الهند وغرب أفريقيا للأفاعي .. وما عبادة الشمس وغيرها ممَّا عُبد من دون الله إلاَّ من هذا القبيل.

والأديان تنقسم قسمين: «أديان إلهية» أو سماوية، وهي ما أنزله الله – سبحانه وتعالى– على رُسله الكرام.

و«أديان وضعية»، وهي ما ليس كذلك كدين المجوس عباد النار والبراهمة والبوذيين وغيرهم.

والأديان السماوية كثيرة وهي من حيث ذاتها قبل إفسادها بالتحريف والتبديل تتضمَّن توحيد الله جلَّ ثناؤه ووصفه بأوصاف الكمال وتنزيهه عن مشابهة الحوادث، وتحثُّ على مكارم الأخلاق والآداب والفضائل، وتنصُّ على الأحكام التي تكفل نظام المجتمع وتناسب الزمان الذي أنزلت فيه والذي يليه، على أن تُنسخ بشرع رسولٍ آخر فيُصبح الناسخ الذي جاء به الرسول المتأخر هو الحقَّ الذي يجب اتباعه، ويصبح ما تقدَّمه من الدِّين منسوخًا، وذلك سرُّ ما يروى أنَّ رسول الله ﷺ غضب حينما رأى بعضهم يقرأ ورقة من التوراة وقال: «**لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلاَّ اتِّباعي**».

وقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ**﴾.

والذي يوحَى إليه من الله تعالى نبي أو رسول، وتُطلق صفة «النبي» على رجل سليم العقل معصوم عن كل رذيلة يصطفيه الله من بين عباده، ويوحي إليه بشرع، سواءً أمره بتبليغه أم لا، ولو أُمر بتبليغه فهو «رسول»، سواء كان له كتاب أم لا، نسخ بعض شرع من قبله أو لم

ينسخ، ولا جزم في عدد الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - قال أبو البقاء في الكليات:

وأول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض نوح عليه السلام.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

أنه قال: ذُكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلُّهم على الهدي وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله نوحًا، لكنَّ الأكثرون أجمعوا على عدِّ آدم من المرسلين.

والأديان السماوية كثيرة، ولم يبق منها الآن سوى «اليهودية» المبعوث بها سيدنا موسى الكليم عليه السلام، والنصرانية المبعوث بها سيدنا عيسى عليه السلام، والإسلام المبعوث به سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ويعتنقه نحو مائتي مليون من الأنفس تقريبًا.

وأكثر ديانات العالم إتباعًا الديانة البوذيَّة، وهي منسوبة إلى «بوذا» رجل كان في سنة ستمائة واثنتين وعشرين قبل المسيح قصد بها في الأصل إصلاح الديانة البراهمية[1] وتهذيب تعاليمها، ولكن نشأت بين معتنقي الديانة البراهمية والبوذية منافسات ومناظرات انتهت أخيرًا بفوز الديانة البوذية وانتشارها على الديانة البراهمية، وأكبر انتشارها في

---

(١) نسبة إلى «براهما» كبير آلهة الهند.

الصين واليابان وكوريا ومنشوريا والتِبت ومنغوليا، ورغم أنها ليست دين سماوي، ورغم تركيزها في مناطق معينة، إلاَّ أنها تُعَد أكثر الديانات أتباعًا، ويرجع ذلك لأنَّ الدول التي تنتشر فيها تلك الديانة دول كثيرة السكان.

ولقد كانت العرب في جاهليتها تدين بأديان شتَّى كما ستراه مفصَّلاً في هذا الكتاب، فمنهم عُبَّاد الأصنام والشمس والكواكب وغير ذلك، ومنهم المُوحِّدون الذين كانوا يستضيئون بهدي الأنبياء الذين أرسلهم الله لهم أو لغيرهم من الأمم.

ولقد بعث الله في العرب قديمًا أنبياء فبعث هودًا(١) عليه السلام لعاد، وكانت ديارهم، وبعث صالحًا عليه السلام لثمود، وكانوا يسكنون بالحجر ووادي القرى بين الحجاز والشام، وبعث شعيبًا لمدين، وكانت منازلهم تجاوز أرض معان من أطراف الشام ممَّا يلي الحجاز، فكان من العرب من يدين بدين هؤلاء النبيين وأكثر العرب كانوا على دين أبيهم إبراهيم عليه السلام.

وسبب كثرة الأديان عندهم مجاورتهم لكثير من الأمم المتدينة، فتيسَّر لهم بالرحلة والتجارة معرفة أديان مجاوريهم، وناهيك ببلاد الشام، وهي الأرض التي بُورك فيها لكثرة من أُرسِل لها من النبيين؛ فنقلوا تعاليم هذه الديانات إلى بلادهم واعتنقها من اعتقدها منهم.

وكان التوحيد دين أكثر العرب، ثم غلبت الوثنية عليه حتى طمست معالمه، وراجت عبادة الأوثان، فأرسل الله سيدنا محمدًا ﷺ

---

(١) علماء الأنساب يسمون هودًا «عابر» أو «عَبِيَر» على وزن جَعفر.

بالتوحيد، وما زال يُغالب الكفر ويهزم جيشه ويفصل شعائر الدِّين ويدعو الخلق لعبادة الله وحده ويحضُّ على مكارم الأخلاق ويُبيِّن الأحكام المتكفِّلة بسعادة الدنيا والآخرة حتى ردَّت جيوش التوحيد كتائب الكفر والزيغ مهزومة، وأصبحت أبطال الضلال والإلحاد صرعى مكلومة، ولم ينزل به الموت حتى أكمل الله للناس دينه، وأتمَّ عليهم نعمته، ورضي لهم الإسلام ديناً، وختم به الأنبياء والمرسلين فمن ادَّعى بعد محمد ﷺ أنه يوحي إليه من الله تعالى بشرعٍ فهو ضالّ كافر.



إبراهيم الخليل وإسماعيل
عليهما السلام

نسهب القول في تاريخهما؛ لأنَّ أكثر العرب تدين بدينهما فنقول:

وُلد إبراهيم عليه السلام بأرض بابل بالعراق، ونشأ بها في دولة حمورابي الدولة البابلية الأولى - التي هي من سنة إلفين وأربعمائة وستين قبل الميلاد إلى سنة ألفين وواحد وثمانين قبل الميلاد - وكانوا يعبدون الأصنام، ولم يكن بينه وبين نوح نبي إلاَّ هود وصالح، فدعا قومه لعبادة الله وحده، فلم يؤمنوا، فطفق يُسفِّه أحلام قومه ويطعن على آلهتهم، ثم انتهز فرصة خروجهم في يوم عيدٍ لهم ولم يخرج، وخالف إلى أصنامهم فكسرها، فلما رأوا منه ذلك أمر نمرود حاكمهم بإحراقه، وأُلقي في النار فجلعها الله بردًا وسلامًا، فلما نجَّاه الله أجمع أمره والذين اتَّبعوه على فراق قومهم ومعهم لوط عليه السلام ابن أخيه، فنزل إبراهيم بالسبع من أرض فلسطين، ونزل لوط بالمؤتفكة - وبينهما مسيرة يوم وليلة - ثم وُلد لإبراهيم من هاجر إسماعيل عليه السلام.

وروى أبو هريرة خبر وصول هاجر لإبراهيم عن النبي ﷺ قال:

لم يكذب إبراهيم عليه السلام قط إلاَّ ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله قوله: «إِنِّي سَقِيم» وقوله: «بَل فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا»، وواحدة في شأن سارة؛ فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس فقال لها: إنَّ هذا الجبار

إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك[1]، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلاَّ لك، فأرسل إليها فأتى بها وقام إبراهيم إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقُبضت يده قبضةً شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يُطلق يدي ولا أضرك، ففعلت، فعاد، فقُبضت يده أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك فعاد، فقُبضت يده أشد من القبضتين الأوليين فقال: ادعي الله أن يُطلق يدي ولا أضرَّك ففعلت، فأُطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك أنما جئتني بشيطان ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر.

قال:

فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم انصرف فقال: مهيم؟[2] فقالت: خيرًا؛ كفَّ الله يد الفاجر وأخدم خادمًا.

قال أبو هريرة:

فتلك أمكم يا بني ماء السماء[3].

---

(١) أي في الأرض التي يحكمها ذلك الجبار، فقد آمن به ابن أخيه لوط وآمن به جماعة من قومه.

(٢) كلمة استفهام بلغة أهل اليمن أي ما حالك وما شأنك أو ما وراءك.

(٣) يقال للعرب «بنو ماء السماء» لكثرة ملازمتهم للفلوات التي بها مواقع المطر.

وإنما كانت هاجر أم العرب لأنَّ سارة ملَّكتها لإبراهيم فولدت له إسماعيل أبا العرب، ولم يكن لسارة من إبراهيم ولد؛ فإنها ولدت إسحاق بعد ولادة إسماعيل فيما رووا بأربع عشرة سنة.

قال ابن أبي زيد في نوادره:

وهاجر أول امرأة ثُقبت أذناها وخُفضت من النساء، وأول من جرَّت ذيلها، وذلك أنَّ سارة غضبت[١] فحلفت أن تقطع ثلاثة أعضاء من أعضائها، فأمرها إبراهيم أن تبرَّ قسمها بثقب أذنيها وخفاضها، فصارت سُنة في العرب.

وأوحى الله لإبراهيم أن احمل إسماعيل وأمَّه إلى مكة، وكان من أمرهم ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال:

أول ما اتخذت النساء المنطق[٢] من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة[٣] فوق زمزم في أعلى المسجد[٤]، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما

---

(١) روى أنها أخرجت هاجر غيرة منها لا غضبًا.

(٢) المِنطَق: بكسر فسكون ففتح إزار له حجزة.

(٣) الدوحة: الشجرة الكبيرة.

(٤) أي مكان المسجد لأنه لم يكن بني.

هناك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء[١] فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا[٢]، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟.. فقالت له ذلك مرارًا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يُضيعنا .. ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية[٣] حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: «رَبَّنَا إِنِّي أَسكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَير ذِي زَرعٍ عِندَ بَيتِكَ المُحرَّم رَبنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجعَل أَفئِدَةً مِن النَّاسِ تَهوِي إِلَيهِم وَارزُقهُم مِن الثَّمرَاتِ لَعلَّهُم يَشكُرُون»، وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها فجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط[٤] - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم ترَ أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت

---

(١) السقا (بكسر أوله): قربة صغيرة.

(٢) أي ولى راجعًا.

(٣) الثنية: الجبل.

(٤) يتلبط: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض.

سعي الإنسان المجهود[1] حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدًا فلم ترَ أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس قال النبيﷺ:

فذلك سعي الناس بينهما .. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صهٍ[2]، تريد نفسها، ثم تسمَّعت فسمعت أيضًا فقالت قد أسمعت إن كان عندك غُواث[3] فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه[4] - حتى ظهر الماء فجعلت تحوّضه[5] وتقول بيدها هكذا[6]، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس قال النبي ﷺ:

يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال لو لم تغرف من الماء[7] - لكانت زمزم عينًا معينًا[8].

---

(١) المجهود: هو الذي أصابه الجهد بفتح الجيم وضمها: المشقة.

(٢) بفتح المهملة وسكون الهاء وبكسرها منونة كأنها خاطبت نفسها فقالت لها اسكتي.

(٣) بفتح أوله للأكثر وتخفيف الواو وليس في الأصوات فعال بفتح أوله غيره ـ وجزاء الشرط محذوف تقديره «فأغثني».

(٤) شكٌ من الراوي.

(٥) بحاء مهملة وضاد معجمة وتشديد الواو: أي تجعله مثل الحوض.

(٦) هو حكاية فعلها وهذا من أطلاق القول على الفعل.

(٧) شكٌ من الراوي.

(٨) عينًا معينًا: أي ظاهرًا جاريًا.

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة[١]؛ فإنَّ هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرَّابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرَّت بهم رفقة من جُرهم[٢] مُقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا[٣] فقالوا: إنَّ هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريا أو جريين[٤]، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبراهم فأقبلوا.

قال: وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقٍّ لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فألفى[٥] ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأُنس[٦]، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم .. وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم وأنفَسهم[٧] وأعجبهم

---

(١) الضَّيعة: بفتح الضاد أي الهلاك.

(٢) جُرهم: هو ابن قحطان وفي رواية عطاء بن السائب وكانت جرهم يومئذ بواد قريب من مكة.

(٣) العائف: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه.

(٤) بفتح الجيم وفتح الراء وتشديد الياء أي رسولاً، وقد يطلق على الوكيل وعلى الأجير .. قيل سمي به لأنه يجري مجرى مرسله أو موكله.

(٥) ألفَى: أي وَجد.

(٦) الأُنس: بضم الهمزة ضد الوحشة.

(٧) أنفسهم: بفتح الفاء بلفظ افعل التفضيل من النفاسة أي كثرت رغبتهم فيه.

حين شبَّ، فلما أدرك زوَّجوه امرأةً منهم[1]، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوَّج إسماعيل يطالع تركته[2]، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا[3]، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر في ضيق وشدَّة، فشكت إليه قال فإذا جاء زوجك اقرئيه السلام وقولي له يُغير عتبة بابه[4]، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا في جهد وشدَّة .. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني إن أقرأ عليك السلام ويقول غيِّر عتبة بابك .. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، ألحقي بأهلك .. فطلقها وتزوَّج منهم امرأةً أخرى[5]، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عزَّ وجل، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم: قال: فما شرابكم؟ قالت الماء: قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ :**ولم يكن لهم يومئذ حَب، ولو كان لهم دعا لهم فيه.**

---

(١) روي أنَّ اسمها عمارة بنت سعد بن أسامة، وحكى السهيلي أن اسمها جُدَي بنت سعد.

(٢) بكسر الراء أي يتفقد حال ما تركه.

(٣) يبتغي لنا أي يطلب لنا الرزق.

(٤) عتبة بابه كناية عن المرأة ـــ وقد كانت العرب ترى طلاق النساء كأبيهم إبراهيم.

(٥) ذكر الواقدي أنَّ اسمها سامة بنت مهلهل بن سعد، وذكر الدارقطني أنَّ اسمها السيدة بنت مضاض.

قال: فهما لا يخلو[١] عليهما أحد بغير مكة إلاَّ لم يوافقاه..

قال إبراهيم: فإذا جاء زوجك فاقرئيه السلام ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم: هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نباله[٢] تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد[٣]، ثم قال: يا إسماعيل، إنَّ الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: أعينك: قال: فإنَّ الله أمرني أنَّ أبني هاهنا بيتًا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر[٤] فوضعه له فأقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة.

قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان:

---

(١) خلوت بالشيء واختليت إذا لم أخلط به غيره، ويقال «أخلى الرجل اللبن» إذا لم يشرب غيره.

(٢) النبل: السهم قبل أن يركب فيه نصله وريشه وهو السهم العربي.

(٣) يعني من الاعتناق والمصافحة وتقبيل اليد ونحو ذلك.

(٤) بهذا الحجر: يعني مقام إبراهيم.

«رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ[1] وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا[2] أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا[3] وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً[4] مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ[5] وَيُزَكِّيهِمْ[6] إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

ولما فرغا من بناء البيت أمر الله إبراهيم أن يُؤذِّن في الناس بالحجِّ، فأجاب دعاء ربِّه، ونادى: «أيها الناس، كتب الله عليكم الحجَّ إلى البيت العتيق» .. ثم حجَّ إبراهيم وإسماعيل ومن معهما من المسلمين.

وقد أمر الله إبراهيم بذبح ولده فامتثل أمر ربه ولما هم بذبحة فداه الله بذبح عظيم ولقد أختلف في أي ولديه الذبيح أهو إسماعيل أم إسحق وقد قال بكل من القولين جماعة من المسلمين.

قال أبو البقاء في «الكليات»:

واتفقت الأحاديث الصحيحة وتضافرت نصوص العلماء على أن العرب من عهد إبراهيم عليه السلام على دينه، لم يكفر أحد منهم قط ولم يعبد

---

(١) مسلمين: أي خاضعين.

(٢) يعني: واجعل من ذريتنا.

(٣) أرنا مناسكنا: أي عرّفنا متعبداتنا في الحج أو بصرنا بها.

(٤) منهم: أي من أنفسهم وقد استجيب دعاؤه فلذلك قال رسول الله أنا دعوة أبي إبراهيم.

(٥) الحكمة: الشريعة وبيان الأحكام.

(٦) يُزكيهم: يطهرهم من الشرك وسائر الأنجاس.

صنمًا إلى عهد عمرو بن لحي الخزاعي؛ فإنه أوَّل من غيَّر دين إبراهيم عليه السلام وعبد الأصنام وسيَّب السوائب.

وذكر السهيلي[١] أنَّ إسماعيل نبيٌّ مُرسل أرسله الله إلى أخواله من جُرهم وإلى العماليق الذي كانوا بأرض الحجاز، فآمن بعض وكفر بعض.

وحكى الحلبي في سيرته أنَّ إسماعيل أُرسل إلى جُرهم وإلى العماليق وإلى قبائل اليمن في زمن أبيه إبراهيم، وكذا بعث أخوه إسحق على أهل الشام، وبعث ولده يعقوب إلى الكنعانيين في حياة إبراهيم، فكانوا أنبياء على عهد إبراهيم عليه السلام.

وتوفِّي إسماعيل عليه السلام بمكة ودُفن بالحجر عند قبر أمه هاجر، أما الشرع الذي بعث به إسماعيل فهو شرع أبيه إبراهيم.

المختلَف في نبوَّتهم من العرب:

لقد أوحى الله دينه لمن ارتضى من خلقه، فإن لم يأمرهم بتبليغ فهُم الأنبياء، وإن أمرهم به فهم المرسلون.

ومن الأنبياء المختلَف في نبوته وعدهم أبو البقاء في كلياته فقال: **والمختلف في نبوتهم نيف وعشرون: لقمان وذو القرنين والخضر وذو الكفل وسام وطالوت وعُزير وتُبع وكَلِب وخالد بن سنان وحنظلة بن صفوان والأسباط - وهم أحد عشر - وحوَّاء ومريم وأم موسى وسارة وهاجر وآسية.**

---

(١) ما ننقله عن السهيلي فمن كتابة «الرّوض الأنف».

ولم يُشتهر عن مجتهد غير الشيخ أبي الحسن الأشعري القول بنبوّة امرأة، والواحد لا يخرق الإجماع على أنه تعالى لم يستنبئ امرأة بدليل ﴿وَمَا أَرسَلنَا مِن قَبلِكَ إلاَّ رِجَالاً﴾.

ولنتكلّم على العرب منهم وهم تُبع وخالد بن سنان وحنظلة بن صفوان فنقول:أمَّا «تُبَّعٍ» فهو لقب ملك اليمن لا يُلقَّب به حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت، ولا أدري أي التبابعة المختلَف في نبوَّته، أهو الرائش وهو تبع الأول، أو كرب تبان أسعد[1]، وهو تبع الآخر، أو غيرهما.

وتُبَّع الآخر هو الذي عمَّر البيت الحرام وكساه وجعل طريقه حين أقبل من المشرق على المدينة، فمرَّ بها ولم يهاجم أهلها، وخلف بين أظهرهم ابنه فقُتل غيلة، فقدمها وهو مجمع على خرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها فقال له أحد أحبار اليهود من أهلها: «الملِك أجلُّ من أن يطير به نزق أو يستخفَّه غضب، وأمرُه أعظم من أن يضيق عنا حِلمه أو نُحرم صفحه، وهذا البلد سوف يُبعث فيه نبي بدين إبراهيم»، فاعتقد صدقه وتهوَّد وأدخل اليهودية بلاد اليمن وكان دينهم الوثنية.

وأمَّا «خالد بن سنان» بن غيث العبسي، فذهب بعضهم على أنه كان مؤمنًا ولم يكن نبيًّا، بينما أجمع كثيرون على نبوَّته .. قال الحلبي في سيرته:

قال بعضهم: لم يكن في بني إسماعيل نبي غير خالد بن سنان قبل محمد، إلاَّ أنه لم يُبعث بشريعة مستقلَّة، بل بتقرير شريعة عيسى، وكان بينه

---

(١) تبان أسعد: اسمان جُعلا اسمًا واحدًا، فإن شئت أضفت كما تضيف «معدي كرب» وإن شئت جعلت الإعراب في الاسم الآخر.

وبين عيسى ثلاثمائة سنة .. وخالد هذا هو الذي أطفأ النار التي خرجت بالبادية بين مكة والمدينة، وكادت العرب تعبُدها كالمجوس، كان يرى ضوءها من مسافة ثمان ليال، وربما كان يخرج منها العنق فيذهب في الأرض فلا يجد شيئًا إلا أكلَه، فأمر الله تعالى خالد بن سنان بإطفائها، وكانت تخرج من بئر ثم تنتشر، فلما خرجت وانتشرت أخذ خالد يضربها ويقول: «بدا بدا بدا[١] كل هدى»[٢]، وهي تتأخر حتى نزلت إلى البئر، وهو خلفها، فوجد كلابًا تحتها فضربها وضرب النار حتى أطفأها!

وقيل أنه كان السبب في خروجها، فإنه لما دعا قومه كذبوه وقالوا له: «إنما تخوِّفنا بالنار، فإن تُسل علينا هذه الحرَّة نارًا اتبعناك»، فتوضَّأ ثم قال: «اللهم إنَّ قومي كذبوني ولم يؤمنوا بي إلاَّ أن تسيل عليهم هذه الحرَّة نارًا»، فأرسلها عليهم نارًا فخرجت فقالوا: «يا خالد، ارددها؛ فإنا مؤمنون بك»، فردَّها.

قيل: وكان خالد بن سنان إذا استسقى يُدخل رأسه في جيبه فيجيء المطر ولا يقلع إلاَّ أن يرفع رأسه!

رُوى أنَّ ابنته قدمت وهي عجوز على النبي فأكرمها وبسط لها رداءه وقال مرحبًا بابنة أخي مرحبا بابنه نبي ضيعه قومه فأسلمت[٣].

وهذا الحديث مُرسل رجاله ثقات.

---

(١) روى ابن عباس أن العرب سمت هذا النار «بدا».

(٢) في تاريخ ابن الأثير أنَّ خالدا توسط النار وضربها بعصاه ففرقها وهو يقول: بدًا بدًا.

(٣) يروي بعضهم أن البنت التي جاءت الرسول ليست بنته الصليبية بل كانت من ذريته ونسله.

وفي البخاري: «أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة، وليس بيني وبينه نبي[1]».

قال بعضهم: وبه يُرَد على من قال كان بينهما خالد بن سنان.

وقد يقال مراده ﷺ بـ«النبي» الرسول الذي يأتي بشريعةٍ مستقلّةٍ، وحينئذ لا يشكل هذا لما علمت أنه لم يأتِ بشريعةٍ مستقلّةٍ.

وأمّا «حنظلة بن صفوان»، فحكى الحلبي أنَّ الله أرسله لأصحاب الرس بعد خالد بن سنان بمائة سنة.

و«الرّس» كما في القاموس وشرحه «البئر المطوية بالحجارة»، وقيل: «القديمة سواء طويت أم لا» ومنه ما في الأساس «وقع في الرّس» أي «بئر لم تطو».

سموا بذلك لأنهم قتلوا حنظلة ودسُّوه فيها، فغار ماؤها وعطشوا بعد ريهم ويبست أشجارهم وانقطعت ثمارهم بعد أن كان ماؤها يرويهم ويكفي أرضهم جميعًا، وتبدلوا بعد الأُنس الوحشة وبعد الاجتماع الفرقة.

الحَرَم وَمَكَانَتُه عِندَ العَرَب:

«الحرم» مكة وما حولها ممَّا يَحرُم صيده وقطع شجره وحشيشه وغير ذلك، وحدود الحرم من مكّة تختلف قُربًا وبُعدًا، فيُحدُّ من جهة المدينة بثلاثة أميال، ومن جهة اليمن والعراق والطائف بسبعة أميال، ومن جهة جدة بعشرة أميال، ومن جهة الجعرانة بتسعة أميال.

---

(١) قيل كان خالد نبيا قبل عيسى.

وللحرم علامات منصوبة .. حُكى في «الروض المعطار» عن الزبير أنَّ أول من وضع علامات الحرم ونصب العمد عليه عدنان ابن أد خوفًا من أن تندرس معالم الحرم أو تتغير، ومقتضاه أنها موضوعه قبل ذلك، وهو الحقّ؛ فإنها من صنع إبراهيم الخليل.

وممَّن ذكر ذلك السيوطي في كتابه «الفلك المشحون» حيث قال:

وأول من نصب أنصاب الحرم إبراهيم الخليل، وكان جبريل يُريه مواضعها، ثم لم تحرَّك حتى كان قصي فجدَّدها، ثم لم تُحرَّك حتى كان رسول الله فبعث عام الفتح تميم بن أُسيد الخزاعي فجدَّدها، ثم لم تُحرَّك حتى كان عمر بن الخطاب فبعث أربعة من قريش كانوا ينتدون في نواديها فجدَّدوا أنصابه وهم مخرمة بن نوفل وأبو هود سعيد بن يربوع المخزومي وحويطب ابن عبد العزَّى وأزهر بن عوف الزهري، حتى كان عثمان بن عفَّان فبعث عن الحجيج عبد الرحمن بن عوف وأمره أن يُجدِّد أنصاب الحرم فبعث عبد الرحمن نفرًا من قريش منهم حويطب بن عبد العزَّى وعبد الرحمن بن أزهر، وكان سعيد بن يربوع قد ذهب بصره في خلافة عمر، وذهب بصر مخرمة بن نوفل في خلافة عثمان، فكانوا يُجدِّدون أنصاب الحرم في كلِّ سنة، فلمَّا ولِّي معاوية كتب إلى مكة فأمر بتجديدها، ثم لما حجَّ عبد الملك بن مروان أرسل إلى أكبر شيخ يُعلِّمه من خزاعة وشيخ من قريش وشيخ من بني بكر وأمرهم بتجديد أنصاب الحرم.

وقال النووي في «شرح المهذَّب»:

إنَّ تلك الأنصاب لا تزال الآن ثابتة في جميع جوانبه إلاَّ من جهة جدَّة وجهة الجعرانة فليس فيها أنصاب.

وقد جعل الله مكة وما حولها حرمًا آمنا يتخطَّف الناس من حوله، واختُلف في حرمتها على قولين:

القول الأول:

إنها صارت حرمًا بسؤال إبراهيم «رَبِّ اجعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا»، يعني مكة وما حولها، فأجاب الله سؤله.

ويعاضده رواية أبي هريرة عن رسول الله أنه قال:

«إنَّ إبراهيم كان عبد الله وخليله، وإني عبد الله ورسوله، وإنَّ إبراهيم حرَّم مكة وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها عضاها وصيدها، ولا يُحمل بها سلاح لقتالٍ ولا يُقطع بها شجر إلاَّ لعلف بعير».

والقول الثاني:

إنها كانت منذ وُجدت حرمًا آمنًا من الجبابرة والمتسلِّطين ومن الخسف والزلزال، وإنما سأل إبراهيم ربَّه أن يجعل حرمه آمنًا من الجدب والقحط، وأن يرزق أهله من الثمرات.

ويؤيِّده ما رُوي عن أبي شريح الخزاعيّ أنَّ النبي لما فتح مكة قام خطيبًا فقال:

«أيها الناس، إنَّ الله سبحانه حرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرامٌ إلى يوم القيامة .. ولا يحلُّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن

يسفك بها دمًا أو يعضد[1] بها شجرًا، وإنها لا تحلُّ لأحدٍ بعدي، ولم تُحل لي إلاَّ هذه الساعة غضبًا على أهلها .. ألا وهي قد رجعت على حالها بالأمس، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فمن قال رسول الله قَتل بها فقولوا إنَّ الله تعالى قد أحلَّها لرسوله ولم يُحلّها لك».

وكانت العرب على دين أبيهم إبراهيم في ذلك، فكانوا لا يُنفرون صيد الحرم ولا يؤذونه .. قال عمرو بن الحارث بن مضاض:

فَسحَّتْ دُمُوعُ العَينِ تَبكِي لِبَلْدَةٍ ... بِهَا حَرَمٌ آمِنٌ وَفِيهَا المَشَاعِرُ

وَتَبكِي لِبَيتٍ لَيسَ يُؤذِي حَمَامَه ... تَظَلُّ بِه أمنًا وَفِيهِ العَصَافِرُ[2]

وَفِيهِ وُحُوشٌ لاَ تَزَالُ أنِيسَةً ... إذَا خَرَجَتْ مِنهُ فَلَيسَت تُغَادِرُ

وقال النابغة الذبياني:

وَالمُؤمِنِ العائِذاتِ الطَيرِ ... تَمسَحُها رُكبانُ مَكَّةَ بَينَ الغَيلِ[3]

ما قُلتُ مِن سَيِّئٍ مِمَّا أُتِيتَ بِهِ ... إذًا فَلا رَفَعَت سَوطي إِلَيَّ يَدِي

---

(١) العضد: القطع.

(٢) تظل به أمنًا: أي ذات أمن، ويجوز أن يكون أمنًا جمع آمن مثل «ركب» جمع راكب، وأراد بـ«العصافر» العصافير، وحذف الياء ضرورة ورفعه على المعنى، أي «وتأمن فيه العصافير».

(٣) اقسم بالله الذي أمن «العائذات»، وهي الحديثة النتاج من الحيوانات، جمع «عائذة» ..و«تمسحها ركبان مكة» أي تمسح عليها ولا تهيجها بأخذ، و«الغيل» بكسر الغين و«السعد» أجمتان كانتا منافع ما بين مكة ومنى.

وكانوا يؤمنون ساكن الحرم مُحسنًا أو مُسيئًا؛ ولذلك قال الزبيدي في العاص بن وائل لمَّا اغتصبه ماله يستحثُّ الناس على إنصافه منه وتخويفه وإن كان مقيمًا في الحرم.

إنَّ الحَــرامَ لِمَــنْ تَمَّــتْ حَرَامتُــهُ ... وَلاَ حَرَامَ لِثَوبِ الفَــاجِرِ الغَــدِرِ

ويرون مكة بلدًا لقاحًا لا تؤدي إتاوة ولا تدين للملوك، وهي كذلك؛ ولذلك سُمي بيت الله بــ«البيت العتيق»؛ لأنه لم يزل حُرًّا ولم يملكه أحد.

قال الزبرقان بن بدر لرجل من بني عوف هجا أبا جهل وتناول قريشًا:

أَتَدرِي مَنْ هَجَــوتَ أَبَــا حَبِيــبَ ... جَلِيلَ خَضَــارِمٍ سَــكَنُوا البِطَاحَــا[١]

أَزَادُ الرَّكــبِ تَــذكُرُ أَمَّ هِشَــامَا ... وَبَيــتَ اللهِ وَالبَلَــدِ اللِّقَاحَــا

روى الزبير أنَّ عثمان بن الحويرث قدم على قيصر في الجاهلية، فتوَّجه وولاَّه أمر مكة، فلمَّا جاءهم بذلك أنفوا من أن يدينوا لملك، وصاح الأسود ابن أسد بن عبد العزَّى ألاَ أنَّ مكة حيٌّ لقاحٌ لا تدين لملك، فلم يتم له مراده .. وكانوا يُحرِّمون غزو الحرم والقتال فيه، وشاهده قول حرب بن أمية لأبي مطر الحضرمي يدعوه على حلفه ونزول مكة.

أبا مَطَــرٍ هَلُــمَّ إِلَــى صَـلاحٍ ... فَتَكفِيــكَ النَّــدامى مِــن قُــرَيش

وَتَأمَنَ وَسطَهُم وَتَعيشُ فِــيهِمِ ... أَبَــا مَطَــرٍ هُــدِيتَ بِخَيــرِ عَــيش

---

(١) الخضارم: جمع خضرم وهو الجواد المعطاء، و«البطاح» جمع أبطح وهو مسيل واسع فيــه دقاق الحصى.

وتَســكُنُ بَلــدَةً عَــزّت لِقاحَــا   وتَـــأمَنُ أن يَـــزورك رَبُّ جَــيشِ

وقول خداش بن زهير في يوم من أيام الفجار لما اقتتلوا ففرت قريش إلى الحرم وقد دخل الليل :

يا شَدَّةً ما شَدَدنا غَيرَ كاذِبَةٍ   عَلى سَخينَةَ لَولا اللَيلُ وَالحَرَمُ

وكانوا يكرهون الظلم في الحزم وشاهده قول رجل من جرهم ينهى عمرو ابن لحي لما ظلم بمكة :**يا عمرو لا تظلم بمكة إنها بلد حرام.**

وقول سبيعة بنت الأجب(١) بن زبينة تنهي ابنها خالد بن عبد مناف عن الظلم في الحرم وتعظم حرمة مكة :

أبُنَـــيَّ لاَ تَظلـــمْ بِمَكـــةَ   لاَ الصَّـــغِيرَ وَلاَ الكَبِيــــر

واحفِـــظْ مَحارِمَهَـــا وَلاَ   يَغـــرُرْكَ بــالله الغَـــرور

أبُنَـــيَّ مَـــن يَظلِـــم بِمَكَّـــةَ   يَلـــقَ أطـــرَافَ الشُّـــرُور

أبُنَـــيَّ يَضـــرِبُ وَجهَـــهُ   وَيَلِـــج بِخدّيـــهِ السَّـــعير

اللَّـــه آمَنَهـــا وَمَـــا   بُنِيـــت بِعَرصَـــتِها القصُـــور

وقد بلغ احترامهم للحرم أنهم كانوا ينزلونه نهارًا ولا يبيتون فيه ليلاً، وإذا نزل أحدهم نهارًا وأراد قضاء حاجة الإنسان خرج إلى الحل تنزيهًا له، ولا يبنون فيه بناء ولقد مرَّ عليك قول سبيعة بنت الأحب:

اللَّـــهُ آمَنَهـــا وَمَـــا   بُنِيت بِعَرصَـتِها القصُـور

---

(١) قال سيبويه: «الأحب» بالحاء المهملة بقول أهل النسب، وأبو عبيدة يقوله بالجيم.

وإنما كانوا إذا نزلوا في الحرم ينزلون في العريش، وكانت العمالقة وجُرهم حين ولايتهم الحرم ينتجعون جبال مكة وأوديتها ينزلون بها، وكانت خزاعة حين ولايتها على الحرم تنزل بطن مر .. فلما كانت ولاية الحرم لقريش في قصي ابن كلاب بني دار الندوة وهي أول دار بنيت بمكة، وجعل بابها جهة البيت، وأمر قريشًا أن يبنوا بيوتهم في الحرم حول الكعبة لتهابهم العرب ولا تستحلَ قتالهم، فبنوا حول البيت وجعلوا أبواب بيوتهم جهته، لكلٍّ بطنٍ منهم باب يُنسب إليه كباب بني شيبه وباب بني سهم وباب بني مخزوم وباب بني جمح، وتركوا قدْر الطَّواف.

قال المبرّد في «الكامل»:**ثم غزت قريش بعد ذلك بهذا الجوار حتى كان يقال يكفيك من قريش أنها أقرب الناس من بيت الله بيتًا.**

وكان يقال لدار أسد بن عبد العزَّى «رضيع الكعبة»؛ لأنها كانت تفيء عليها الكعبة صباحًا وتفيء على الكعبة عشيًا، وإن الرجل من ولد أسد ليطوف بالبيت فينقطع شسع نعله فيرمي به في منزله فيُصلَح له، فإذا عاد في الطواف رمي بها إليه .. وفي ذلك يقول الشاعر:

لِهَاشِمٍ وَزُهَيرِ فَضلُ مكرَمَـــةٍ بِحَيثُ حلَّــتْ نُجُــومُ الكَــبشِ وَالأَسَــدِ

مُجَاوِرُ البَيــتِ ذِي الأَركَـــانِ مَا دُونَهُم فِي جوَارِ البَيــتِ مِــنْ أَحَــدِ

قالوا: وقد سُميت بـــ«مكة» لأنها لا تقرُّ ظلمًا ولا بغيًا ولا يبغي فيها أحد إلاَّ "مكته" وأخرجَته، وقد روى الأصمعي قول الراجز في تلبيته:

يَـــا مَكَّــةَ الفَـــاجر مُكِّـــي مَكًّـــا وَلاَ تَمكِّـــي مُـــذحَجًا وَعَكًّـــا

وكانت تُسمَّى أيضًا بـ«الناسة» لأنها تنس من الحدّ فيها، أي تطرده وتنفيه .. وبـ«الباسة» لأنها تبس من الحدّ فيها أي تُحطمه وتهلكه .. ومنه قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا﴾.

ولقد كان اجتناب الظلم في الحرم شريعة عامة ودينًا متبعًا وإن حصل اعتداء على النفس أو المال فنادر كما آذى كفار قريش زيد بن عمرو بن نفيل في مكة لما اطرح عبادة الأصنام كراهة أن يفسد عليهم دينهم فقال وهو يعظم حرمته على من استحل منه ما استحل من قومه.

لاَ هَمَّ أنِّي مُحرَمٌ لاَ حِلَّة[1] وَإنَّ دَارِي أوسَطُ المحلَّة[2]

عِندَ الصَّفَا لَيسَ بِذِي مَضَلَّه

ومن ذلك أيضًا ما رُوى أنَّ قيس بن شيبة السلمي باع متاعًا من أبي بن خلف فلواه بحقِّه، فاستجار برجل من بني جمح فلم يقم بجواره فقال:

يَا آلَ قُصَي، كَيفَ هَذَا فِي الحَرَم؟!

وَحُرمَةُ البَيتِ وَأعلاَقُ الكَرَم

أظلَم لاَ يُمنَع مِنِّي مَن ظُلِم!

فبلغ الخبر العباس بن مرداس السلمي فقال:

---

(١) محرم: ساكن في الحرم.

(٢) المحلة: المنزل.

إنْ كَانَ جَارُكَ لَمْ تَنفَعْـكَ ذِمَّتُـهُ   وَقَدْ شَرِبتَ بِكَـأسِ الغِـلِّ أَنفَاسَـا[1]

فَائتِ البُيُوتَ وَكُـن مِـنْ أَهلِهَـا   لا يَلْقَ نَـادِيهِم فُحشًـا وَلا بَاسَـا[2]

وَثَمَّ كُن بِفِنَاءِ البَيـتِ مُعتَصِـمًا   تَلْقَ ابْنَ حَربٍ وَتَلْقَ المَـرءَ عَبَّاسَـا

قَومِي قُرَيشٌ وَحَلاَ فِي ذُؤابَتِهَـا   بِالمَجدِ وَالحَزمِ مَا حَازَا وَمَا سَاسَا [3]

سَاقِي الحَجِيجَ وَهَذَا يَاسِـرٌ فَلَـجٌ   وَالمَجدُ يُـورَثُ أخمَاسًـا وَأسدَاسَـا

ومازالت تقع كل فترة وأخرى بالحرم مظالم بين حين وآخر سببها إمَّا الطيش والحماقة وإمَّا الاعتماد على القوَّة.

حِلف الفُضُول:

لقد أدرك بعض العقلاء أنَّ ما كان يقع من المظالم في الحرم لو لم يقف الحقُّ في سبيلها وتُردُّ الحقوق لأصحابها لسقطت هَيبة الحرم من نفوس العرب واعتدي على سكان البلد الحرام، فتكلَّموا في ذلك ثم تحالفوا على نصرة المظلوم على الظالم وسمَّوه «حلف الفضول»، فكان في الحقيقة حلفًا سياسيًا اجتماعيا عادت فائدته على قريش خاصةً وعلى العرب عامة، ودفعهم لعقده أيضًا الدِّين مخافة أن يعاقبهم الله على البغي في الحرم.

أمَّا العدوان الذي كان سببًا مباشرًا لهذا الحِلف فهو ما رُوِي أنَّ رجلاً من بني زبيد قدم مكة معتمرًا في الجاهلية ومعه تجارة له فاشتراها منه

---

(١) الذِّمة: بالكسر العهد والغل الحقد.

(٢) كن صدد البيوت: أي قبالتها وقربها، و«الفحش» عدوان الجواب، و«البأس» العذاب.

(٣) القرم: السيد، و«الذؤابة» من العز والشرف وكل شيء أعلاه.

العاص بن وائل السلّمي، وكان ذا قدرٍ بمكة وشرف فحبس عنه حقّه ثم تغيّب، فابتغى الزبيدي متاعه فلم يقدر عليه، فجاء إلى بني سهم يستعديهم عليه فعرف ألاّ سبيل إلى ماله، فطوّف في قبائل قريش يستعين بهم فتخاذلت القبائل عنه وانتهره الأحلاف عبد الدار ومخزوم وجمح وسهم وعدي وكعب .. فلما رأى الزبيدي الشرّ أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقد أخذت قريش مجالسها حول الكعبة فصاح بأعلى صوته:

يَا آلَ فِهرٍ لِمَظلُومٍ بِضَاعَتَهُ ... بِبَطنِ مَكةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ

وَمُحرِمٍ أشعَثَ لَمْ يَقضِ عُمرَتَهُ ... يَا آلَ فِهرٍ وَبَينَ الحَجَرِ وَالحَجَرِ

أَقَائِمٌ مِن بَنِي سَهمٍ بِذِمَّتِهِم ... أم ذَاهِبٌ فِي ضَلاَلِ مَالِ مُعتَمِرِ

إنَّ الحَرَامَ لِمَنْ تَمَّت حَرَامَتُهُ ... وَلاَ حَرَامَ لِثَوبِ الفَاجِرِ الغَدِرِ

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وحلف ليعقدن حلفًا بينه وبين بطون من قريش يمنعون القوي من ظلم الضعيف والقاطن من ظلم الغريب وقال:

حَلفتُ لَنعقِدنَّ حِلفًا عَلَيهِم ... وَإن كُنَّا جَمِيعًا أهلَ دَارِ

نُسَمِّيهِ الفُضُولَ إذَا عَقَدنَا ... يُعِزُّ بِهِ الغَرِيبُ لَدَى الجِوَارِ

وَيَعلَمُ مَنْ حَوَالِي البَيتِ أنَّا ... أُبَاةُ الضَّيمِ نَمنَعُ كُلَّ عَارِ

ثم قال الزبير: ما لهذا نترك يا قوم، إني والله لأخشى أن يصيبنا ما أصاب الأمم السالفة من ساكني مكة .. ومشى إلى عبد الله بن جدعان التيمي وهو يومئذ شيخ قريش، فأخبره بظلم بني سهم، وقد كان أصاب بني سهم أمران ظنوا أنهما للبغي، أحدهما احتراق المقاييس منهم، وهم قيس ومقيس

وعبد قيس بصاعقة، وثانيهما أنَّ ركبًا منهم أقبلوا من الشام فنزلوا بماءٍ يُقال له «القطيعة» فصبُّوا فضلة خمرٍ لهم في إناء فشربوا ثم ناموا، وقد بقيت منهم بقية، فكرع منها حية أسود ثم تقيَّأ في الإناء، فهبَّ القوم فشربوا منه فماتوا عن آخرهم .. فأذكره الزبير بهذا ومثله، واجتمعت كلمة بني هاشم وبني أسد بن عبد العزَّى[1] وبني زهرة وبني تيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعامًا وتحالفوا، وكانت «حرب الفجار» في شعبان وحلف الفضول بعدها في ذي القعدة قبل مبعث رسول الله بعشرين سنة[2]، فتحالفوا في شهرٍ حرام قيامًا يتماسحون بأكفهم، وتعاهدوا بالله ليكوننَّ يدًا واحدة على ألاَّ يُظلم بمكة غريبٌ ولا قريبٌ ولا حُرٌّ ولا عبدٌ حتى يأخذوا له بحقِّه ويكونوا جميعًا مع المظلوم على الظالم حتى يؤدُّوا إليه مظلمته ممَّن ظلمه، شريفًا أو وضيعًا منهم أو من غيرهم، أو يبلغوا في ذلك عذرًا، وعلى ألاَّ يتركوا لأحدٍ عند أحدٍ فضلاً إلاَّ أخذوه، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى التأسِّي في المعاش والتساهم بالمال .. ثم عمدوا على ماء زمزم فجعلوه في جفنه وبعثوا به إلى البيت، فغسلت به أركانه ثم أتوا به فشربوه، ثم انطلقوا إلى العاص بن وائل

---

(١) تابعنا ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة وروى الأغاني عن محمد بن فضالة عن أبيه قال: لم يكن بنو أسد بن عبد العزى في حلف الفضول.

(٢) في رواية أنه ﷺ يومئذ كان ابن خمس وعشرين سنة.

فقالوا: والله لا نفارقك حتى تؤدِّي إليه حقَّه، فأعطى الرجل حقَّه، فمكثوا كذلك لا يُظلم أحدٌ بمكة إلاَّ أخذوا له حقَّه.

ولم يكن لعبد شمس فيه نصيب حتى قال عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس: لو أنَّ رجلاً وحده خرج من قومه لخرجتُ من عبد شمس حتى أدخل في حِلف الفضول.

ولقد شهده رسول الله، فعن عائشة أنها سمعت النبي ﷺ يقول:

«لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول، أما لو دُعيت إليه اليوم لأجبت، وما أحب أنَّ لي به حُمر النعم، وأني نقضته»

وفيه يقول الزبير بن عبد المطلب:

إنَّ الفُضُـــولَ تَحَـــالَفُوا وتَعَاقَـــدُوا ... ألاَّ يُقِـــيمَ بِـــبَطنِ مَكَّـــةَ ظَـــالِمُ[1]

أَمـــرٌ عَلَيـــهِ تَعَاهَـــدُوا وتَوَاثَقُـــوا ... فَالجَـــارُ وَالمُعْتَـــرُ فِـــيهِم سَـــالِمُ[2]

وسبب تسميته بذلك أنَّ قريشًا لمَّا تكلموا في عقده قال المطيبون والله لئن تكلمنا في هذا ليغضبنَّ الأحلاف، وقال الأحلاف والله لئن تكلمنا في هذا ليغضبن المطيبون، وقال ناس من قريش: تعالوا، فليكن حلفًا فضولاً دون المطيبين ودون الأحلاف.

---

(١) الفضول: هم القبائل التي عقدت هذا الحلف.

(٢) المعتر: الفقير والمعرض للمعروف من غير أن يسأل.

وقيل: إنما سُمي بذلك لأنَّ قريشًا قالوا «والله لقد دخل هؤلاء في فضلٍ من الأمر».

ونقل السهيلي سبب هذه التسمية عن ابن قتيبة فقال:

كان قد سبق قريشًا إلى مثل هذا الحلف جُرهم في الزمن الأول، فتحالف منهم ثلاثة ومن تبعهم: أحدهم الفضل بن فضالة، والثاني الفضل بن وداعة، والثالث فضيل بن الحارث - هذا قول القتبي - وقال الزبير: الفضيل بن شراعه والفضل ابن وداعة والفضل بن قضاعة، فلمَّا أشبه حلف قريش الآخر فعل هؤلاء الجُرهميين سُمِّي «حلف الفضول»، والفضول جمع «فضل»، وهي أسماء أولئك الذين تقدَّم ذِكرهم.

وهذا الذي قاله ابن قتيبة حَسن، ولكن في الحديث ما هو أقوى منه وأولى؛ وهو ما رواه الحميدي عن سفيان عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن بن أبي بكر قالا: قال رسول الله ﷺ:

«لقد شهدت في دار عبدا لله بن جدعان حلفًا لو دُعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن تُرد الفضول على أهلها...».

فقد بيَّن هذا الحديث لِمَ سُمِّي «حلف الفضول».

وكان هذا الحِلف أكرم حِلف في العرب وأشرفه لوفرة منافعه جاهليةً وإسلامًا، فقد ردَّ العدل إلى نصابه في كثيرٍ من الحوادث.

فمن آثار نفعه في الجاهلية ما ذكره قاسم بن ثابت في غريب الحديث أنَّ رجلا من خثعم قدم مكة معتمرًا أو حاجًّا ومعه بنت له يقال

لها «القتول» من أوضأ نساء العالمين، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيبها عنه: فقال الخثعمي: من يعديني على هذا الرجل؟.. فقيل له: عليك بحلف الفضول، فوقف عند الكعبة ونادى: يا لحلف الفضول، فإذا هم يتعاقبون إليه من كلٍّ جانب وقد انتضوا سيوفهم يقولون جاءك الغوث فما لك؟ فقال: إنَّ نبيها ظلمني في ابنتي وانتزعها مني قسرًا، فساروا معه حتى وقفوا على باب الدار فخرج إليهم فقالوا: أخرج الجارية، ويحك، فقد علمت من نحن وما تعاقبنا عليه، فأخرجها إليهم.

ومن ذلك ما في «الأغاني» أنَّ رجلاً من ثمالة قدم مكة فباع سلعه له من أُبَي بن خلف الجمحي فظلمه، وكان يسيء المخالطة، فأتى الثمالي إلى أهل حلف الفضول فأخبرهم فقالوا له: اذهب فاخبره أنك أتيتنا، فإن أعطاك حقَّك وإلاَّ فارجع إلينا، فأتاه فأخبره بما قال له أهل حلف الفضول فأخرج له ماله وأعطاه إياه بعينه وقال الثمالي في ذلك:

أيَأخُذُني فِي بَطنِ مكَّةَ ظَالِمًا … أبِي وَلاَ قَومِي لَدَيَّ وَلاَ صَحبِي

وَنَادَيتُ قَومِي صَارِخًا لِتُجِيبَنِي … وَكَمْ دُونَ قَومِي مِن فَيَافٍ وَمِنْ سُهُبِ

وَيَأبَى لَكُمْ حِلفُ الفُضُولِ ظُلاَمَتِي … بَنِي جَمحٍ وَالحَقُّ يُؤخَذُ بِالغَصبِ

ولقد قطع الإسلام ما كان في الجاهلية من قولهم «يا لفلان» عند التحزُّب، حتى لقد سمع رسول الله يوم المُرَيسِيع[1] رجلاً يقول: يا للمهاجرين وآخر يقول يا للأنصار، فقال:

---

(١) إحدى غزوات النبي، و«المريسيع» اسم قرية من قرى الوادي.

دعوها فإنها منتنة؛ لأنّ الله جعل المؤمنين أخوة، فلا يقال إلاّ «يالله» و«يا للمسلمين».

وجاز بالحلف الفضول خصوصية له لقوله ﷺ: «**ولو دعيت به اليوم لأجبت**»، يريد: «لو قال مظلوم ذلك لأجبت»؛ وذلك لأنّ الإسلام إنما جاء بإقامة الحقّ ونصرة المظلوم، فلم يزدد به هذا الحلف إلاّ قوة .. وليس المراد بقوله ﷺ: «**وما كان من حلف في الجاهلية فلن يزيده الإسلام إلا شدَّة**» أن يقول الحليف يا لفلان لحلفائه فيجيبوه، بل «الشدَّة» في الحديث ترجع لمعنى التعاطف والتواصل.

ولقد همَّ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما بأن يُهتف به، فلقد رُوي أنه كان بينه وبين الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان أمير المدينة من قبل معاوية منازعة في مال كان بينهما بذي المروة، فتحامل الوليد على الحسين في حقِّه لسلطانه، فقال له الحسين: «احلف بالله لتنصفني من حقِّي أو لآخذنَّ سيفي ثم لأقومنَّ في مسجد رسول الله ثم لأدعونَّ بحلف الفضول»، وكان عبد الله بن الزبير عند الوليد حينئذ فقال: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لأخذنَّ سيفي ثم لأقومنَّ معه حتى يُنصف من حقِّه أو نموت جميعًا، وبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري وعبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقالا مثل ذلك.

فلمَّا بلغ ذلك الوليد بن عُتبة أنصف الحسين من حقِّه حتى رضي.

ومن ذلك ما في «الأغاني» أنَّ الحسين بن علي كان بينه وبين معاوية كلام في أرضٍ له، فخرج مغضبًا من عنده، فلقي عبد الله بن الزبير فذكر له

الحسين أنَّ معاوية ظلمه حقَّه، وقال: «أُخيِّره في ثلاث خصال والرابعة الصَّيلم[1]، أن يجعلك أو ابن عمر بيني وبينه، أو يقرَّ بحقِّي ثم يسألني فأهبه له أو يشتريه مني، فإن لم يفعل فوالذي نفسي بيده لأهتفنَّ بحلف الفضول».

قال ابن الزبير: «والذي نفسي بيده لئن هتفت به وأنا قاعد لأقومنَّ أو قائم لأمشينَّ أو ماشٍ لأشدنَّ حتى يفني رُوحي مع رُوحك أو ينصفك» .. قال: ثم ذهب ابن الزبير إلى معاويةَ فقال لقيني الحسين فخيَّرك في ثلاث خصال والرابعة الصيلم، قال معاوية: لا حاجة لنا بالصيلم، فهات الثلاث، قال: تجعلني أو ابن عمر بينك وبينه .. قال: قد جعلتك بيني وبينه أو ابن عمر أو جعلتكما، قال: أو تقرُّ له بحقِّه وتسأله إياه، قال: أنا أقرُّ له بحقِّه وأسأله إياه، قال أو تشتريه منه، قال وأنا أشتريه منه، قال فلما انتهى على الرابعة قال لمعاوية كما قال للحسين «لو دعاني إلى حلف الفضول لأجبته»، فقال معاوية: لا حاجة لنا بهذا.

بِنَاءُ الكَعبَة وَكسوَتُهَا

أول من بني الكعبة إبراهيم عليه السلام ذكر صاحب «الرّوض المعطـــار» من أنَّ إبراهيم بناها ولم يجعل لها سقفًا، ثم انهدمت فبناها العمالقة، ثم انهدمت فبنتها جُرهم[2]، ثم انهدمت فبناها قُصي بن كلاب وسقَّفها بخشب الدوم وجريد

---

(١) الصيلم: الأمر الشديد والدَّاهية.

(٢) قال السهيل: وقد قيل أنه بُني في أيام جرهم مرة أو مرتين لأنّ السيل كان قد صدَّع حائطـــه .. ولـــم يكن ذلك بنيانًا إنما كان إصلاحًا لِما وهي منه وجدارًا بُنى بينه وبين السيل بناه عامر الجار ود.

النخل، وجُعل ارتفاعها خمسًا وعشرين ذراعًا وفي بناء جرهم وقصي لها .. يقول أعشى قيس:

حَلَفتُ بِثَــوبِي رَاهِــب الشــام وَالَّتِــي بَنَاهَا قُصَيّ وَحدَهُ وَابنُ جُــرهُم

ثم بنتها قريش، وشهد رسول الله بناءها وعمره خمس وعشــرون سنة، وكان بابها في الأرض، فقال أبو حذيفة بن المغيرة: يا قوم، ارفعوا الباب حتى لا يُدخل إلاَّ بسلَّم؛ فإنه لا يدخلها حينئذ إلاَّ من أردتم، فإن جاء أحد ممَّن تكرهون رميتم به فيسقط، فكان نكالاً لمن رآه.

ففعلت قريش ذلك، ولما أجمعت قريش أمرهم على هدمها وبنائها، قال أبو وهب بن عمرو بن عائذ المخزومي: يا معشر قريش، لا تُــدخلوا في بنائها من كسبكم إلاَّ طيبًا، لا يدخل فيه مهر بغي ولا بيــع ربــا ولا مظلمة أحد من الناس(١).

وهدموها حتى انتهى بهم الهدم إلى أساس إبراهيم، ورأوا أنَّ مــا أخرجوا من النفقة لا يكفي للبناء، فأجمعوا أمرهم على أن يبنوا من البيت على أساس إبراهيم بقدر ما أخرجوا من النفقة، ويتركوا بقيته في الحجر عليه جدار مدار يطوفون من ورائه، فتركوا من شمال البيت ســتة أذرع وشبرًا، وبنوا أساسًا في بطن الكعبة يبنون عليه، وشرعت القبائــل فــي بنائها حتى إذا بلغ البنيان موضع الــركن - وهــو الحجــر الأســود -

---

(١) فيه دليل على حرمة الزنا والربا والظلم .. علَّهم يعلمون ذلك ببقية من بقايا شرع إبراهيم.

اختصموا كلٌّ قبيلة تريد أن تضعه موضعه حتى تحالفوا وأعدُّوا للقتال عُدَّته، ثم اتفقوا على أن يُحكِّموا أول من يدخل من باب المسجد، فكان رسول الله، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد .. وأخبروه خبرهم فدعا ﷺ بثوب فأُتِي به ثم قال: لتأخذ كلٌّ قبيلة بناحيةٍ من الثوب ثم ارفعوه جميعًا، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه أخذه بيده الشريفة فوضعه موضعه(١)

ثم بُني عليه، ولم تزل على بنائها على أن تولى عبد الله بن الزبير أمر مكة في زمن يزيد بن معاوية، فأرسل يزيد إليه الحصين بن نمير في عسكر كثيف من أهل الشام، فالتجأ ابن الزبير بالمسجد فرماه الحصين بالمنجنيق، فأصاب مقذوفه الكعبة، فهدمها وحرق كسوتها وبعض خشبها، ثم مات يزيد وانصرف جنده فهدمها عبد الله بن الزبير وبناها على قواعد إبراهيم، وكسا بابها بصفائح الذهب، وجعل مفاتيحها من الذهب وأدخل الحجر فيها، وجعل لها بابين ملصوقين بالأرض شرقيًّا وغربيًّا يدخل من واحد ويخرج من الآخر؛ وذلك لِما حدَّثته به عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) حكى الزبير بن أبي بكر أن الذي وضع الركن في بناء عبد الله بن الزبير ابنه حمزة، اغتنم فرصة شغل الناس بالصلاة خلف أبيه في المسجد فوضعه حين أحسَّ منهم التنافس في ذلك وخاف الخلاف فأقرَّه أبوه.

«ألم ترَ قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم حين عجزت بهم النفقة؟»

ثم قال ﷺ: **«لولا حدثان عهد قومك بالجاهلية لهدمتها وجعلت لها خلفًا[١]»**

وأُلصق بابها بالأرض وأُدخل فيها الحجر، وكان فراغه من بنائها في السابع عشر من شهر رجب سنة أربع وستّين.

فلما تولى عبد الملك بن مروان أرسل لابن الزبير جيشًا وعلى رأسه الحجاج ابن يوسف، فحاصره في مكة حتى استشهد سنة ثلاث وسبعين، فدخل الحجاج مكة وكتب لعبد الملك بما صنعه ابن الزبير في الكعبة، فقال: لسنا من تخليط أبي خبيب[٢] بشيء .. وأمره أن يعيدها إلى ما كانت عليه زمن رسول الله، فهدم من جانبها الشمالي ست أذرع وشبرًا، وبنى على أساس قريش ورفع الباب الشرقي وسد الغربي، ولم يغير من باقيها شيئًا، فلمَّا فرغ من بنائها قدم إلى عبد الملك الحارث بن أبي ربيعة المعروف بـ«البقاع»، وهو أخو عمر ابن أبي ربيعة ومعه رجل آخر فحدَّثاه حديث عائشة المتقدِّم، فندم وجعل ينكُت الأرض بخنصره في يده ويقول: وددت أني تركت أبا خبيب وما تحمل في ذلك.

فلمَّا تولَّى أبو جعفر المنصور أراد أن يبنيها على ما بناها ابن الزبير وشاور في ذلك فقال له مالك بن أنس: أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألاَّ تجعل

---

(١) خلفًا: أي بابا آخر من خلفها.

(٢) أبو خبيب: كنية عبد الله بن الزبير تكنَّى باسم ولده خبيب.

هذا البيت ملعبةَ للملوك بعدك، لا يشأ أحد منهم أن يغيره إلاَّ غيَّره فتذهب هيبته من قلوب الناس .. فصرفه عن ذلك، فالكعبة إلى اليوم حائطها الشمالي من بناء الحجاج وباقي حوائطها من بناء ابن الزبير.

أمَّا كسوتها:

فقد كُسيت في الجاهلية من زمن قديم إعظامًا لها، وأول من كساها تُبَّع الآخر وهو تبان أسعد المتقدم ذكره عند الكلام على المختلف في نبوءتهم من العرب رووا أنه قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه وأقام بها ستة أيام ينحر للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل المصفَّى، ورأى في المنام أن يكسو البيت فكساه الخصف[١]، ثم رأى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الثياب المعافريه[٢] ثم رأى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملاء والوصائل[٣].

قال ابن هشام: وأوصى بالبيت، ولأنه من جرهم وأمرهم بتطهيره وألاَّ يقربوه دومًا ولا ميتةً ولا ملاءة وهي المحائض[٤]، وجعل له بابا ومفتاحًا.

وقال في كسوته:

---

(١) جمع خصفة، وهي ثوب غليظ أو شيء ينسج من الخوص والليف.

(٢) نسبة إلى «مَعافر» بفتح الميم، بلد أو حي من همدان.

(٣) الوصائل ثياب حبرة من عصب اليمن سميت بذلك لأنها كانت يوصل بعضها ببعض واجدتها وصيلة.

(٤) قال السهيلي: لم يرد النساء الحيض لأن حائضا لا يُجمع على محائض، وإنما هي جمع محيضة، وهي خرقة المحيض.

وكَسَونا البيتَ الَّذِي حرَّم اللـ ـهُ مُلاءً مُعَضَّدا وبُرُودا[1]

فأقمْنا بـه من الشهر عَشْرًا وجعلنا لِبَابِـهِ إقْلِيدا [2]

ونَحَرْنا بالشِّعبِ سِتَّةَ ألفٍ فترى الناس نحوَهنَّ وُرُودَا

ثُمَّ سِرْنا عنه نؤُمُّ سُهَيْلا فرفعْنا لِواءَنا مَعْقُودَا

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:

«لا تسبوا أسعد الحميري فإنه أول من كسا الكعبة».

وقالت سبيعة بنت الأحب من قصيدة:

وَلَقَدْ غَزَاهَا تُبَّعُ وَكَسَا بنِيَتَهَا الحَبِيرُ[3]

وَأذَلَّ رَبِّي مُلكَهُ فِيهَا فَأوفَى بِالنُّذُورِ

يَمشِي إلَيهَا حَافِيَا بِفِنَائِهَا ألفَا بَعِيرِ

وَيَظِلُّ يُطعِمُ أهلَهَا لَحمَ المَهَارِي وَالجُزُورِ

يَسقِيهِمُ العَسَلَ المُصَفَّى وَالرَّحِيضَ[4] مِنَ الشَّعِيرِ

ثم كستها العرب بأنواع كثيرة .. رُوي عن ابن مليكة أنه قال:

بلغني أنَّ الكعبة كانت تُكسَى في الجاهلية كسيًّا شتى، وكانت البدن تُجلَّل الجبر والرود والأكسية وغير ذلك من عصب اليمن، وكان يهدي للكعبة

---

(١) المعضد: كمعظم ثوب له علم في موضع العضد.

(٢) الإقليد: المفتاح.

(٣) غزاها: طلبها وقصدها، وتريد بـ«الحبير» الحبرات.

(٤) الرحيض من الشعير: أي المنقّى والمصفّى منه.

هدايا من كسي شتى سوى جلال البدن حبر وخز وأنماط فتكسى منه الكعبة ويُجعل ما بقي في خزانة الكعبة، فإذا بلى منها شيء أُخلف عليها مكانه ثوب آخر ولا يُنزع منها شيء.

وعنه أيضًا أنه قال:

كانت قريش في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة، فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قصي بن كلاب حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكان يختلف إلى اليمن يتاجر فيها فأثرى في المال فقال لقريش: أنا أكسو الكعبة وحدي سنة وجميع قريش سنة، فكان يفعل ذلك حتى مات، يأتي بالحبر الجندية من الجند وهي بلدة باليمن فيكسو الكعبة فسمته قريش «العدل»[1]؛ لأنه عدل بفعله فعل قريش.

وعن ابن جريج أنَّ الكعبة فيما مضى أنما كانت تُكسى يوم عاشوراء إذا ذهب آخر الحاج، حتى كان بنو هاشم فكانوا يُعلِّقون القميص يوم التروية[2] من الديباج[3] ليراها الناس في بهاء وجمال، فإذا كان يوم عاشوراء علَّقوا عليها الإزار.

---

(١) في الأغاني أنَّ العدل هو عبد الله بن أبي ربيعة، وقد قيل أنَّ العدل هو الوليد بن المغيرة.

(٢) هو اليوم الثامن من ذي الحجة.

(٣) اختلف في أول من كساها الديباج فقال الزبير النسابة أنه عبد الله بن الزبير، وحكى ابن إسحاق أنه الحجاج، لكن روى الدارقطني أنَّ نتيلة أم العباس بن عبد المطلب كانت قد أضلت العباس صغيرًا، فنذرت إن هي وجدته أن تكسو الكعبة الديباج، ففعلت ذلك حين وجدته.

وعن عمر بن الحكم قال:

نذرت أمي بدنة تنحرها عند البيت وجللتها شقّتين من شعر ووبر، فنحرت البدنة وسيرت للكعبة بالشقّتين والنبي ﷺ يومئذ بمكة لم يهاجر، فنظرت إلى البيت يومئذ وعليه كسي شتى من وصائل وأنطاع وكرار وخز ونمارق عراقية، كلّ ذلك رأيت عليه.

وذكر ثياب البيت أبو طالب عمُّ النبي ﷺ في قصيدته اللامية المشهورة فقال:

وَأحضَرتُ عِندَ البَيتِ رَهطي وَإِخوَتي وَأمسكتُ مِن أثوابِهِ بِالوَصائِلِ

وأقرَّ الإسلام ما كانوا عليه من كسوته، فكساه النبيﷺ الثياب اليمانية، ثم كساه عمر وعثمان ومعاوية والأمويون .. وكان العباسيون يكسونها الحرير الأسود وينسجون كسوتها بـ«تنيس» إحدى مُدن مصر التي عفت، ولما ضعفت شوكتهم صارت تُرسل كسوتها من ملوك اليمن حينًا وحينًا من ملوك مصر، ثم وقف على كسوتها الملك الصالح بن قلاوون بقريتي «بسوس» و«سندبيس» بالقليوبية، واستمرت مصر ترسلها بعد ذلك حتى العصور الحديثة.

وكانوا في الجاهلية لا ينزعون من ثيابها شيئًا؛ فعن ابن أبي مليكة أنه قال: كانت على الكعبة كسي كثيرة من كسوة أهل الجاهلية من الأنطاع والأكسية والكرار والأنماط، فكانت ركامها بعضها فوق بعض، فلما كسيت في الإسلام من بيت المال كان يُخفَّف عنها الشيء بعد الشيء

إلى أن كانت أيام معاوية فكتب إليه شيبة بن عثمان الحجبي يُرغب إليه في تخفيفها من كسي الجاهلية حتى لا يكون عليها شيء ممًا مسته أيديهم، فكتب إليه معاوية أن يُجرِّدها وبعث إليه بكسوة من ديباج وقباط وحبرة، فجردها شيبة حتى لم يبقَ عليها شيء، وكساها الكسوة التي بعث بها معاوية وقسَّم الثياب التي كانت عليها بين أهل مكة .. وكان ابن عباس حاضرًا في المسجد فلم ينكر عليه ذلك ولا كرهه، وأنكرت عائشة قسمتها بين أهل مكة وقالت لشيبة: بعها واجعل ثمنها في سبيل الله.

ثم لم تكن تجرَّد في كلِّ عام حتى حجَّ الخليفة المهدي العباسي سنة مائة وستين من الهجرة فشكا إليه سدنه الكعبة كثرة الكساوى التي عليها فأمر بها فأُنزلت وأمر ألاَّ يُعلَّق عليها إلاَّ كسوة واحدة، فلم تزل كذلك إلى الآن.

تعظِيم العُجم وَالعَرب لِلكَعبَة:

قد عظمت العجم والعرب الكعبة فمن تعظيم العجم لها أنَّ قدماء المصريين كانوا يُسمون بلاد الحجاز بـ«البلاد المقدسة» لمكان البيت منها، وكان الهنود يعتقدون أنَّ روح «شبوه» أحد آلهتهم – وهو الأقنوم الثالث من تمثال بوذا – قد تقمَّصت في الحجر الأسود حين زيارته بلاد الحجاز .. وكان الفرس يعتقدون أنَّ روح هرمز حلَّت في الكعبة.

وذكر بعضهم أنَّ أسلاف الفرس كانوا يحجُّون البيت الحرام ويطوفون به تعظيمًا لجدِّهم إبراهيم وتمسكًا بهديه وحفظًا لأنسابهم لاعتقادهم إنهم من نسل إبراهيم .. قال المسعودي: **سُميت «زمزم» لأنَّ**

الفرس كانت تحج إليها في الزمن الأول فزمزمت عليها، والزمزمة صوت تخرجه من خياشيمها.

وقال غيره: وكان آخر من حجَّ منهم «ساسان بن بابك» فأتى البيت وطاف به، و"زمزمَ" على البئر، وفي ذلك يقول الشاعر في القديم من الزمان.

زمْزَمَتِ الفُرسُ علَى زَمْزَمِ   وذَاكَ فِي سَالِفِهَا الأَقْدَمِ

و«الزمزمة» كلام المجوس وقراءتهم على صلاتهم وطعامهم .. وقد افتخر بعض شعراء الفرس في الإسلام فقال:

ومازِلنَا نَحُجُّ البَيتَ قُدمًا   ونَلْقَى بِالأَبَاطِحِ آمِنِينَا

وَسَاسَانُ بنُ بَابِكَ سَارَ حَتَّى   أَتَى البَيتَ العَتِيقَ بِأَصيدِينَا

وَطَافَ بِهِ وَزَمْزَمَ عِندَ بِئرٍ   لإسْمَاعِيلَ تَروِي الشَّارِبِينَا

وقد خصَّها العرب بأنواع من الاحترام؛ لأنها بيت الله الحرام وبناء أبيهم إبراهيم وإسماعيل عليها السلام، فمن ذلك أنهم كانوا لا يبنون عندها بيوتًا حتى صارت ولاية الحرم لقُصي بن كلاب، فبنى دار الندوة، وأمر قريشًا أن تبني بيوتها حوله لتهابهم العرب لمكان البيت فامتثلوا لأمره.

وكانوا لا يرفعون بناءهم فوق بنائها تعظيمًا لها، وكانوا يتحاشون التربيع في البناء كيلا يُشبهها، وأول من بنى بيتًا مربعًا حميد بن زهير

أحد بني أسد بن عبد العزَّى كما في «الحيوان» للجاحظ، لكن في «صبح الأعشى» أنَّ أول من فعل ذلك هو بديل بن ورقاء الخزاعي.

وكانوا يخلعون نعالهم عند دخولها، وفي «صبح الأعشى» أنَّ أول من خلع نعليه عند دخولها الوليد بن المغيرة.

وكانوا يحلفون بها، والشواهد على ذلك كثيرة منها قول زهير بن أبي سلمى:

فَأَقْسَمتُ بِالبَيتِ الَّذِي طَافَ حَولَهُ ... رِجَالٌ بَنَوهُ مِن قُرَيشٍ وَجُرهُمِ

وكانوا يضمخون البيت في الجاهلية بلحوم الإبل ودمائها، فلمَّا جاء الإسلام قال أصحاب رسول الله: فنحن أحق أن نضمخ، فأنزل الله تعالى:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ .

ولقد اشترك اليهود والنصارى والمشركون في احترامها، واتَّخذوها معبدًا كلٌّ يعبد ربَّه فيه كما أمره دينه حتى صوَّروا بها المسيح والعذراء، وصوَّروا بها إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام، ووضعت كلُّ قبيلة صنمها الذي تعبده عليها حتى اجتمع على سطحها ثلاثمائة وخمسة وستون صنمًا، وما زالت كذلك حتى بعث رسول الله فمحا الصور وكسر الأصنام وخلَّصها لعبادة الله وحده.

ولعظيم مكانة الكعبة والحرم لدى العرب اعترفوا لسكان الحرم ومجاوري البيت الحرام بالرئاسة، وهذا ما دعا بعضهم لبناء بيت واتخاذ حرم ليُضاهي به حرم الله وبيته، فلم يتم له ما أراد كبناء «بس» وكنيسة «القليس».

أمَّا بناء بس[1] فحكى الأغاني خبره، وهو أنَّ بني بغيض بن غطفان لمَّا استشعروا من نفسهم القوة عند ما انتصروا على صداء - وهي قبيلة من مذحج - قالوا: والله لنتخذنَّ حرمًا مثل حرم مكة لا يُقتل صيده ولا يُعضد شجره ولا يُهاج عائذه .. فاتخذوه عند ماء لهم يقال له «بس»، وكان القائم على أمر الحرم وبناء حائطه رياح بن ظالم، فلمَّا بلغ فعلهم هذا زهير بن جناب - وهو يومئذ سيد كلب - قال: «والله لا يكون هذا أبدًا وإنا حي»، فسار في قومه حتى غزا غطفان فظفر بهم وأسر فارسًا في حرمهم، فقال لأحد أصحابه اضرب رقبته، فقال إنه بسل فقال زهير: وأبيك ما بسل علي بحرام، ثم قام إليه فضرب عنقه وعطَّل ذلك الحرم، وكانت الولاية على هذا الحرم لبني مرَّة بن عوف.

وأما **كنيسة القُلَّيس**[2] فقد بناها أبرهة الأشرم ملك اليمن من قبل النجاشي بصنعاء إلى جنب غمدان لما دانت له قبائل العرب وملك قيادها، ولمَّا تم له بناؤها كتب إلى النجاشي:

---

(١) في القاموس بس بيت لغطفان بناه ظالم بن اسعد لما رأى قريشا يطفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة فذرع البيت وأخذ حجرا من الصفا وحجرا من المروة فرجع إلى قومه فبني بيتات على قدر البيت وضع الحجرين فقال هذان الصفا والمرومة واجتزءوا به عن الحج فأغار زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالما وهدم بناءه.

(٢) قال السهيلي: سميت هذه الكنيسة «القليس» لارتفاع بنائها وعلوها، ومنه القلانس لأنها في أعلى الرءوس.

«إني قد بنيت لك بصنعاء بيتًا لم تبنِ العرب والعجم مثلــه، ولــن أنتهي حتى أصرف حاج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيــتهم» .. فلمّـــا تحدَّثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من أحد بني فقيم بن عدي بن عامر، فخرج حتى أتى القُلَّيس فأحدث فيها، ثــم خــرج فلحق بقومه .. فلمّا أُخبِر بذلك أبرهة سأل عمَّن صنعه فقيل لـــه صـــنعه رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي بمكة لمّا سمع قولك «أصــرف إليها حاج العرب»، فغضب أبرهة وحلف ليسيرنَّ إلى البيت حتى يهدمه، ثم سار بجيشه ومعه الفيل، فلمّا نزل بالمغمس – وهو مكان قريب مــن مكة – أرسل إلى قريش فأخبرهم أنه لا يريد إلاَّ هدم البيــت، فــإن لــم يتعرَّضوا لقتاله لا يقاتلهم .. وعلمت قريش إنها لا طاقة لها بحربه، فأخذ عبد المطلب بحلقه باب الكعبة وقام ومعه نفر مــن قــريش يــدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده وقال:

لهُــمَّ أنَّ المَــرءَ يَمنَـــ ـــعُ رحلهُ فَــامنَع حلاَلَــكْ [1]

وَانصُرْ عَلَى آلِ الصَّلِيـــ ـــبَ وَعَابِدِيــهِ اليَــومَ آلَــكْ

لا يَغْلِبَـــنَّ صــليبُهُم ومحِــالُهم عَــدوًا مِحالَــكْ [2]

إنْ كنــتَ تــاركَهُمْ وَقِبْـــ ـــلَتَنا فــأمْرٌ مــا بَــدَا لَــكْ

---

(١) العرب تحذف الألف واللام من «اللهم» وتكتفي بما بقي، و«الحلال» حلول القوم في المكان.

(٢) المِحال: بكسر الميم الكيد أو التدبير أو المكر أو القدرة أو القوة والشدّة.

ثم خرج مع قريش من مكة وتحرَّزوا في شعف الجبال والشعاب تخوفًا عليهم من معرَّة الحبش، وأخذوا ينتظرون ما أبرهة فاعلٌ بمكة إذا دخلها، فلمَّا أصبح أبرهة تهيَّأ لدخول مكة وهيَّأ فيله وأعدَّ جنده.

فلمَّا وجَّهوا الفيل إلى جهة الكعبة برَك، فضربوا رأسه بالفأس ليقوم فأبى، فأدخلوا لهم محاجن في مراقة حتى أدموه ليقوم فأبى، فوجَّهوه إلى اليمن فقام يهرول، ووجَّهوه إلى الشام فقام يهرول، ووجَّهوه إلى المشرق فقام يهرول، ووجَّهوه إلى مكة فبرَك .. وجعل الله كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل[1]، لا تُصيب منهم أحدًا إلاَّ هلك، فخرجوا يتساقطون بكلِّ طريق ويهلكون بكلِّ مهلك ومعهم أبرهة مصاب في جسمه يسقط أنملة أنملة، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه!

فلمَّا رأت العرب ما حلَّ بأصحاب الفيل أعظموا قريشًا وقالوا «أهل الله، قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم».

ولقد استذلَّ أبرهة أهل اليمن في بناء القليس، وبناها بحجارة قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام، وكان مبنيًا بموضع من هذه الكنيسة على فراسخ وبه بقايا من آثار ملكها، فاستعان بذلك على ما أراده من بهجتها وحُسنها، فوضع أبرهة الرجال نسقا يناول بعضهم بعضا الحجارة

---

(١) الأبابيل: الجماعات، و«السجِّيل» الشديد الصلب.

والخشب فنقل إليها منه العدد من الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب حتى نقل ما كان في قصر بلقيس ممّا احتاج إليه.

ولقد وصفها ابن العربي[١] نقلاً عن ابن إسحاق فقال:

وكان عرض حائط القليس ست أذرع، وكان له باب من نحاس عشر أذرع طولاً في أربع أذرع عرضًا، وكان المدخل منه إلى البيت في جوفه طوله ثمانون ذراعًا في أربعين ذراعًا مُحلّي بالعاج المنقوش ومسامير الفضة والذهب، ثم يُدخل من البيت على إيوان طوله أربعون ذراعًا، عن يمينه وعن يساره عُقد مضروبة بالفسيفساء مشجرة بينها كواكب الذهب ظاهرة، ثم يُدخل من الإيوان إلى قبة ثلاثون ذراعا في مثلها بالذراع القصير، فيها صلب منقوشة بالذهب والفضة، وفيها رخامة ممّا يلي مطلع الشمس من الفيلق مربعة عشر أذرع في مثلها تعشى عين من نظر إليها، من بطن القبة، ويدخل ضوء الشمس والقمر إلى القبة، وكان تحت الرخامة منبر من خشب الأبنوس مفصل بالعاج الأبيض ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهبًا وفضة، وفي القبة سلاسل فضة .. وكان في القبة وفي البيت خشبة من ساج منقوشة طولها ستون ذراعًا يقال لها «كعيب»، وخشبة من ساج نحوها في الطول يقال لها «امرأة كعيب» كانوا يتبركون بهما في الجاهلية، وكان يقال لكعيب الأحوري وهو في لسانهم الحر رووا

---

(١) هو محي الدين ابن العربي، وجميع ما ننسبه له فمن كتابه محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار.

أنه لما هلك أبرهة ومُزّقت الحبشة كل ممزق وأقفر ما حول هذه الكنيسة فلم يُعمّرها أحد وكثرت حولها السباع والحيات اتفق أن بعضهم أخذ منها شيئًا فأصيب بأذى، فنسب رعاع اليمن ما أصابه إلى الصنمين كعيب وامرأته فتحاشاها الناس، فبقيت بما فيها من الخشب المرصَّع بالذهب والآلات المفضضة التي تساوي قناطير من المال إلى زمن أبي جعفر المنصور، فكتب لعامله على اليمن العباس بن الربيع بن عبيد الله الحارثي يأمره بهدمها فهدمها، وأصاب العباس مالاً كثيرًا بما باعه من رخامها، ودعا بالسلاسل فعلّقها في كعيب والخشبة التي معه فلم يقربهما أحد مخافةً ممّا كان أهل اليمن يقولون فيهما، فعلق السلاسل في العجل ثم جذبهما الثيران حتى أبرزوا من السور فلما لم يرَ الناس شيئا ممّا كانوا يخافون من مضراتهما .. واشترى رجل عراقي الخشبة وقطعها لدار له، واتفق أنّ العراقي أصيب بجذام فافتتن بذلك رعاع اليمن وطغامهم وقالوا: أصابه كعيب!

قال أبو المنذر[1]: وكان رجل من جهينة يقال له عبد الدار بن حديب قال لقومه «هلم نبني بيتا نضاهي به الكعبة ونعظمه حتى نستميل به كثيرًا من العرب»، فأعظموا ذلك وأبوا عليه فقال في ذلك:

وَلَقَدْ أَرَدتُ بِأَن تُقَام بِنيَّةٌ ... لَيسَتْ بِحوبٍ أَو تُطِيف بِمَأثَمِ

فَأَبَى الَّذِينَ إِذَا دُعُوا لِعَظِيمَةٍ ... رَاغُوا وَلاَذُوا فِي جَوَانِبِ قَودَمِ

---

(١) هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي المشهور بابن الكلبي المتوفي سنة ٢٠٤ هجرية، وما نعزوه إليه بكنية أبي المنذر فمما نذكره في كتاب «الأصنام».

يَلحُونَ إلاَّ يُؤمَرُوا فَإذَا دُعُوا وَلَّوا وَأعرَضَ بَعضُهُمْ كَالأبكَمِ

الأربَعةُ الأشهُر الحُرُم والبسل:

كما كانوا على دين إبراهيم في تحريم الحرم وتكريم الكعبة كذلك كانوا على دينه في تحريم «ذي القعدة، وذي الحجَّة، والمحرَّم، ورجب»، فكانوا ينزعون فيها الأسنَّة عن الرِّماح ويقعدون عن شنِّ الغارات وطلب الثارات، ويأمن الخائف فيها عدوَّه حتى لقي الرجل فيها قاتل أبيه أو أخيه فلا يتعرَّض له!

ولم تكن العرب كلُّها تُحرِّم الأشهر الحرم، فلقد كانت طيء كلها وخثعم كلها وكثير من أحياء قضاعة ويشكر وبني الحارث بن كعب على ما حكاه الجاحظ في «الحيوان» مُحلِّين لا يرَون للحَرم ولا للشهر الحرام حُرمة، وكانوا لا يحجُّون ولا يعتمرون .. وبيَّن السهيلي سرَّ مشروعيتها فقال: **إنَّ تحريم القتال في الأشهر الحرم كان حُكمًا معمولاً به من عهد إبراهيم وإسماعيل، وكان من حرمات الله، ومما جعله مصلحة لأهل مكة، قال الله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللهُ الكَعبَةَ البَيتَ الحَرَامَ قِيامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهرَ الحَرَامَ﴾، وذلك لمَّا دعا إبراهيم لذريته بمكة إذ كانوا بوادٍ غير ذي زرع أن يجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم، ففرض الله على الناس حجَّ البيت قوامًا لمصلحتهم ومعاشهم، ثم جعل الأشهر الحُرم أربعة: ثلاثة سردًا وواحدا فردًا وهو رجب، أما الثلاثة فليأمن الحجَّاج على أنفسهم وأهليهم واردين إلى مكة وصادرين عنها شهرًا قبل شهر الحج وشهرًا بعده قدر ما يصل الرَّاكب من**

أقصى بلاد العرب ثم يرجع حكمه من الله، وأما رجب فللعمَّار يـأمنون فيـه مُقبلين وراجعين، نصف الشهر للإقبال ونصفه للرجوع؛ إذ لا تكون العمـرة من أقاصي بلاد العرب كما يكون الحج، وأقصى منازل المعتمرين بين مسيرة خمسة عشر يومًا، فكانت الأقوات تأتي أهل مكة في المواسم وفي سائر العام تنقطع عنهم ذؤبان العرب وقطاع السُّبل مصلحةً لأهلها ونظرًا من الله لهـم دبَّره وأبقاه من ملَّة إبراهيم.

ولاعتيادهم الإعمار في رجب سمَّوه «مُنصِل الأل[1]»؛ لأنهم كـانوا ينصلون الأسنَّة عن الرماح حتى يخرج الشهر .. قال الأعشى:

تَداركَهُ في مُنصِـلِ الألِّ بَعـدَما مَضى غَيرَ دَأداءٍ وَقَد كـادَ[2]

وكانوا يدعونه «الأصم»؛ لأنهم كانوا لا يتغازون فيه ولا يتنـادون فيه بالفلان وبالفلان ولا تؤخذ فيه الثأرات، وكانت مضر تعظـم رجبًـا أكثر من سائر العرب وتذبح فيه قربانًا تسميه «الرجبية» حتـى أضـيف إليها فقيل «رجب مضر».

وكانوا يرون رجبًا أسرع الأوقات لإجابة الدعاء، فكانوا يُـؤخِّرون الدعاء على الظالم حتى إذا دخل رجب دعوا عليـه فيـه .. روى ابـن عباس أنَّ عمر بن الخطاب رأى رجلاً مبتلى فقال: ما رأيت أفظع منظرًا

---

(١) الأل: الأسنة، والآلة الحربة .. يقال أله يؤله ألاً إذا طعنه.

(٢) الدأداء: ثلاث ليال من آخر الشهر.

منه، فقيل له: أما تعرفه يا أمير المؤمنين؟.. قال: لا، قيل: هذا ابن ضبعان السلمي الذي دعا عليه عياض.

فقال عمر لعياض: أخبرني خبرك، فقال: يا أمير المؤمنين، كان بنو ضبعان عشرة وأنا ابن عم لهم فكنت مستجيرًا بهم وجارًا لهم، فظلموني وأخذوا مالي عدوانًا، فذكَّرتهم بالله والرَّحم والجوار فلم يفد، فأمهلتهم إلى دخول رجب فرفعت يدي إلى السماء وقلت:

لاهُمَّ أدعُوكَ دُعَاءَ جَاهِدًا ... تَقتُل بَنِي ضَبعَانَ إلاَّ وَاحِدًا

ثُمَّ اضرِبِ الرَّجُلَ فَذَرْهُ قَاعِدًا ... أعمَى إذَا مَا قِيدَ أعيَا القَائِدَا

وكان ذلك في الجاهلية، فتتابع منهم تسعة ماتوا في عام واحد وبقي منهم هذا أعمى رماه الله في رجليه بما ترى.

فقال عمر: سبحان الله، إنَّ هذا لأمرٌ عجيب!

وكانوا قبيل دخول الأشهر الحرم وعند انسلاخها حريصين على الأخذ بالثأر أو انتهاز اغتيال يدعو إليه الحقد والفساد؛ فقد روى ابن أبي الحديد عن شيخة أبي علي أنَّ الرياشي ذَكر أنَّ العرب تُسمِّي آخر يوم من شوال «فلتة»، من حيث إنَّ كلَّ من لم يُدرك ثأره فيه فأتاه.

ثم قال: والذي رواه عن أهل اللغة قول لا نعرفه، والذي نعرفه أنهم يسمون الليلة التي ينقضي بها آخر الأشهر الحرم ويتم قفلته وهي آخر ليلة من ليالي الشهر؛ لأنه ربما رأى الهلال قوم لتسع وعشرين ولم

يبصره الباقون، فيغير هؤلاء على أولئك وهم غافلون، فلهذا سُميت تلك «فلتة»(١).

فمن مسارعتهم بأخذ الثأر قبيل دخول الشهر الحرام ما كان من عاصم بن المقشعر الضبي؛ فإنه لمَّا علم أنَّ الخنيفس الضبي قتل أخاه بيده في آخر يوم من جمادى الآخرة نهض عاصم قبل دخول رجب وانطلق حتى إذا كان بغناء خباء الخنيفس ناداه مستنجدًا، فلما خرج إليه الخنيفس وسار معه داناه عاصم حتى قاربه ثم قنعه بالسيف فأطار رأسه وقال: **العجب كلُّ العجب بين جُمادَى ورجب.**

فسارت كلمته مثلاً.

فإذا انسلخت الأشهر الحرم كانوا بين حروب أوقدت نارها الأحقاد وغارات أثارها طلب الثأر أو السلب أو الميل للفساد، وشاهده قول طفيل الغنوي وهو شاعر جاهلي:

ظَعائِنُ أبــرَقنَ الخَريــفَ وَشِــمنَهُ وَخِفنَ الهُمــامَ أن تُقــادَ قَنابِلُــه(٢)

يعني دخلت شهور الحل، فخفن أن يُغير الهمام عليهم فتنكبن ناحيته وتباعدن عنه، وقد توعَّد «تأبط شرًا» العوص بقتالهم عند انسلاخ الأشهر الحرم، وذلك أنه خرج يومًا وصاحبان له حتى أغاروا على العوص من

---

(١) في القاموس: «الفلتة» آخر ليلة من كلِّ شهر أو آخر اليوم من الشهر الذي بعده الشهر الحرام.

(٢) أبرقن الخريف: رأين برق الخريف .. وقال بعضهم: دخلن في برق الخريف، و«شمنه» أبصرنه، و«الشيم» النظر إلى البرق خاصة، و«القنابل» جمع قنبلة، وهي الجماعة من الخيل.

بجبيلة فأخذوا نعمًا لهم، واتبعهم العوص فأدركوهم وقد كانوا استأجروا لهم رجالاً كثيرة، فلما رأى تأبط شرّا ألاّ طاقه لهم بهم عاد وتركهما، فقُتل صاحباه فقال يرثيهما ويتوعَّد:

لَعمروُ فَتىً نلتُم كَأنَّ رِدائَـهُ علَى سَرحَةٍ مِن سَرحِ دَومَةَ شانِقُ[١]

فَعُدّوا شُهورَ الحِرمِ ثُمَّ تَعَرَّفوا قَتيلَ أُناسٍ أَو فَتاةً تُعانِقُ[٢]

ومع هذا فقد قتل بعضهم بعضًا في الشهر الحرام، بل وفي الحرم نفسه لسبب الغضب الذي يملك على العقل زمامه، أو الاستهانة بأمر الدِّين كما كان من الشنفري؛ فإنه لما قدم مِنى وبها حرام بن جابر فقيل له «هذا قاتل أبيك» فقتله، ثم سبق النسا على رجليه وقال:

قَتَلنا قَتيلاً مُهدِيًا بِمُلَبَّدٍ جِمارَ مِنًى وَسطَ الحَجيجِ المُصَوَّتِ[٣]

وقد أغار معبد بن زرارة على بني عامر بن مالك في شهر رجب الحرام.

وكذلك قتل ضبة بن أد بن طابخة في الشهر الحرام الحارث بن كعب، وكان من خبره ما رُوِي أنَّ الحارث لقي سعيد بن ضبه وهو غلام قد خرج في إبلٍ لأبيه قد ضلَّت، وكان عليه بردان، فلقيه الحارث فسأله برديه فأبى عليه فقتله، وكث ضبة ما شاء الله أن يمكث، ثم حجَّ فوافي عكاظ فلقي بها الحارث ابن كعب وعليه بردا ابنه سعيد فعرفهما.

---

(١) شانق: مشدود.

(٢) تعرف: طلب المعرفة حتى عرف.

(٣) المهدي: سائق الهدي، وهو ما أهدى إلى الحرم.

فقال له: هل أنت مخبري عن هذين البردين؟

قال: بلى، لقيت غلامًا وهما عليه فسألته إياهما فأبى عليّ فقتلته وأخذتهما.

فقال ضبة: بسيفك هذا؟

قال: نعم.

قال: فأعطنيه أنظر إليه؛ فإني أظنه صارمًا.

فأعطاه الحارث سيفه، فلما أخذه من يده هزّه وقال: الحديث ذو شجون، ثم ضربه به حتى قتله، فقيل: يا ضبة، أفي الشهر الحرام؟

فقال: سبق السيف العذل .. قال الفرزدق:

لاَ تَأمَنَنَّ الحَربَ إنَّ استِعَارَهَا كَضَبَّةَ إذْ قَالَ الحَدِيثُ شُجُونُ

ومن ذلك قتل البراض بن قيس الكناني عروة الرحال الهوازاني في حديثٍ رووه وهو أنَّ البراض كان سكيرًا فاسقًا، خلعه قومه وتبرءوا منه، فلحق بالنعمان بن المنذر بالحيرة، وكان النعمان يبعث إلى سوق عكاظ بلطيمة[١] لتُباع فيه ويُشترى له بثمنها أدم من أدم الطائف، وكان يرسلها في جوار رجل من أشرف العرب .. فلمَّا جهز اللطيمة قال من يجيزها؟

فقال البراض: أنا أجيرها على بني كنانة.

---

(١) اللطيمة: العير التي تحمل الطيب والبز للتجارة.

فقال له النعمان: إنما أريد رجلاً يجيزها على أهل نجد وتهامة..

وكان عروه الرحال حاضرًا فقال: أنا أجيزها لك.

فقال البراض: أتجيزها على كنانة؟

فقال: نعم، وعلى الناس جميعًا..

فخرج فيها عروة الرَّحال وخرج البراض يطلب غفلته حتى إذا كان بالعالية غفل عروة فوثب عليه البراض فقتله في الشهر الحرام، فكان ذلك سبب حرب الفجار الثاني[١] فجار البراض.

وأيام الفجار هي يوم نخلة ثم يوم شمطة ثم يوم العبلاء ثم يوم عكاظ ثم يوم الحريرة[٢]، وهي حرة على جنب عكاظ كما في الأغاني، وكانت حرب الفجار في الأشهر الحرم .. ففي القاموس «أيام الفِجار - بالكسر - أربعة أفجرة في الأشهر الحرام»[٣]، كانت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان، وكانت الدبرة على قيس، فلما قاتلوا قالوا فجرنا .. وقد حضرها النبي ﷺ وهو ابن عشرين، وفي الحديث:

---

(١) الفجار الأول: كانت الحروب فيه ثلاثة أيام ولم تسم باسم تشهر بها.

(٢) الحريرة: كهريرة، وقد جعل السهيلي أيام الفجار خمسة أفجرة، فزاد فيه يوم الشرب .. قال: وهو أعظمها يومًا، وفيه قيد حرب وسفيان وأبو سفيان أبناء أمية أنفسهم كي لا يفروا فسموا «العنابس».

(٣) استظهر الحلبي في سِيرته أنَّ حرب الفجار لم تكن في الشهر الحرام، بل كانت في شوال، وقيل في شعبان.

«كنت أنبل[1] على عمومتي يوم الفجار، ورميت فيه بأسهُم، وما أحب أني لم أكن فعلت».

وقد أخره أعمامه معهم .. وقيل لم يقاتل في فجار البراض، أي لم يرمِ فيه بأسهم.

وفي «الأغاني» أنَّ النبي شهد أيام حرب الفجار ألاَّ يوم نخلة، وكان يناول عمه وأهله النبل وعمره يومئذ عشرون سنة، وطعن ﷺ أبا براء ملاعب الأسنة .. وسُئل عن مشهده يومئذ فقال:

«ما سرَّني أني لم أشهده، إنهم تعدوا على قومي، عرضوا عليهم أن يدفعوا إليهم البراض صاحبهم فأبوا».

ولقد رد الجاحظ في «الحيوان» على من يعترض كون النبي شهد هذه الحرب بقوله:

ولا يزال الطاعن يقول قد علمنا أنَّ العرب لم يسموا حروب أيام الفجار بـ«الفجور» وقريشا خاصة إلاَّ أنَّ القتال في البلد الحرام كان عندهم فجورًا، وتلك حروب قد شهدها النبي ﷺ وهو ابن أربع عشرة سنة، وابن أربع عشرة سنة يكون بالغًا .. وقال:

«شهدت الفجار فكنت أنبل على عمومتي».

---

(١) أنبل على عمومتي: أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

وجوابنا في ذلك:

إنَّ بني عامر بن صعصعة طالبوا أهل الحرم من قريش وكنانة بجريرة البراض بن قيس في قتله عروة الرحال، وقد علموا أنهم يطالبون من لم يجن ومن لم يعاون، وأنَّ البراض بن قيس كان قبل ذلك خليعًا مطرودًا، فأتوهم إلى حرمهم يلزمونهم ذنب غيرهم، فدافعوا عن أنفسهم وعن أموالهم وعن ذراريهم، والفاجر لا يكون المسعيّ إليه، ولذلك أشهد الله تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام ذلك الموقف.

وخالف السيهلي الجاحظ فأنكر قتال النبي فيها بقوله:

وإنما لم يقاتل رسول الله مع أعمامه وكان ينبل عليهم، وقد كان بلغ سن القتال؛ لأنها كانت حرب فجار، وكانوا أيضًا كلُّهم كفارًا، ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل إلاَّ لتكون كلمة الله هي العليا.

واني لأعجب من السهيلي في قصره المقاتلة على الرَّمي بالسهام أو الطعن بالرماح، مع أنَّ من كان ينبل على المقاتلة مشترك في القتال ومُعِين عليه، ودعواه أنَّ الله لم يأذن لمؤمن في القتال إلاَّ لإعلاء كلمته مردودة؛ لأنَّ القتال كما يكون لذلك يكون لدفع الظلم والفساد.

وكون الأشهر الحُرم أربعة كما قدَّمنا مذهب أكثر العرب، ومنهم قوم لم يقفوا عند شريعة إبراهيم، فتجاوزوا حدود الله وزادوا في الدِّين فجعلوا الأشهر الحرم ثمانية وهو «البسل» .. قال في القاموس:

«البسل» ثمانية أشهر حُرم كانت لقومٍ من غطفان وقيس.

وذكر ابن إسحاق بني مرة بن عوف - وهم قوم دخلوا في نسب غطفان - فقال:

وفيهم كان البسل فيما يزعمون نسيئهم ثمانية أشهر حُرم لهم من كلٍّ سنة من بين العرب قد عرفت ذلك لهم العرب لا ينكرونه ولا يدفعونه، يسيرون به إلى أيِّ بلاد العرب شاءوا لا يخافون منهم شيئًا.

النَّسِيء:

ولمَّا كانت العرب تدين بدين إبراهيم من تحريم القتال في الأربعة الأشهر الحرم (ذي القعدة وذي الحجة والمحرم وشهر رجب)، وكانوا دائمي شنِّ الغارات وطلب الثارات؛ كرهوا توالي ثلاثة أشهر لا يغزون فيها فأحدثوا النسأة، وكانوا يسألونهم تأخير حرمة المحرَّم إلى صفر، قاله أبو علي القالي في «الأمالي»[1].

وقال أبو عبيد إنهم إذا احتاجوا للحرب في المحرَّم أخَّروا تحريمه على صفر، ثم يؤخِّرون صفرًا في سنة أخرى.

وكانت النسأة من بني فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة .. قال الشاعر:

---

(١) عبارته تقتضي أن النسيء لا يكون في رجب لأنه فرد وخالفه الفيروز بادي في القاموس لقوله (القلمس رجل كناني من نسأة الشهور كان يقف عند جمرة العقبة ويقول اللهم إني ناسيء الشهور وواضعها مواضعها ولا أعاب ولا أجاب اللهم اني قد احللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر وكذلك في الرجبين يعني رجبا وشعبان انفروا على اسم الله.

أَتَزْعَمُ أَنِّي مِن فُقَيمِ بنِ مَالِكِ لَعَمرِي لَقَدْ غَيَّرْتُ مَا كُنتُ أَعلَمُ
لَهُم نَاسِئٌ يَمشُونَ تَحتَ لِوَائِهِ يُحلُّ إِذَا شَاءَ الشُّهُورَ وَيحْرِمُ

أمَّا مكان النسيء فذُكر أنه كان جمرة العقبة، فكان يقف عندها الناسئ إذا صدر الحاج من مِنى فيقول: «اللهم إني ناسئ الشهور وواضعها فلا أعاب في أمري ولا يرد لي قضاء، اللهم إني قد أحللت دماء المحلين من طيء وخثعم[1] فانقلوهم حيث ثقفتموهم»، فيسألونه أن ينسئهم شهرًا، فإن قال إنَّ آلهتكم قد أحلَّت لكم المحرَّم فأحِلُّوه عقدوا الأوتار وركبوا خيولهم وأغاروا، وإن قال إنَّ آلهتكم قد حرَّمت عليكم المحرَّم فحرِّموه حلُّوا الأوتار ونزعوا الأسنة.

وذكر المقريزي أنَّ الناسئ كان يقوم على باب الكعبة إذا فرغت العرب من حجِّها، فيقول لهم: «إنَّ إلهتكم العزَّى قد انسأت صفرًا الأول، وكان يحله عامًا ويحرِّمه عامًا»، وكان أتباعهم على ذلك غطفان وهوازن وسليم وتميم.

تلك عبارته، فلعل الناسئ كان ينسئ مرَّتين: مرَّة عند جمرة العقبة وأخرى على باب الكعبة.

وحصر الناسئين ابن هشام فقال:

---

(١) أحل دماءهم لأنهم كانوا محلين يعدون على الناس في الشهر الحرام.

وكان أول من نسأ الشهور على العرب فأحلّت منها ما أحلّ وحرَّمت منها ما حرّم القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدي بن عامر، ثم قام بعده على ذلك ابنه عبَّاد بن حذيفة، ثم قام بعد عبَّاد قلع[1] بن عبَّاد، ثم قام بعد قلع أمية بن قلع، ثم قام بعد أمية عوف بن أمية، ثم قام بعد عوف أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام فجعلهم ستًّا، يقوم الولد بالأمر بعد والده.

وذهب المقريزي إلى أنَّ أول ناسئ سرير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة، ثم من بعده ابن أخيه القلمس، وهو عدي بن عامر بن ثعلبة، ثم صار النسيء في ولده على آخرهم أبو ثمامة جنادة بن عوف.

وذكر أبو بكر الإنباري أنَّ من النسأة نعيم بن ثعلبة، وتعقَّبه السهيلي بأنَّ هذا ليس بمعروف.

وفي «صبح الأعشى» أنَّ أول من نسأ النسيء عمرو بن لحي وهو أبو خزاعة[2]، ولقد أكثر الشعراء من بني كنانة الافتخار بالنشأة من ذلك قول بعضهم: «ومنا ناسئ الشهر القلمس»، وقال غيره:

نَسَئُوا الشُّهُورَ بِهَا وَكَانُوا أَهلَهَا … مِن قَبلِكُمْ وَالعِزُّ لَمْ يَتَحَوَّلُ

---

(١) نقل السهيلي عن ابن الكلب أنه قال: فنسأ قلع بن عباد سبع سنين ونسأ بعده أمية بن قلع إحدى وعشرين سنة ثم نسأ من بعده جنادة وهو القلمس أربعون سنة.

(٢) جميع من ذكر النسيء بهذا المعنى جعل النسأة من بني كنانة فلعل عمرو بن لحي مبتدع النسيء بمعنى تأخير الحج عن وقته.

وقال عمير بن قيس جذل الطعان الكناني:

لَقَــدْ عَلِمَــتْ مَعــدُ أنَّ قَــومِي كِرَامَ النَّــاسِ أنَّ لَهُــمْ كِرَامَــا[1]

فَــأيُّ النَّــاسِ فَاتُونَــا بِــوِتْرٍ وَأيُّ النَّاسِ لَــم نعلُــكْ لِجَامَــا[2]

أَلَسْــنَا النَّاسِــئِينَ عَلَــى مَعــدِ شُــهورَ الحِــلِّ نَجعَلُهَــا حَرَامَــا

وهناك نوعٌ ثانٍ من النسيء وهو تأخير الحج عن وقته تحريًا منهم للسنة الشمسية؛ لأنَّ وقت الحج في دين إبراهيم في شهر ذي الحجة، وهــو شــهر هلالي يدور في كلِّ فصلٍ من فصول السنة، فأرادوا وقوع حجّهم حين يعتدل الزمان وتدرك الفاكهة والغلال ليؤدوا مناسكهم ويتجروا ببضائعهم.

فقد كانت تقام في أشهر الحج ثلاث أسواق كبــرى: مجنــة بــالظهران وعكاظ بين نخلة والطائف تقوم هلال ذي القعدة وتستمر عشرين يومًا، وذي المجاز بالجانب الأيسر من عرفة على فرسخ منها، وينقضي اليوم الثامن من ذي الحجة فأخَّروا الحج في كلِّ سنة أحد عشر يومًا لموافقة السنة الشمســية، فنسئوا المحرَّم إلى صفر وصفرا إلى ربيع الأول وهكذا، فوقع الحج في السنة الثانية في عاشر المحرم، وصار في اعتبارهم ذا الحجة آخر شهور الســنة، وصار في السنة محرمان ثانيهما للنسيء، وصارت عدَّة الشهور ثلاثة عشر.

---

(١) أي أنَّ لهم آباءً كرامًا وأخلاقًا كرامًا.

(٢) تقول أعلت الفرس لجامه إذا رددته عن تنزعه، فمضغ اللجام كالعلك من نشاطه، يعنــي أي الناس لم نكفهم كما تكف الفرس باللجام.

ثم بعد مرور سنتين أو ثلاث نقلوا الحج للشهر الذي يليه، فكانوا يُديرون النسيء على جميع شهور السنة فيكون لهم في سنة صفران وفي أخرى ربيعان وهكذا، وهذا مصداق قول مجاهد «كانت الجاهلية يحجون في كلٍّ شهر من شهور السنة».

وفي «الملل» للشهرستاني:

كانوا يكبسون في كلِّ عامين شهرًا وفي كلِّ ثلاثة أعوام شهرًا، وكانوا إذا حجُّوا في شهر من هذه السنة جعلوا يوم التروية[1] ويوم عرفة ويوم النحر كهيئة ذلك في شهر ذي الحجَّة، فيكون يوم النحر عاشر ذلك الشهر.

وأنكر المرحوم محمود باشا الفلكي معرفة العرب للنسيء بهذا المعنى، وقد نقضتُ دليله عند الكلام على علم الفلك من كتابي «علوم العرب في الجاهلية»، ومن لطيف الإشارات في الرد عليه ما نقله السهيلي عن شيخه أبي بكر في قوله تعالى:

﴿يَسأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِ﴾.

قال: وخص الحجَّ بالذِّكر دون غيره من العبادات الموقوتة بالأوقات تأكيدًا لاعتباره بالأهلَّة دون حساب الأعاجم من أجل ما كانوا أحدثوا في الحج من الاعتبار بالشهور العجمية.

وقد حرَّم الله نوع النسيء لقوله ﷺ في خطبة حجة الوداع:

---

(١) هو اليوم الثامن من ذي الحجة.

«إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم)، ورجب مضر[١] الذي بين جمادى وشعبان».

ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا[٢] فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا[٣] لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ[٤] فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

والمعنى: لقد عاد الحج في ذي القعدة وبطل النسيء بنوعيه لِما في أحدهما من كون السنة ثلاثة عشر شهرا ولما في الثاني من عدم توالي الثلاثة الأشهر الحرم.

---

(١) قال النووي: قالوا كان بين بني مضر وبين ربيعة اختلاف في رجب، فكانت مضر تجعل رجبًا ما بين جمادى وشعبان، وكانت ربيعة تجعله رمضان، فلهذا أضافه النبي إلى مضر .. وقال السهيلي: إنما قال رجب مضر لأنّ ربيعة كانت تحرم في رمضان وتسميه رجبا من رجبت الرجل، ورجبت إذا عظمته.

(٢) أي: لا ثلاثة عشر شهرًا كما كانوا يفعلون لموافقة السنة الشمسية.

(٣) أي: يحلون الشهر من الأشهر الحرم عاما ويحرمونه عامًا، وهذا يصدق على النسيء بنوعيه.

(٤) يواطئوا أي يوافقوا، والمعنى ليوافقوا العدة التي هي الأربعة وفاتهم التخصيص الذي هو أحد الواجبين.

الحَج - أحكَام الإحرَام بِه[١] - الحُمس

فُرض حجُّ البيت في دين إبراهيم وأمر بتبليغه فنادى:

«أيها الناس، إنَّ الله قد كتب عليكم الحجَّ إلى البيت العتيق»، ثم حجَّ ومعه إسماعيل حجَّة كحجَّة الإسلام.

وقد ذكر ابن الأثير في الكامل كيفية حجّه فقال:

ثم خرج إبراهيم بإسماعيل معه إلى التروية فنزل به منى ومن معه من المسلمين، فصلَّى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثم بات حتى أصبح فصلَّى بهم الفجر، ثم سار إلى عرفة فقام بهم هناك، حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر، ثم راح بهم على الموقف من عرفه الذي يقف عليه الإمام فوقف به على الأراك[٢]، فلما غربت الشمس دفع به ومن معه حتى أتى المزدلفة فجمع بها الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة، ثم بات بها ومن معه حتى إذا طلع الفجر صلى الغداة ثم وقف على قزح، حتى إذا أسفر دفع به وبمن معه يُريه ويُعلِّمه كيف يصنع حتى رمى الجمرة وأراه المنحر، ثم نحر وحلق وأراه كيف يطوف، ثم عاد به إلى منى ليُريه كيف يرمي الجمار حتى فرغ من الحج.

---

(١) الإحرام بالحج الدخول في أعماله، لأنَّ الحاج يحرم على نفسه أشياء من الحلق وتقليم الأظفار ومباشرة النساء وقتل الصيد وغير ذلك ويقابله الإحلال.

(٢) الأراك: كسحاب موضع بعرفة قرب نمرة.

ورُوِي عن النبي ﷺ أنَّ جبريل هو الذي أرى إبراهيم كيف يحج.

تلك عبارة ابن الأثير ومقتضاها أنَّ الصلوات الخمس شرعت في دين إبراهيم..!

ولم أرَ غيره نقل ذلك، إلاَّ أنَّ النووي ذكر في شرح مسلم أنَّ المزدلفة سُميت «بجمع»؛ لأنه يُجمع فيها بين المغرب والعشاء ومقتضاه أنهم كانوا يصلونهما؛ لأنَّ علَّة التسمية تسبقها، وقد سُميت بذلك في الجاهلية، وقد كانت العرب تحجُّ بيت الله الحرام مشاة أو ركبانًا، ومنهم من كان ينذر حجه لقول أبو طالب:

وَمَنْ حَجَّ بَيتِ اللهِ مِن كُلِّ رَاكِبِ وَمِن كُلِّ ذِي نَذرٍ وَمِن كُلِّ رَاجِلِ[1]

ومنهم من كان لا يتكلم في الحج تقرُّبًا لله تعالى .. روى البخاري في صحيحة بسنده عن قيس بن أبي حازم قال:

دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب فرآها لا تتكلم فقال ما لها لا تتكلم؟ قالوا: حجت مصمتة، قال لها: تكلَّمي؛ فإنَّ هذا لا يحلَ، هذا من عمل الجاهلية، فتكلمت.

وهم ينقسمون بالنسبة لأعمال الحج ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من كانوا على دين إبراهيم لم يُبدِّلوا فيه، وحجُّ هؤلاء موافق لِما كان عليه أسلافهم على زمن إبراهيم.

---

(١) روى السيوطي في أسباب النزول عن مجاهد قال: كانوا لا يركبون، ورخص لهم فيه بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

القسم الثاني: من بدّلوا دين إبراهيم فأدخلوا عليه تعظيم الأصنام، وهؤلاء خلطوا أعمال الحج المشروعة في دين إبراهيم بالتقرُّب للأوثان من الإهلال بالحجِّ عندها أو التحليل لديها أو غير ذلك.

القسم الثالث: من ميَّزوا أنفسهم عن سواهم فلم يشتركوا مع غيرهم في كلِّ أعمال الحج كما فعلت قريش ومن تبعهم في رأيهم، وامتازوا بأمور ابتدعوها فسُموا «حُمسًا»[1] وغيرهم «الحِلَّة»، فقسموا العرب بفعلهم إلى «حلَّة» و«حُمس»، وبيَّن ابن إسحاق ما دعا قريشا لابتداع التحمس فقال:

وقد كانت قريش - لا أدري قبل الفيل أو بعده[2] - ابتدعت رأي الحُمس رأيًا رأوه وأداروه، فقالوا: «نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها، فليس لأحدٍ من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تُعظِّموا شيئًا من الحلِّ كما تُعظِّمون الحرم؛ فإنكم إن فعلتم ذلك استخفَّت العرب بحُرمتكم»، وقالوا: «قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم»، فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها وهم يعرفون ويقرُّون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها، إلاَّ أنهم قالوا: «نحن أهل الحرم؛ فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما

---

(١) في القاموس: «الحُمس» لقب قريش وكنانة وجديلة ومن تابعهم في الجاهلية لتحمسهم في دينهم أي تشددهم، أو لالتجائهم بـ«الحمساء» وهي الكعبة لأنَّ حجرها أبيض إلى السواد.

(٢) ذهب ابن الأثير إلى أنَّ قريشًا ابتدعوا رأي الحُمس بعد الفيل.

نعظمها نحن الحُمس»، ثم جعلوا لمن وُلدوا من العرب من ساكن الحلّ والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، يُحلُّ لهم ما يُحلُّ لهم ويَحرُم عليهم ما يحرم عليهم، وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك.

ومن الحُمس أيضًا جديلة قيس كما حكاه النووي، وقال أبو عبيدة النحوي إنَّ بني عامر بن صعصعة تبعوا قريشًا في رأي الحمس، وذكر ابن العربي أنَّ منصور بن عكرمة تزوَّج حفصة بنت سلمى بنت ضبيعة بن علي بن يعصر بن قيس بن عيلان، فولدت له هوازن، فمرض مرضًا شديدًا، فنذرت سلمى لئن برئ لتحمسنه، فلما برىء حمسته .. وعليه فهوازن من الحُمس أيضًا.

ورووا أنَّ الرجل من أهل الجاهلية إذا أحرم تقلَّد قلادة من شَعر فلا يتعرَّض له أحد، فإذا حجَّ وقضى حجَّه تقلَّد قلادة من ذخر.

وقيل: كان الرجل يُقلِّد بعيره أو نفسه قلادة من لحاء شجر الحرم فلا يخاف من أحد ولا يتعرض له أحدٌ بسوء.

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ .

قال: جعلها حواجز وأبقاها الله بين الناس في الجاهلية، فكان الرجل لو جرَّ كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يقرب .. وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يتعرض له ولم يقربه، وكان الرجل إذا

أراد البيت تقلَّد قلادة من شعر فأحمته[1] ومنعته من الناس، وكان إذا نفر تقلَّد قلادة من الأذخر أو من لحاء الشجر فمنعته من الناس حتى يــأتي أهلــه .. حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية.

قال ابن عباس ﷺ: وكان ذو المجاز وعكــاظ متجــرًا للنـــاس فـــي الجاهلية، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك ظنًّا منهم أنها تخــلُّ بــإخلاص العمل حتى نزل قوله تعــالى:﴿ لَيسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْــلاً مِـــن رَبِّكُم﴾، نهم قوم استحبُّوا الحجَّ بلا زاد وقالوا «نحن المتوكِّلــون»، وكــانوا يضيفون على الناس[2] حتى نزل قوله تعالى:﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَــيرَ الــزَّادِ التَّقوَى﴾.

وابتدعت الحُمس في الحج من باب التزهُّد والتألُّه، وتلك أشياء حكاهــا ابن العربي من حديث ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس قال:

فلم تكن نساء الحُمس ينسجن ولا يغزلن الشَّعر ولا يســلأن السَّــمن[3] إذا أحرمن، وكان الحُمس إذا أحرموا لا يأكلون السمن ولا يســلقونه ولا يمخضــون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به مــا دامــوا محرمين، ولا يغزلون الشعر ولا الوبر ولا ينسجونه وإنما يستظلون بالأدم.

---

(١) أحمته: جعلته حمى لا يقرب.

(٢) ضفته أضيفه: نزلت عليه ضيفًا.

(٣) سلاء السمن: طبخه وعلاجه.

ولا يأكلون شيئًا من نبات الحرم، وكانوا يُعظِّمون الأشهر الحرم ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم، وكانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الإسلام، فإنَّ كلًّ من أهل المدر يعني من أهل البيوت والقرى نقب نقبًا في ظهر بيته فمنه يخرج ولا يدخل من بابه .. وكانت الحُمس إذا أحرمت وأرادت دخول بيتها تسوَّرت من ظهور البيوت وأدبارها، ويحرِّمون الدخول من أبوابها حتى بعث الله محمدًا ﷺ فأحرم عام الحديبية، ودخل بيته من بابه، وكان معه رجل من الأنصار فوقف بالباب فقال له ﷺ:

ألا تدخل؟

فقال الأنصاري: أنا أحمس يا رسول الله .. فقال رسول الله:

وأنا أحمس، ديني ودينك سواء.

فدخل الأنصاري مع رسول الله ﷺ لمَّا رآه دخل بابه، فأنزل الله:

﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

وخالف التبريزي في شرح حماسة أبي تمام فقال:

وكان الرجل إذا أحرم قبل الحج، فإن كان من أهل المدر اتَّخذ نقبًا في ظهر بيته، فمنه يدخل ويخرج، ولا يدخل من باب بيته ولا يخرج منه، ويتَّخذ سلَّمًا يصعد فيه وينحدر، وإن كان من أهل الوبر دخل من خلف البيت، إلاَّ أن يكون من الحُمس .. فدخل رسول الله وهو مُحرم من بابِ بُني بنيانا واتبعه رجل من أهل الإسلام يقال له قطبه بن عامر أحد بني سلمة، ولم يكن من

الحُمس، فدخل معه فأنكر ذلك عليه وقال الجتنبي: «فإنك محرم، وقد دخلت من الباب»، فقال: يا رسول الله، وأنت محرم؟.. فقال له ﷺ: إني أحمس، فقال الرجل: إن كنت أحمسيًا فإني أحمسي، رضيت بهديك وسُنتك ودينك، فنزل «لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا» الآية.

فأنت ترى أنَّ بين عبارتهما اختلافًا ظاهرًا؛ فلقد ذهب ابن العربي إلى أنَّ الحُمس لا يدخلون البيوت ولا يخرجون منها من أبوابها، وناقضه التبريزي فأجازه للحُمس .. كما اختلفا في سبب نزول الآية؛ فجعل التبريزي النبي مُنكِرًا على الرجل متابعته في دخول البيت من بابه لأنه أحمس والرجل ليس بأحمس، وجعله ابن العربي آمرا له بأن يُتابعه في الدخول، وبالرجوع لتفسير ابن جرير الطبري ترى الروايات مختلفة هذا الخلاف أيضًا.

ونحن إذا رجَّحنا رواية ابن العربي بأنَّ قريشًا أولى بتحريم دخول البيوت من أبوابها لأنهم اخترعوا التحمُّس في الدِّين وهو التشدُّد، وفي هذا من التشدُّد ما فيه؛ وجدنا رواية التبريزي يُرجِّحها أن قريشًا كانت ترى نفسها معزوزة الجانب عند الله لا يحول بينها وبين الرَّحمات التي تنزل من السماء سقف ولا غيره حتى سمَّوا أنفسهم «آل الله» ولا كذلك غيرهم، ويناسب هذا إنها لا تحرم كغيرها دخول البيوت من أبوابها في حجٍّ ولا عمره لمكانها من الله، ويُعزِّزه رواية الزهري أنَّ ناسًا من الأنصار إذا أهلُّوا بالعمرة لم يحُل بينهم وبين السماء شيء، يتحرَّجون من

ذلك، فلا يدخل أحدهم من باب الحجرة من أجل سقف الباب أن يحول بينه وبين السماء، وكانت الحمس لا يبالون ذلك .. وحسبنا في الكلام على أديان العرب ونِحَلهم أنَّ هذا مذهب قوم من العرب في حجِّهم وعمرتهم، وللكلام على الحمس بقية تُذكر عند الكلام على الطواف بالبيت والوقوف بعرفه.

قال الجاحظ في «الحيوان»:

وكانوا في الإحرام يَلبُدون شعورهم.

والتلبيد أن يأخذ شيئًا من خطم وآس وسرو وشيئًا من صمغ فيجعله في أصول شعره وعلى رأسه كي يتلبد شعره ولا يفرق ويدخله الغبار ويخم فيقمل - قال شاعرهم:

يَا ربَّ ربَّ الراقصاتِ عشيَّةً ... بالقومِ بين مِنًى وبين ثَبيرِ[1]

زُحُفِ الرَّوَاحِ قد انقضت مُنَّاتهمْ ... يحمِلْنَ كلَّ مُلَبِّدٍ مأجُورِ[2]

وكانوا في الإحرام يكرهون تسريح الشعر وقتل القمل، قال عبد الله بن العجلان النهدي:

إني وما مارَ بالفُرَيْقِ وما ... قرْقَرَ بالجَلْهَتَيْنِ من سُرَبِ[1]

---

(١) الراقصات: الإبل تسير الخبيب، و«ثبير» جبل بجوار مكة.

(٢) زُحف الرواح ،الزحف الإسراع، و«الرواح» العشي أو من الزوال إلى الليل، أي مسرعة ذلك الوقت.

مِن شَعرٍ كالغَليـل يُلَبِّـدُ بِالقــــ ـــمْلِ وما مارَ مِن دَمٍ سَـرَبِ[٢]

وقال أمية بن أبي الصلت:

شَاحينَ آباطَهُمْ لم ينزِعُوا تَفَثًا ولمْ يسلُّوا لهم قملاً وصِـئباناً

التلبية ـ الطواف بالبيت ـ السعي ـ الوقوف بعرفة:

إنّني وَالَّذِي تحُجُّ لَـهُ شَمَــــ ــطُ أيادٍ وَهَلَّلُـوا تَهْلِـيلاَ[٣]

وَمُبَيِّتًا بِــذِي المَجَـازِ ثَلاَثًـا وَمَتَى كَانَ حَجُّنَا تَحلِـيلاَ[٤]

وشاهد التلبية قول أبي المنذر: «وكانت نزار تقول إذا ما أهلّت لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلاَّ شريكا هو لك تملكه ما ملك»، فيُوحِّدونه بالتلبية ويدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده.

قال تعالى:﴿ **وَمَا يُؤمِنُ أَكثَرُهُم بِاللهِ إلاَّ وَهُمْ مُشرِكُون**﴾.

أي: ما يُوحِّدونني بمعرفة حقِّي إلاَّ جعلوا معي شريكًا من خلقي.

وكانت تلبية «عك» إذا خرجوا حُجَّاجًا قدموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم فكانا أمام ركبهم فيقولان:

---

(١) مار الشَّعر تحرك، و«الفريق» الطائفة من الناس أكثر من الفرقة، ويريد جماعة الحاج، و«ما قرقر» أي وبعير هدر، و«جلهتا الوادي» جانباه، و«من شرب» أي من عطش، وفعله شرب كفرع.

(٢) مار الدم: جرى و«سرب» جار.

(٣) هلَّل: قال «لا إله إلاَّ الله».

(٤) التحليل: يستعمل في كل شيء لم يبالغ فيه.

نَحْــــــنُ غُرَابَـــــا عَـــــك[1]

فتقول عك من بعدهما:

عَـــــكُّ إلَيـــــكَ عَانِيَـــــه

عِبَـــــادُكَ اليَمَانِيَـــــه

كَيمَـــــا نَحُـــــجُّ الثَّانِيَـــــة

وكانت ربيعة إذا حجَّت فقضت المناسك ووقفت في المواقف نفرت في النفر الأول ولم تقم إلى آخر التشريق .. وروى مسلم أنَّ ابن عباس قال:كان المشركون يقولون «لبيك لا شريك لك» فيقول رسول الله: «ويلكم، قد[2]»، فيقولون: «إلاَّ شريكا هو لك تملكه وما ملك» يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت، ولما جاء الإسلام عدل المسلمون عمَّا يدل على الشرك إلى غيره حتى هداهم الدِّين لِما يقولون.

قال عمرو بن معد يكرب: الحمد لله، لقد رأيتنا من قريب، ونحن إذا حججنا نقول:

لَبَّيكَ تَعظِيمًا إلَيـــكَ عُمُـــرًا ... نَغدُو بِهَا مُضمِرَاتِ شَـــزرًا[3]

قَد تَركُوا الأَوطَانَ خُلُوًّا صفرًا

---

(١) أغربة: العرب سودانهم.

(٢) قد تكون اسما بمعنى حسب أو اسم فعل بمعنى يكفي أو كفى.

(٣) العُمُر: بالفتح وبالضم وبضمتين الحياة أي طول الحياة، و«الضمر» بالضم وبضمتين الهزال، و«الشزر» النظر عن يمين وشمال، وشُزر جمع شزراء.

ونحن نقول اليوم كما علَّمنا رسول الله ﷺ: «لبيك اللهـم لبَّيـك، لبَّيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك لا شـريك لـك»، وكان لا يُشرك في تلبيته مع الله أحدًا من كان على دينه السماوي وجانَبَ الأوثان مثل زيد بن عمرو بن نفيل، فلقد كان يستقبل الكعبة ويقول:

لَبَّيـــكَ حَقًّـــا حَقًّـــا تَعبـــدًا ورِقًّـــا

عُـــذتُ بِمـــا عـــاذ بـــه إبـــراهيم مستقبل القبلة وهو قائم إذ قال

أنفـــي لـــك اللهـــم عـــان راغـــم مهما تجشمني فـإني جاشـم[1]

البـــر أبغـــي لا الخـــال لـــيس مهجـــر كمـــن قـــال[2]

وكانوا في الجاهلية يطوفون في الحج بالبيت الحرام[3] .. قال مضـاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي:

---

(١) رغم أنفه ذلك و«تجشمني» تكفني على مشقة.

(٢) في رواية: البر أبقى، و«الخال» الخيلاء والكبر، و«هجر» مشى في الهاجرة، أي ليس مـن هجر، و«تكيس» كمن آثر القائلة والنوم.

(٣) قال صاحب كتاب حجة الله البالغة في سر احترام البيت «وأمَّا الكعبة فكان الناس في زمـن إبراهيم عليه السلام توغَّلوا في بناء المعابد والكنائس باسم روحانية الشمس وغيرها من الكواكب وصار عندهم التوحيد إلى المجرَّد غير المحسوس بدون هيكل يُبنى باسمه يكون الحلول فيه والتلبس بـه تقرُّبًا منه أمرًا محالاً تدفعه عقولهم بادي الرأي، فاستوجب أهل ذلك الزمان أن تظهر رحمـة الله بهم في صورة بيت يطوفون به ويتقرَّبون به إلى الله، فدعوا إلى البيت وتنظيمه، ثم نشأ قرن بعد قرن على علم أن تعظيمه مساوق لتعظيم الله والتفريط في حقه مساوق للتفريط في حقِّ الله فعنـدَ ذلك وجب حجه وأمروا بتعظيمه.

وَكُنَّا وُلاَةَ البَيتِ مِن بَعدِ نَابِتٍ نَطُوفُ بِذَاكَ البَيتِ وَالخَيرُ حَاضِرُ[1]

ويجعلون طوافهم سبعا قال حسان بن تبع:

ثُمَّ طُفنَا بِالبَيتِ سَبعًا وَسَبعًا وَسَجَدنَا عِندَ المَقَامِ سُجُودَا

وفي قول حسان «وسجدنا عند المقام سجودًا» دليل على احترامهم مقام إبراهيم وتقديسه، وقد أقسم به أبو طالب في قوله:

وَمَوطِئُ إبرَاهِيمَ بِالصَّخرِ رَطبَةٌ عَلَى قَدَمَيهِ حَافِيًا غَيرَ نَاعِلِ

ولم تكن عبادة الطواف بالبيت عندهم مقصورة على فريضة الحج.

وكانوا يتمسحون بالحجر الأسود وشاهده قول أبي طالب:

وَبِالحَجَرِ الأَسوَدِ إِذْ يَمسَحُونَهُ إِذَا اكْتَنَفُوهُ بِالضُّحَى وَالأَصَائِلِ[2]

ومن العرب من كان يطوف بالبيت عاريًا، حكى ابن هشام في سيرته وابن العربي أنَّ قريشًا لما ابتدعت رأي الحُمس قالوا: «لا ينبغي لأهل الحلِّ أن يأكلوا من طعامٍ جاءوا به معهم من الحلِّ إلى الحرم إذا جاءوا حُجَّاجًا أو عُمَّارًا، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلاَّ في ثياب الحُمس يستعيرونها منهم للطواف بها، حتى أنهم كانوا يقفون عند باب المسجد فيقولون للحُمس: من يعير معوزًا؟.. من يُعير مصونًا؟.. فإن أعاره أحمس ثوبه طاف به فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة، فإن أنف منهم أحد من رجل

---

(١) كانت ولاية البيت لنابت من بعد إسماعيل ثم صارت بعد لجرهم.

(٢) الأصائل: جمع أصيلة، والأصل جمع أصيل، والأصيلة لغةً معروفة في الأصيل وهو ما بعد صلاة العصر إلى الغروب.

أو امرأة أن يطوف عريانًا إذا لم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه، ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدًا، وكانت العرب تُسمّي هذه الثياب «اللقي»، قال شاعرهم يذكر شيئًا تركه من ثيابه فلا يقربه وهو يحبه:

كَفَى حُزْنًا كَرِّي عَلَيهَا كَأَنَّهَا ... لَقًى بَينَ أَيدِي الطَّائفِينَ حَرِيمِ[1]

كان رجال الحلِّ إذا لم يُعرهِم الحُمس ثوبًا طافوا عراة، أمَّا النساء فكانت إحداهن تضع ثيابها كلَّها إلاَّ درعًا مفرجًا ثم تطوف .. قالت ضباعة[2] بنت عامر ابن صعصعة ثم من بني سلمة بن قشير وهي تطوف بالبيت كذلك:

اليَومُ يَبدُو بَعضُهُ أَوْ كُلُّهُ ... وَمَا بَدَا مِنهُ فَلاَ أُحِلُّهُ

وروى مسلم بسنده عن هشام عن أبيه قال:

كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلاَّ الحُمس، والحُمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون عراة إلاَّ أن تُعطيهم الحُمس ثيابًا فيعطي الرجال الرجال، والنساء النساء، فانزل الله على رسوله فيما كانوا حرَّموا على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت حين طافوا عراة وحرَّموا ما جاءوا به من الحل من الطعام:

---

(١) حريم: أي محرم لا يؤخذ ولا ينتفع به.

(٢) ذكر محمد بن حبيب أنَّ رسول الله خطبها فذكرت له عنها كبرة فتركها فقيل أنها ماتت كمدًا وحزنًا على ذلك، قال السهيلي: إن كان صحَّ هذا فما أخَّرها عن أن تكون أمًّا للمؤمنين وزوجًا لرسول رب العالمين إلا قولها «اليوم يبدو بعضه أو كله» تكرمه من الله لنبيه وعلما منه بغيرته والله أغير منه.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُسرِفِين﴾.

على أنَّ من العرب من كان يطوف بالبيت مكشوف السوءة في غير الحجِّ لغرض يقصده، فمن ذلك ما ذكره البغدادي في «خزانة الأدب» قال: مرض أبو جندب وهو شاعر جاهلي، وكان له جار من خزاعة اسمه «خاطم»، فقتله زهير اللحياني وقتلوا امرأته، فلما برئ أبو جندب من مرضه خرج من أهله حتى قدم مكة فاستلم الركن وكشف عن إسته وطاف، فعرف الناس أنه يريد شرًّا فقال:

إنِّي امرُؤٌ أبكِي علَى جَارِيَةْ ... أبكِي علَى الكَعبِيِّ والكَعْبِيَّهْ

ولَوْ هلكْتُ بكيَا علَيهِ ... كَانَا مكَانَ الثَّوبِ مِن حَقَوِيَّهْ

فلمَّا فرغ من طوافه وقضى من مكة حاجته خرج في الخلعاء من كعبٍ وخُزاعة، فاستجاشهم على بني لحيان، فخرجوا معه حتى صبح بهم بني لحيان في العرج فقتل فيهم وسبى من نسائهم وذراريهم.

وقد أمسك رسول الله عن الحج حين قدم من تبوك لِما ذُكر مخالطة المشركين للناس في حجِّهم وتلبيتهم بالشرك وطوافهم عراةً بالبيت، وبعث أبا بكر بـ«سورة براءة» لينبذ إلى كلِّ ذي عهدٍ عهده من المشركين إلاَّ بعض بني بكر الذين كان لهم عهد على أجلٍ خاص ثم أردف بعلي.

قال أبو هريرة فأمرني على أن أطوف في المنازل من مِنى ببراءة، فكنت أصبح حتى صحل حلقي[1] فقيل له: بِمَ كنت تنادي؟

فقال: بأربع: لا يدخل الجنة إلاَّ مؤمن، وألا يحجَّ بعد هذا العام مُشرِك، وألاَّ يطوف البيت عريان، ومن كان له عهد فله أجل أربعة أشهر ثم لا عهد له.

وكان المشركون إذا سمعوا النداء ببراءة يقولون لعلي: سترون بعد الأربعة أشهر بأنه لا عهد بيننا وبين ابن عمك إلاَّ الطعن والضرب، ثم أنَّ الناس في تلك المدة رغبوا في الإسلام حتى دخلوا فيه طوعًا وكرهًا، وحجَّ رسول الله في العام القابل وحجَّ المسلمون وقد عاد الدِّين كلُّه لله ربِّ العالمين.

لقد علمت انقسام العرب بالنسبة للطواف في ثيابهم إلى حِلَّة وحُمس، قال محمد بن حبيب: وهناك نوع ثالث وهم «الطُّلْس» كانوا يأتون من أقصى اليمن "طلسًا" من الغبار، فيطوفون البيت في تلك الثياب الطُّلْس فسمُّوا بذلك.

أما الرَّمل[2] في الثلاثة الأشواط الأولى من الطواف بالبيت والاضطباع[3] فيه، فهو من سُنن الإسلام وأصله أنَّ النبي رمل وندب أصحابه إليه لإظهار الجلد للمشركين وإبداء القوة لهم، فإنه لما قدم مكة

---

(١) صحل صوته: بح، رووا أنه أنما أرسل عليًا بذلك لأنَّ العرب لا تعتد برسالة الأمير إلاَّ إذا كان المرسل بها من أهله.

(٢) الرَّمل: الهرولة في السَّير.

(٣) والاضطباع: أن يُدخل الرداء من تحت إبطه الأيمن، ويرد طرفه على يساره، ويبدي منكبه الأيمن ويغطي الأيسر سمي «اضطباعًا» لِما فيه من إبداء الضبعين وهما العضدان.

اصطفت كفار قريش عند دار الندوة ينظرون له ولأصحابه ويستضعفوهم، ويقولون أو هنتهم حمى يثرب؟.. فلما دخل رسول الله المسجد "اضطبع" بردائه ورَمل.

ومقتضاه عدم سنيته بعد أن أظهر الله الإسلام، لكن ثبتت سنيته بما رُوي عن ابن عمر أنه قال: كان رسول الله إذا طاف بالبيت الطواف الأول خبَّ ثلاثا ومشى أربعًا، وكذا أصحابه رَملوا من بعده، وكذا المسلمون على يومنا هذا، فصار الرَّمل سُنة متواترة، وكانوا في الجاهلية يسعون بين الصفا والمروة، وشاهده قول أبي طالب:

وَأشواط بَينَ المَروتَينِ إلى الصَّفَا وَما فيهِما مِن صورَةٍ وتَماثِلِ [١]

وكان على الصَّفا «إساف» وعلى المروة «نائلة»، وهما صنمان، فكانوا يسعون بينهما ويتمسَّحون بهما، وكان عمرو بن لحي نصب مناة بالمثل ممَّا يلي قديدًا.

وكانت الأزد والأنصار وغسان تهل لها بالحجِّ وكان من أهل مناة لا يحلُّ له أن يطوف بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام كره المسلمون الطواف بينهما لِما كان من فعل الجاهلية، فأنزل الله تعالى:

---

(١) ثنَّى المروة وهي واحدة جريًا على مذهب العرب كقول الفرزدق عشية سال المربدان كلاهما: «وإنما هو مربد البصرة»، وقولهم: «تسألني برامتين سلجما»، والعرب يُشيرون بالتثنية على جانبي المكان المثنَّى أو على أعلاه وأسفله، فيجعلونها اثنين على هذا المغزى، و«تماثل» جمع تمثال وأصله تماثيل فحذف الياء.

﴿إنَّ الصَّفَا وَالَمروَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ﴾.

وروى مسلم بسنده عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة زوج النبي: ما أرى على أحدٍ لم يطُف بين الصَّفا والمروة شيئًا وما أبالي إلاَّ أطوف بينهما .. قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، طاف رسول الله ﷺ وطاف المسلمون فكانت سُنة، وإنما كان من أهل «مناة» المشركين من لا يطوفون بين الصَّفا والمروة، فلمَّا كان الإسلام سألنا النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله عزَّ وجلَّ:
﴿إنَّ الصَّفَا وَالَمرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

ولو كان كما نقول لكانت فلا جناح عليه ألاَّ يطوَّف بهما.

قال الزهري: فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فأعجبه ذلك وقال: إن هذا لعلم.

ويظهر أنَّ مرتبة «إساف» و«نائله» في الألوهية عندهم دون مرتبة «مناة»، فلذلك لم يجيزوا لمن أهل لمناة أن يسعى بينهما ويتمسح بإساف ونائلة المنصوبين عليهما، وكانوا يقفون في الجاهلية بعرفة في الحج .. قال العدوي:

وَأُقْسِمُ بِالبَيتِ الَّذِي حَجَّت لَهُ قُرَيشُ وَموقِفِ ذِي الحَجِيجِ الال [1]

وقول النابغة الذبياني:

---

(١) الأل كسحاب، وكتاب جبل عن يمين الإمام بعرفة سُمي بذلك لأنَّ الحجيج إذا رأوه آلوا في السير أي اجتهدوا ليُدركوا الموقف.

حلَفتُ فلَم أترُك لِنَفسِكَ ريبَةً ... وَهَل يَأثَمَن ذو أُمَّةٍ وَهوَ طائِعُ [1]

بِمُصطَحِباتٍ مِن لَصافٍ وثَبرَةٍ ... يَزُرنَ إلالاً سَيرُهُنَّ التَدافُعُ [2]

وقال أبو طالب:

وَبِالمَشعَرِ الأَقصى إِذا عَمَدوا لَهُ ... إلالٍ إِلى مُفضى الشِراجِ القَوابِلِ [3]

وكان وقوفهم يوم تاسع الحجَّة، وكانت قريش ومن تبع دينها حين ابتدعت رأي الحُمس، تقف بالمشعر الحرام وهو جبل بالمزدلفة يقال له «قزح»[4]، ولا تجاوز المزدلفة إلى عرفة كسائر الناس، فقد قالت قريش «نحن ولاة البيت وسكان الحرم، فلا يحلُّ لنا تعظيم شيء من الحل كتعظيم الحرم لئلاً تستخفَّ العرب بحُرمتنا»، فتركوا لذلك الوقوف بعرفة والإفاضة منها؛ لأنَّ عرفه من الحل، وهم يعرفون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم، ويرون لسائر العرب الوقوف بها والإفاضة منها .. فلما حج النبي ﷺ حجَّة الإسلام ظنَّت قريش أنه سيقف بالمشعر الحرام كعادتهم ولا يتجاوزه فتجاوزه إلى عرفات.

---

(١) الريبة الشك، و«ذو أمة» بالضم والكسر ذو دين واستقامة.

(٢) لصاف وثبرة: موضعان، أقسم بالإبل التي يمتطيها الحجاج على مكة تعظيمًا لها، و«سيرهن التدافع» أي من الإعياء، يعني يتحاملن تحاملاً من الجهد والتعب.

(٣) المشعر الأقصى: عرفه، و«الآل» جبل بعرفة، فهو بدل بعض من كل، و«الشراج» جمع شرج، وهو مسيل بالماء، و«مفضي الشراج» مجمعها، و«القوابل» المتقابلة، كناية عن اجتماع الناس في مكانٍ واحدٍ وهو عرفة.

(٤) قيل أنَّ المشعر الحرام كل المزدلفة.

وأنزل الله في إبطال ما أحدث الحُمس من ترك الوقوف بعرفة:

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاس﴾[١].

ولقد طهَّر الله نبيه في الجاهلية من صنع الحُمس ووفَّقه لدين إبراهيم.

روى مسلم في صحيحة عن جبير بن مطعم قال:

أضلَّت بعيرًا لي، فذهبت أطلبه يوم عرفه، فرأيت رسول الله ﷺ وافقًا مع الناس بعرفه[٢]، فقلت: والله إنَّ هذا لمن الحمس، فما شأنه ها هنا؟!

وكانت قريش تُعد من الحمس، وكانوا يُدفعون من عرفات قبل الغروب.

قال صاحب كتاب «حجة الله البالغة»: **ولمَّا كان ذلك قدرًا غير ظاهر ولا يتعيَّن، ومثل هذا الاجتماع لا بدَّ له من تعيين؛ وجب أن يُعيَّن بالغروب.**

وكان الذي يلي الإجازة للناس بالحج من عرفة الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر وولده من بعده، ويقال له ولولده «صوفه»[٣]، وكانت ولايته من قِبل ملوك كِندة كما نقله بعضهم، وذهب ابن هشام إلى أنه أنما

---

(١) الخطاب في «أفيضوا» لقريش ومن دان دينهم، والمراد بـ«الناس» من عداهم من سائر العرب، أمرهم أن يفيضوا من عرفات، وهو يقتضي تكليفهم بالوقوف عليه ليمكن الإفاضة منه.

(٢) روى الترمذي أنَّ حجَّات النبي اثنتان بمكة قبل الإسلام والثالثة بالمدينة وهي «حجة الوداع».

(٣) قال أبو عبيدة: وصوفة وصوفان يقال لكل من ولي من البيتِ شيئًا من غير أهله، أو قام بشيءٍ من خدمة البيت أو بشيءٍ من أمر المناسك يقال لهم «صوفة» و«صوفان» .. قال أبو عبيدة: لأنه بمنزلة الصوف فيهم القصير والطويل والأسود والأحمر ليسوا من قبيلة واحدة .. وقال ابن الكلبي: إنما سُمي الغوث ابن مر صوفة لأنه كان لا يعيش لأمّه ولد، فنذرت لئن عاش لتعلّقنّ برأسه صوفة، ولتجعلنه ربيطًا للكعبة ففعلت فقيل له «صوفه» ولولده وهو الربيط .. وقيل أنَّ أم الغوث لما ولدته كانت قد نذرت إن هي ولدت غلاما لتُعبّدنه للكعبة، ربطته عند البيت فأصابه الحر فمرت به وقد سقط وذوى واسترخى فقالت: ما صار ابني إلاَّ صوفة، فسُمي «صوفة».

ولي ذلك؛ لأنَّ أمَّه – وكانت امرأة من جرهم – كانت لا تلد، فنذرت لله إن هي ولدت ولدًا أن تصدق به على الكعبة ليكون عبدًا لها يخدمها ويقوم عليها، فولدت الغوث، فكان يقوم على الكعبة في الدهر الأول مع أخواله من جرهم، فولي الإجازة للناس من عرفة لمكانه الذي كان به من الكعبة وولده من بعده حتى انقرضوا، قال مر بن أد يذكر ولده الغوث ووفاء نذر أمِّه:

إنِّي جَعَلتُ رَبِّ مِن بُنَيَّه ... رَبيطَةً بِمَكَّةَ العَلِيَّة

فَبَارِكَنَ لِي بِهَا إلَيه ... وَاجْعَلهُ لِي مِن صَالِحِ البَرِيَّة

وكان الغوث بن مر فيما زعموا إذا دفع بالناس قال:

لاَهُمَّ إنِّي تَابِعٌ تِبَاعَه ... إنْ كَانَ أثْمٌ فَعَلَى قُضَاعَه

قال السهيلي: **وإنما خصَّ قضاعة بهذا لأنَّ منهم مُحلِّين يستحلُّون الأشهر الحرم كما كانت خثعم وطيء تفعل، وكذلك كانت النسأة تقول إذا حرمت صفرًا أو غيرة من الأشهر بدلاً من الشهر الحرام يقول قائلهم: «قد حُرِّمت عليكم الدماء إلاَّ دماء المحلين»، فلما انقرض بنو الغوث عن آخرهم ورثهم من بعدهم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم.**

وكانت الإجازة في آل صفوان ابن جناب بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم، قال ابن إسحاق:

وكان صفوان هو الذي يجيز للناس بالحج من عرفة ثم بنوه من بعده حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام كرب بن صفوان.

وقال أوس بن تميم بن مغراء السعدي:

لاَ يَبرَحُ النَّاسُ مَا حَجُّوا معرفهُم[١] حتَّى يُقَالَ أجِيزُوا آلَ صفوَانَا
مَجدٌ بَنَاهُ لَنَا قُدمًا أوَائلُنَا وَأورثُوهُ طوَالَ الدَّهرِ أُخرَانَا

وكانت الإجازة من منى لصوفة أيضًا كما سنذكره.

النُّزول بِمُزدَلفة وَمِنَى وَبَقيَّة أعمَال الحَج:

كانوا إذا دفعوا من عرفة في الحج باتوا ليلة بمزدلفة قال أبو طالب:

وَلَيلَةِ جَمعٍ وَالمَنَازِلِ مِن مِنًى وَمَا فَوقَها مِن حُرمَةٍ وَمَنَازِلِ[٢]

والمبيت بمزدلفة سُنة قديمة في العرب، وكانوا في الجاهلية يُوقدون نارًا على قزح، وهو جبل بمزدلفة ليراها من دفع من عرفة، وأول من أوقدها - كما قال السيوطي وغيره - قصي بن كلاب.

وكانت الإفاضة من المزدلفة في عدوان لا يدفع الحاج منها حتى يجيزهم رجل من عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار، وفي إجازتهم يقول ذو الإصبع العدواني:

وَمِنهُم مَن يُجِيزُ النَّا سَ بِالسُّنَّةِ وَالفَرضِ

---

(١) المعرف: الموقف بعرفات وفي رواية: ولا يريمون في التعريف موقفهم.

(٢) جَمْع: بفتح الجيم وسكون الميم وعين مهملة هي المزدلفة، سُميت بذلك من التزلُّف والازدلاف، لأنَّ الحجاج إذا أفاضوا من عرفات ازدلفوا إليها، أي تقربوا .. قال النووي: سُميت بجمع للجمع بين المغرب والعشاء، ومقتضاه أنَّ هاتين الصلاتين كانتا في الجاهلية.

رُوي أنَّ هذه الإجازة كانت لخزاعة فغلبتها عدوان عليها ولم تزل فيهم يتوارثونها حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام أبو سيارة عُمَيلة بن الأعزل[١] أحد بني وايش بن زيد بن عدوان.

وكان يدفع بالناس على حمار له أسود أجاز الناس عليه أربعين سنة حتى ضرب المثل به فقيل «أصحُ من عير أبي سيارة»، وقيل: كانت له أتان سوداء عوراء خطامها ليف دفع عليها أربعين سنة، وفيه يقول شاعر من العرب:

نَحنُ دَفَعنَا عَن أَبِي سَيَّارَة[٢] وَعَن مَوَالِيه بَنِي فِزَارَه[٣]

حَتَّى أَجَازَ سَالِمًا حِمَارَه مُستَقبِلُ القِبلَةِ يَدعُو جَارَه[٤]

وكانت إجازته أن يتقدَّمهم على حماره ثم يخطبهم فيقول:

لاَهُمَّ إِنِّي تَابِع تِبَاعَه إِنْ كَانَ إِثمٌ فَعَلَى قُضَاعَة[٥]

لاَهُمَّ مَا لِي فِي الحِمَارِ الأَسْوَد أَصبَحتُ بَينَ العَالَمِينَ أَحسَد

هَلاَ يَكَادُ ذُو البَعِيرِ الجَلعَد فَقِ أَبَا سَيَّارَةَ المُحسَد[٦]

---

(١) كذا قال ابن إسحاق وقال الخطابي: اسمه العاصي واسم الأعزل خالد .. ذكره الأصبهاني.

(٢) في رواية: خلوا السبيل عن أبي سيارة.

(٣) يعني بمواليه بني عمه؛ لأنه من عدوان وعدوان وفزارة من قيس عيلان.

(٤) أي: يدعو الله عزَّ وجل، يقال اللهم كن لنا جارًا ممَّا نخافه، أي مُجيرًا.

(٥) لأنَّ من قضاعة محلِّين.

(٦) الكيد: المكروه، و«الجلعد» الصلب الشديد، و«فق» من الوقاية وهي الصون.

مِن شَــرِّ كُــلِّ حَاسِـدٍ إذَا حَسَـد وَمِنْ أَذَاةِ النَّافِثَـاتِ فِـي العُقَـد[١]

اللهمَّ حبِّب بين نسائنا، وعادل بين رعائنـا، واجعـل المـال فـي سمحائنا، أوفوا بعهدكم، وأكرموا جاركم، واقروا ضيفكم .. ثم يقول:

أشرق ثبير كيما نغير، ثم ينفر ويتبعه الناس.

حكى ذلك الميداني في مجمع الأمثال والأصبهاني عن أبي عمـرو الشيباني والكلبي وقد جمعنا بين أقوالهم.

وكانوا في الجاهلية لا ينفرون من مزدلفة إلاَّ والشمس على رءوس الجبال، ولذلك قال مجيزهم أشرق ثبير كيما نغير.

و«ثبير» جبل عال بجوار مكة تطلع عليه الشمس قبل كلٍّ موضـع، أي ادخل يا ثبير في الشروق كيما نُسرع للنحر، ولم يقرُّهم الإسلام على ذلك ففي صحيح البخارى عن عمر أنه صلَّى بجمع الصبح، ثـم وقـف فقال: إنَّ المشركين كانوا لا يُفيضون حتى تطلع الشمس.

ويقولون: أشرق ثبير.

وأنَّ النبي ﷺ خالفهم، ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس، فإذا أفاضوا من مزدلفة نزلوا منى، وفيها كانوا يرمون الجمار وينحرون ويحلقـون، فقد كانوا إذا حجُّوا ساقوا الهدي، فإن كان مـن الإبـل قلَّـدوها النعـال

---

(١) الأذاة: المكروه.

وألبسوها الجلال وأشعروها لتُعرَف[١] فلا يتعرَّض لها أحد إلاَّ المحلِّين من طيء وخثعم .. قال عارف الطائي - وهو جاهلي - يُخاطب الملك عمرو بن هند:

حَلَفْتُ بِهَدْيٍ مَشْعَرٍ بِكُرَاتِهِ تَخبُّ بِصَحرَاءِ الغَبِيطِ دَرَادِقُه[٢]

لَئِن لَمْ تُغيِّرُ بَعضَ مَا قَدْ صَنَعتُمُ لأَنتَحِيَنَّ لِلعَظمِ ذُو أنَا عَارِقُه[٣]

يقول: حلفت أيها الملك بقرابين الحرم، وقد أُعلمت بكراتها بعلامة الإهداء، يسرع بصحراء ذلك الموضع صغارها لئن لم تتدارك ما فاتنا من عدلك لأميلنَّ على كسر العظم الذي أخذت ما عليه من اللحم.

والمعنى «أكسر عظمكم إن لم ترجعوا عن ذلك الظلم»، وأول من أهدى البدن إلى البيت على ما ذكره السيوطي اليأس بن مضر .. وينحرون هديهم بمِنى، قال شاس بن عبدة أخو علقمة الفحل:

---

(١) التقليد: أن تقلد في عنقها قطعة جلد أو نعل بالية، و«الجلال» جمع جُل بالضم وبالفتح، وهو ما تلبسه الدابة لتصان به، و«الأشعار» أن يطعن السنام فيسيل الدم عليه ليستدل بذلك على كونه هديًا.

(٢) الهدي: ما يهدي إلى الحرم من النعم، و«مشعر» اسم مفعول من الأشعار وتقدم تفسيره، و«بكراته» جمع بكرة، وهي الشابة من الإبل، و«يخب» من الخبب وهو خطو فسيح، و«الباء» من بصحراء بمعنى في، و«الغبيط» اسم موضع، و«الدرادق» جمع دردق كجعفر، وهي صغار الإبل، والضمير في بكراته ودرادقه للهدي.

(٣) وانتحين: من الانتحاء للشيء وهو التعرض له، و«ذو» صفة للعظم، و«عارقه» اسم فاعل من «عرقت العظم» أكلت ما عليه من اللحم.

حلَفتُ بِمَا ضَمَّ الحَجِيجُ إِلَى مِنَــى   وَمَا ثَجَّ مِن نَحرِ الهدى المُقَلَّــدِ[١]

وقدم الشنفري مني وبها حرام بن جابر فقيل للشنفري هذا قاتل أبيك فشد عليه وقتله ثم سبق الناس على رجليه وقال:

قَتَلنـــا قَتـــيلاً مُهــــدِيًا بِمُلَبِّـــدِ   جِمارَ مِنًى وَسطَ الحَجِيج المُصَوِّتِ

وقال أبو قيس بن الأسلت من قصيدة يأمر فيها قريشًا بالكفّ عــن رسول الله ويذكر فضلهم وأحلامهم.

يَرَى طَالِبُ الحَاجَاتِ عِنــدَ بُيُــوتِكُمْ   عَصَائِبَ هَلْكَى تَهتَــدِي بِعَصَــائِبِ

لَقَـــدْ عَلِــمَ الأَقـــوَامُ أَنَّ سُـــرَّاتَكُمْ   عَلَى كُلِّ حَالٍ خَيرَ أَهــلِ الجَبَاجِــبِ

قال البرقي: «الجباجب» هي حفر بمنى يجمع فيها دم البدن والهدايا والعرب تفتخر بها وتُعظِّمها.

وكانوا يسوقون الهدي في العمرة أيضًا وشاهده ما روي أنَّ النبـــي ﷺ أحرم عام ستٍّ من الهجرة بالعمرة هو وأصحابه وساق معه الهــدي سبعين بدنة، وقد جلَّلها وأشعرها وأشعر المسلمون بدنهم وقلَّدوها، وليس معهم إلاَّ السيوف في القرب، فسمعت قريش بخروجهم فاســتنفروا مــن أطاعهم وعاهدوا الله ألاَّ يدخلوا عليهم مكة عنوةً أبدًا، ونزل رســول الله بالحديبية وهي على تسعة أميال من مكة، فأرسلت إليـــه قـــريش رســـلاً تطلب منه الانصراف عن مكة عامه، فممَّن بعثوا لذلك «الحلـــيس بـــن

---

(١) الثج: سيلان الدم، و«الهدى» كغنى ما أهدى إلى مكة.

علقمة»، وكان يتألَّه، و«المتأله» المعظِّم لأمر الله كالحجِّ والعمرة ونحو ذلك ممَّا بقي عندهم من دين إبراهيم عليه السلام.

فلما رآه رسول الله ﷺ قال لأصحابه: **«هذا من قوم يتألَّهون، فابعثوا الهدي في وجهه»**.

فلمَّا رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي بقلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محلِّه قال: **«سبحان الله!.. ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت»**.

ورجع إلى قريش، ولم يأتِ رسول الله إعظامًا لِما رأى وصاح قائلاً: **«هلكت قريش وربِّ الكعبة، إنَّ القوم أنما أتوا عمارًا»**.

وقال لأصحابه: **«رأيت البدن قُلِّدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت»**، فقول الحليس هذا يدل على إنهم كانوا يسوقون الهدي في العمرة أيضًا، وكانوا يحلقون رءوسهم بمنى .. قال الشاعر:

فَإنْ تَمَنَّعُوا مِنَّا السِّلاَحَ فَعِندَنَا ... سِلاَحٌ لَنَا لاَ يُشْتَرَى بِالدَّرَاهِمِ

جَنَادِلَ إمْلاَءَ الأَكُفِّ كَأَنَّهَا ... رُءوسُ رِجَالٍ حُلِقَتْ بِالمَوَاسِمِ[1]

وقال زهير بن أبي سلمى:

فَأقسَمْتُ جَهدًا بِالمَنَازِلِ مِن مِنًى ... وَمَا سُحِقَت فيهِ المَقَادِمُ وَالقَمِلُ

لأرتَحِلَن بِالفَجرِ ثُمَّ لأدأَبَن ... إلى اللَيلِ إلاَّ أن يُعَرِّجَني طِفلُ

---

(١) مواسم الحج مجتمعة.

وذكر صاحب «تاج العروس» في مادة «ق ر ر» أنَّ ابن الكلبي قال:

عُيِّرت هوازن وبنو أسد بأكل القرة.

وذلك أنَّ أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رءوسهم بمنى وضع كلُّ رجلٍ على رأسه قبضة دقيق، فإذا حلقوا رءوسهم سقط الشعر مع ذلك الدقيق، ويجعلون ذلك الدقيق صدقة، فكان أناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه فيرمون الشعر وينتفعون بالدقيق .. قال الشاعر:

أَلَمْ تَـرَ جُرمًـا أُنجِـدَت وَأَبُـوكُمُ ... مَعَ الشَّعرِ فِي قَصِّ المُلَبَّـدِ شَـارِعُ

إِذَا قَرَّةً جَاءَتْ يَقُولُ أُصِـيبُ بِهَـا ... سِوَى القُمَّلُ إِنِّي مِنْ هَوَازِنَ ضَارِعُ

ولم تكن العرب قاطبةً تحلق رءوسها في منى، وشاهده قول أبي المنذر:

إنَّ الأوس والخزرج ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها كانوا يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلَّها ولا يحلقون رءوسهم، فإذا نفروا أتوا مناة فحلقوا رءوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجِّهم تمامًا إلاَّ بذلك.

فلإعظام الأوس والخزرج يقول عبد العزَّى بن وديعة المزني أو غيره من العرب:

إنِّي حلفتُ يَمِـينَ صِـدقٍ بَـرَّةً ... بِمَنَـاةَ عِنـدَ مَحـلِّ آلِ الخَـزرَجِ

وكانت العرب جميعًا في الجاهلية يُسمون الأوس والخزرج جميعًا «الخزرج»، وكانوا يرمون الجمار .. قال أبو طالب:

وَبِالجَمرَةِ الكُبرى إِذا صَمَدوا لَها ... يَؤُمّـونَ قَـذفًا رَأسَـهَا بِالجَنَـادِلِ

وقال الهذلي:

لأدركَهُمْ شَعثُ النَّوَاصِـي كَـأَنَّهُم سَوَابِقُ حُجَّاجٍ تُوَافِي المَجمَّـرَا[1]

قال ابن إسحاق: كانت «صوفة» هم بنو الغوث بن مـرّ بـن أُدبـن طابخه تدفع بالناس من عرفة وتجيز بهم إذا نفروا من منى، فإذا كان يـوم النفر أتوا لرمي الجمار، ورجل من صوفة يرمي للنـاس لا يرمـون حتـى يرمي، فكان ذوو الحاجات المُتعجّلون يأتونه فيقولون له قم فارمِ حتى نرمي معك فيقول: لا والله حتى تميل الشمس، فيظلُّ ذوو الحاجات الـذين يُحبُّـون التعجُّل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له «ويلك، قم فـارمِ»، فيأبى عليهم حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه، فإذا فرغوا من رمي الجمار وأرادوا النفر من منى أخذت صوفه بجانبي العقبة فحبسوا الناس وقالوا أجيزي صوفة.

فلم يجز أحدٌ من الناس حتى يمرُّوا، فإذا نفرت صوفة ومضـت خـلا سبيل الناس فانطلقوا بعدهم فكانوا كذلك حتى انقرضوا، فورثهم في ذلك آل صفوان بن جناب بن شجنة، وقد أقرَّ قصي بن كلاب لمَّا غلب على أمر مكة آل صفوان وعدوان والنسأة على ما كانوا عليه لأنه كان يراه دينًـا، فمـا زالوا كذلك حتى جاء الإسلام، وروى مجاهد أنهم كانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا عند الجمرة وذكروا آباءهم في الجاهلية فعال آبائهم، فيقول الرجل منهم «كان أبي يطعم الطعام ويحمل الحمالات والديات»، ليس لهم ذكر غيـر

---

(١) المجمَّر: مشدد الميمي حيث يقع حصى الجمار.

فعال آبائهم فنهى الله عن ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾

ثم يختمون أعمال الحجّ بالطواف بالبيت، فإذا فعلوا ذلك حَلَّ لهم كلّ ما كان مُحرّمًا في الحج .. ومنهم من كان لا يتحلّل بذلك.

روى ابن العربي أنّ قريشاً وبني كنانة وخزاعة وجميع مضر كانوا يُعظمون العزّى، فإذا فرغوا من حجّهم وطوافهم بالكعبة لم يحلُّوا حتى يأتوا العزّى فيطوفون بها ويحلّون عندهم ويعكفون عندها يومًا.

وقال أيضًا: إنّ الأزد وغسان كانوا إذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يحلوا إلاّ عند مناة التي على ساحل البحر ممّا يلي قديد، وكانوا يعظمونها ويحجُّونها، وكانوا يهلّون لها، ومن أُهل لها لم يطف بين الصفا والمروة لمكان الصنمين اللذين عليهما.

ولنتمّم الكلام على التلبية في الحجّ قبل الانتقال منه، فنقول قال أبو العلاء المعري في «رسالة الغفران» إنّ تلبيات العرب منها مسجوع كقولهم «لبيك ربنا لبيك، والخير كله بيديك»، ومنها موزون من منهوك الرجز كقولهم:

لَبَّيْكَ إنَّ الحَمْدَ لله   وَالمُلْكُ لاَ شَرِيكَ لَكْ

إلاَّ شَرِيك هُوَ لَكْ   تَمْلُكُهُ وَمَا مَلَكْ

أَخُو بَنَاتِ بِفَدَكْ[1]

فتلك من تلبيات الجاهلية، و«فدك» يومئذ فيها أصنام.

---

(١) كانوا يقولون إنّ الأصنام بنات الله، و«فدك» قرية بخيبر.

وكقولهم:

لَبَّيكَ يَا مُعطِي الأمر   لَبَّيكَ عَن بَنِي النَّمِر

جِئنَاكَ فِي العَامِ الزَّمِر[1]   نَأمَلُ غَيثًا يَنهَمِر

يَطرُقُ بِالسَّيلُ الخَمِرُ

ومنها من منهوك المنسرح كقولهم:

لَبَّيكَ رَبّ هَمدَان   مِن شَاحِطٍ وَمِنْ دَان

جِئنَاكَ نَبغِي الإحْسَان   بِكُلِّ حَرفٍ مُذعَان[2]

نَطوِي إلَيكَ الغِيطَان   نَأمَلُ فَضلَ الغُفرَان

وكقولهم:

لَبَّيكَ عَن بَجِيلَه   الفَخمَةِ الرَّجِيلَه[3]

وَنِعمَتِ القَبِيلَه   جَاءَتكَ بِالوَسِيلَة

تُؤمِلُ الفَضِيلَه

ورووا في تلبية بكر بن وائل:

لَبَّيكَ حَقًّا حَقَّا   تَعَبُّدًا وَرِقَّا

جِئنَاكَ لِلنَّصَاحَة   لَمْ نَأتِ لِلرَّقَاحَة

---

(١) الزمر: القليل الشعر والصوف.

(٢) الحرف: الناقة الضامرة أو المهزولة أو العظيمة، و«ناقة مذعان» منقادة سلسة المراس.

(٣) رجل راجل ورجيل: مشاء.

ورووا في تلبية تميم:

لَبَّيكَ لَولاَ أنَّ بَكرًا دُونَكَا يَشكُرُكَ النَّاسُ وَيَكفُرُونَكَا

مَازَالَ مِنَّا عَنَجٌ يَأتُونَكَا[٢]

ورووا في تلبية همدان:

لَبَّيكَ مِن كُلِّ قَبِيلٍ لَبُّوك[٣] هَمدَانَ أبنَاءَ المُلُوكِ تَدعُوك

قَد تَرَكُوا أصنَامَهُمْ وَاعتَابُوك فَاسْمَع دُعَاءَ فِي جَمِيعِ الأملُوك [٤]

ومن التلبية قولهم:

لَبَّيكَ عَن سَعدٍ وَعَن بَنِيهَا وَعَن نِسَاءٍ خَلفِهَا تَعنِيهَا

سَارَتْ إلَى الرَّحمَةِ تَجتَنِيهَا

العُمرَة:

العمرة من شريعة إبراهيم عليه السلام وكانت العرب في الجاهلية تعتمر وتَحرِم للعمرة، وشاهده قول رجل من زبيد في الجاهلية منعه العاص بن وائل ثمن بضاعة اشتراها منه، وكان ذلك سبباً لحلف الفضول:

يَا آلَ فِهرٍ لِمظلُومٍ بِضَاعَتَه بِبَطنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَر

---

(١) الرقاحة: الكسف والتجارة.

(٢) العنج: الجماعة من الناس.

(٣) لبوك: أي لزموا أمرك.

(٤) الأملوك: بالضم اسم جمع للملك.

وَمُحرِمٌ أشعَثٌ لَمْ يَقضِ عُمرتَــه   يَا لَلرِّجَالِ وَبَينَ الحَجَـرِ وَالحَجَـر
أقَائمٌ مِــن بَنِــي سَــهمِ بِــذِمَّتِهِم   أم ذَاهِبٌ فَلي ضَــلالِ آلِ مُعتَمِــر

وغالب اعتمارهم في شهر رجب كما شرع حينئذٍ فــي ديــن إبــراهيم، ولذلك جعل الله رجبًا شهرًا حرامًا ليتمكَّن مريد العمرة من السفر إلــى مكــة وقضاء عمرته والعود على بلده آمنًا على نفسه وماله وأهله.

وعندهم أنَّ العمرة في أشهر الحج من أعظم الذنوب وأبطل الشارع ذلك .. روى ابن عباس قال: كانوا يرون أنَّ العمرة في أشهر الحج مــن أفجــر الفجور في الأرض، وكانوا يسمون المحرم صفرًا[1]، ويقولــون: «إذا بــرأ الدبر[2] وعفا الأثر[3] وانسلخ صفر[4] حلَّت العمرة لِمن اعتمر».

قدم النبي ﷺ وأصحابه صبيحه رابعة[5] مهلِّــين بــالحج فــأمرهم أن يجعلوها عمرة[6]، فتعاظم ذلك عندهم فقالوا: يا رسول الله، أيُّ الحل؟.. قال:

---

(١) صفر: هو المحرم في نفس الأمر، وقد سمُّوه صفرًا.

(٢) برأ: نقه، و«الدبر» الجرح الذي يكون في ظهر الإبل من اصطكاك الأقتاب والحمــل عليــه ومشقة السفر، أو كان يبرأ بعد انصرافهم من الحج.

(٣) عفا الأثر: أي درس وأمحى أثر الإبل وغيرها في سيرها لطــول مــرور الأيــام، وقــال الخطابي: المراد أثر الدبر.

(٤) صفر: هو المحرَّم في نفس الأمر، وقد سمُّوه صفرًا.

(٥) رابعة: أي من ذي الحجة.

(٦) أمرهم أن يجعلوا الحجة عمرة، وذلك خصوصية لهم ليذهب من قلوبهم أمر الجاهليــة مــن تحريم العمرة في أشهر الحج.

الحلُ كلُّه[1]ومن أعمال العمرة الطواف بالبيت، وشاهده ما رُوي أنَّ عميًا (رجل من عدوان وقيل من إياد، وكان فقيه العرب في الجاهلية ويُفتي في الحج) أقبل معتمرا ومعه ركب، فنزلوا بعض المنازل في يوم شديد الحر وكان على مرحلتين من مكة فقال عمى لقومه وهم في نحر الظهيرة من أتى مكة غدا في مثل هذا الوقت كان له أجر عمرتين فصكُّوا الإبل صكَّةً شديدة حتى وافوا البيت من الغد في ذلك الوقت .. فقال في ذلك كرب بن جبيلة العدواني:

وَصك بِهَا نَحرَ الظَّهيرَةِ صَكَّةً   عَمَى وَلاَ يَبغِينَ إلاَّ ظِلاَلَهَا[2]

وَجِئنَ عَلَى ذَاتِ الصِّفَاحِ كَأنَّهَا   نَعَامٌ تَبغِي بِالشَّطى رِئالَهَا[3]

فَطَوَّفنَ بِالبَيتِ الحَرَامِ وَقَضَيتَ   مَنَاسِكَهَا وَلَم تَحلَ عِقَالَهَا

وقد قدمنا في الحج أنهم كانوا يسوقون الهدى في العمرة أيضًا:

قال ابن الأثير في الكامل: **وكان من عادة الأوس إذا أراد أحدكم العمرة أو الحج لم يعرض إليه خصمه ويعلِّق المعتمر على بيته كرانيف[4] النخل.**

---

(١) سألوا أهل الحلّ العام لكلّ ما حرم بالإحرام حتى قربان النساء، فأجابهم النبي بأنه الحل العام لكلّ ما حرم به.

(٢) عمي تصغير أعمى على الترخيم وسميت الظهيرة صكة عمي به و(نحر الظهيرة أولها).

(٣) الرئال جمع الرأل وهو ولد النعام.

(٤) الكرانيف جمع كرناف بضم الكاف وكسرها وهي أصول السعف الغلاظ العراض تبقى في الجذع بعد قطع السعف.

الطّهارة - الصّلاة الزّكاة
الصّوم - الاعتكاف

كانوا يتطهَّرون من الحدث الأصغر والأكبر في الجاهلية، ويصلُّون ويُزكُّون ويصومون ويعتكفون، أمَّا الطهارة بالوضوء لديهم فشاهدها قول صاحب كتاب حجة الله البالغة: **إنَّ هذا الوضوء كان يفعله المجوس واليهود وغيرهم، وكانت تفعله حكماء العرب.**

وأمَّا الطهارة بالغسل فشاهدها ما ذكره الزجاجي في «الأمالي» قال:

وكان الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويغسل موتاه ويختتن، فلما جاء الإسلام صار الحنيف المسلم.

وموجب الغسل عندهم الجنابة والحيض، وكانوا مسلمين فيهم قبل الإسلام، والدليل على الاغتسال عند انقطاع الحيض ما رُوِي أنَّ عمرة بنت سبيع كانت مع زوجها في سفر وكانت حائضًا فطهرت ومعهما ماء قليل فاغتسلت، فلم يكفِ لغسلها، وأنفدت الماء فبقيا عطشانين، وفيها قال الفرزدق:

وَكُنتُ كَذَاتِ الحيضِ لَمْ تُبقِ ... وَلاَ هِيَ مِن مَاءِ العَذَابَةِ طَاهِرُ[1]

وقال المخبل:

إنَّ قُشَيرًا مِن لِقَاحِ بنِ حَازِمِ ... كَغَاسِلَةِ حَيضًا وَلَيستْ بِطَاهِرِ

---

(١) العذابة: الرّحم.

والغُسل والوضوء فيهم من آثار الأديان السماوية التي أقرّها الإسلام، ولقد تابعنا صاحب كتاب «حجة الله البالغة» في القول بموجب الوضوء عندهم، وكلام السهيلي يقتضي خلافه؛ فإنه كتب على قول ابن هشام في غزوة السويق أنّ أبا سفيان لمّا رجع من مكة ورجع قريش من بدر نذر ألاّ يمسّ رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا ما نصه:

في هذا الحديث أنّ الغُسل من الجنابة كان معمولاً به في الجاهلية بقيةً من دين إبراهيم وإسماعيل كما بقى فيهم الحج والنكاح، ولذلك سموها «جنابة» وقالوا رجل جُنب وقوم جُنب لمجانبتهم في تلك الحال البيت الحرام ومواضع قربانهم.

ولذلك عُرف معنى هذه الكلمة في القرآن، أعني قوله:

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنبًا فَاطَّهَّرُوا﴾..

فكان الحدث الأكبر معروفًا بهذا الاسم فلم يحتاجوا إلى تفسيره .. وأمّا الحدث الأصغر وهو الموجب للوضوء فلم يكن معروفًا قبل الإسلام، فلذلك لم يقل فيه «وإن كنتم مُحدِثين فتوضئوا» كما قال «وَإِن كُنتُمْ جُنبًا فَاطَّهَّرُوا»، بل قال: «فَاغسِلُوا وُجُوهَكُم وَأَيدِيكُم إِلَى المَرَافِق» .. الآية، فبيَّن الوضوء وأعضاءه وكيفيَّته والسبب الموجِب له كالقيام من النوم والمجيء من الغائط وملامسة النساء، ولم يُحتج في أمر الجنابة إلى بيان أكثر من وجوب الطهارة منها للصلاة.

وأمَّا الصلاة عندهم فشاهدها قول صاحب كتاب «حجة الله البالغة»، وكانت فيهم الصلاة، وكان أبو ذر ﷺ يصلِّي قبل أن يقدم على النبي ﷺ بثلاث سنين .. وكان قيس بن ساعدة الأيادي يصلي.

والمحفوظ من الصلاة في أمم اليهود والمجوس وبقية العرب أفعال تعظيمية لاسيَّما السجود وأقوال من الذكر، وكانوا تركوا الصلاة والذكر وأعرضوا عنهما، فبعث النبي ﷺ وهذا حالهم.

وروى مسلم في صحيحة بسنده عن عبد الله بن الصامت قال:

قال أبو ذر: يا ابن أخي، صلَّيت سنتين قبل مبعث النبي ﷺ.

قال: قلت: فأين كنت توجّه؟

قال: حيث وجَّهني الله.

وكان منهم من يستقبل الكعبة في صلاته كشرع إبراهيم وإسماعيل .. حكى عامر بن ربيعة أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل وهو خارج من مكة يريد حراء فقال: يا عامر، إني قد فارقت قومي واتبعتُ ملَّة إبراهيم وما كان يعبد إسماعيل من بعده، كان يصلي إلى هذه البنية.

وروى الأصبهاني في «الأغاني» أنَّ زيد بن عمرو بن نفيل كان يستقبل الكعبة في صلاته ويقول: يَا مَولاَي،

لبَيك حقًّا حقًّا ... تَعبُدًا ورِقّا

البِرَّ أرجو لا الخال ... هَلْ مُهَجِّرٌ كَمَن قال

عُذْتُ بما عاذ به إبرَاهِيم مُستقبلَ الكعبة وَهُوَ قَائمُ
يَقُول أنفِي لَكَ عَانٍ رَاغِمُ مَهْما تُجَشِّمْني فإنِّي جَاشِمُ

ثم يسجد .

وحكوا في سرِّ مشروعيَّة استقبال الكعبة في الصلاة أنَّ الكعبة من شعائر الله عند العرب، أذعن لها أقاصيهم وأدانيهم، وجرت السنة عندهم باستقبالها، فلم يكن هناك معنى للعدول عنها.

الزَّكَاة:

وأمَّا الزَّكاة عندهم فشاهدها قول صاحب كتاب «حجة الله البالغة» إنَّ العرب في الجاهلية كانت فيهم الزكاة، وكان المعمول عندهم منها قرى الضيف وابن السبيل وحمل الكلّ[1] والصدقة على المساكين وصلة الأرحام والإعانة في نوائب الحقّ[2]، وكانوا يُمدَحون بها ويُعرفون أنها كمال الإنسان وسعادته.

قالت خديجة لرسول الله حين بدء الوحي:

فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرَّحم وتقري الضيف وتحمل الكلّ وتعين على نوائب الحقّ.

---

(١) الكَلّ: بفتح الكاف وتشديد اللام «العيال»، واليتيم ومن لا يستقل بأمره وحمل الكل الإعانة بالأنفاق على العيال والضعفاء.

(٢) نوائب الحق: الحوادث التي تكون في الحقّ دون الباطل.

وإن سبيعة ابن ربيع المشهور بابن الدغنة (والدغنة أمه) قال مثل ذلك لأبي بكر.

هذا ولا شك أنَّ هذه الشمائل العربية فيهم من آثار الأديان السماوية؛ فإنَّ قول خديجة «لا يخزيك الله» أي لفعلك ما أمر به، وفي رواية «ليس للشيطان عليك سبيل» أيَّ لأنَّ أعمالك من الأعمال الرحمانية التي وردت بها الشرائع السماوية.

وحكى بعضهم أنَّ الزكاة فيهم من شريعة إبراهيم عليه السلام.

الصَّوم:

وأمَّا **صومهم** في الجاهلية فكان من الفجر إلى غروب الشمس، وقد ذكر ذلك صاحب كتاب «حجة الله البالغة».

وممَّا كانت تصومه قريش «يوم عاشوراء» وشاهده ما رواه مسلم في صحيحة بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: **كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلما هاجر إلى المدينة صامه وأمر بصيامه، فلمَّا فرض شهر رمضان قال «من شاء صامه ومن شاء تركه».**

وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة[1] فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسُئلوا عن ذلك فقالوا «هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون فنحن نصومه تعظيمًا له»، فقال النبي ﷺ: «**نحن أولى بموسى منكم**» .. فصامه وأمر بصيامه.

---

(١) يُحتمل أن يُراد بالمدينة «قباء» أو يراد بها باطنها.

قال النووي: وكان يوم عاشوراء يوما تُعظِّمه اليهود في الجاهلية وتتَّخذه عيدًا ويُلبسون نسائهم اللباس الحسن والحُلي.

قال المرحوم محمود باشا الفلكي في كتابه «نتائج الإفهام في تقويم العرب قبل الإسلام»: **وفي كونه ﷺ وجدهم صائمين ذلك اليوم إشكال؛ لأنَّ يوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر الله المحرم أو هو التاسع منه كما يقول ابن عباس، فكيف يكون في ربيع الأول؟**

وأجيب بأنَّ السَّنة عند اليهود شمسية لا قمرية، **فيوم عاشوراء الذي كان عاشر المحرم واتُّفق فيه غرق فرعون لا يتقيَّد بكونه عاشر المحرَّم، بل اتفق أنه في ذلك الزمن - أي زمن قدومه ﷺ - كان وجود ذلك اليوم بدليل سؤاله ﷺ؛ إذ لو كان ذلك اليوم يوم عاشوراء ما سأل.**

وممَّا يؤيد ذلك ما في المعجم الكبير للطبراني عن خارجة بن زيد عن أبيه قال: ليس يوم عاشوراء الذي يقوم الناس إنما كان يوم تستر فيه الكعبة وتلعب فيه الحبشة عند رسول الله، وكان يدور في السنة، وكان الناس يأتون فلانًا اليهودي فيسألونه، فلمَّا مات أتوا زيد بن ثابت فسألوه.

ثم نقل عن البيروني في كتاب «الآثار» أنه قال:

وقد قيل أنَّ عاشوراء عبراني معرَّب عاشور، وهو العاشر من "تشري" اليهود إلى صومه صوم الكيبور، وأنه اعتبر في شهور العرب فجعل في اليوم العاشر من أول شهورهم كما هو اليوم العاشر من أول شهور اليهود.

ثم قال: فمن جميع ما ذُكر ينتج أنَّ النبي دخل المدينة في ١٠ تشري، وقد فرض في التوراة صوم هذا اليوم واختلف الرواة وأصحاب السير في يوم

دخوله ﷺ المدينة، أهو اليوم الثاني أم الثامن أم الثاني عشر من ربيع الأول، كما أنهم اتفقوا على أن هذا اليوم كان يوم الإثنين[1]، وعندي أنَّ أرجح هذه الأيام ما يدل لحساب على أنه كان يوم الإثنين، وحيث إنَّ الحساب لا يؤدِّي البتة إلى أنَّ الثاني أو الثاني عشر من ربيع الأول كان يوم الإثنين تعيَّن بالضرورة أنَّ الثامن هو يوم وقوع الحادثة، وتكون الخلاصة أنَّ الهجرة أو دخول النبي ﷺ المدينة كان في يوم الإثنين ثامن ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ للميلاد و١٠ تشري سنة ٤٣٨٣ للخليقة.

الاعتكاف:

وأمَّا **الاعتكاف** فكانوا يعدُّونه قربةً من القرب وينذرونه، وشاهده ما رواه مسلم في صحيحة بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: يا رسول الله، إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، قال: فأوفِ بنذرك.

وكذلك كانت تعد المجاورة قُربة؛ لِما رواه عبيد بن عمير بن قتادة قال: كان رسول الله يجاور في حراء من كلِّ سنة شهرًا، وكان ذلك ممَّا تحنث به قريش في الجاهلية، والتحنث التبرُّر[2]، وشاهده قول أبي طالب:

---

(١) دعوة الاتفاق ممنوعة؛ فقد حكى السهيلي أنَّ ابن الكلبي قال: خرج صلى الله عليه وسلم من الغار يوم الإثنين أول يوم من ربيع الأول ودخل المدينة يوم الجمعة لثنتي عشرة منه.

(٢) العرب تقول التحنث والتحنف يريدون الحنيفية، فيبدلون بالفاء الثاء، وتفعل تقتضي الدخول في الفعل وهو الأكثر، فتحنث وتبرر بمعنى دخل في الحنيفي وفي البر.

وَثَورِ وَمَن أرسى ثَبيــرًا مَكانَــهُ   وَراقٍ لِيَرقى في حِــراءِ وَنَــازِلِ[1]

فقد أقسم أبو طالب بالصاعد جبل حراء ليُعبد فيه وبالنازل منه.

وكان من عادة النبي ﷺ إذا جاور ذلك الشهر أن يطعم من جاءه من المساكين فإذا قضي جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعًا أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته.

وأول ما نزل عليه الوحي كان بحراء في جواره.

قال ابن عبد البر: ولا فرق بين الجوار والاعتكاف إلاَّ من وجهٍ واحدٍ وهو أنَّ الاعتكاف لا يكون إلاَّ داخل المسجد، والجوار قد يكون خارج المسجد، ولذلك لم يسمَّ عُبيد بن عمير جواره بحراء اعتكافًا، لأنَّ حراء ليس من المسجد، ولكنه من جبال الحرم.

❁ ❁ ❁

(١) ثور وثبير جبلان من جبال مكة، وفي البيت رواية لابن هشام وهي وراق ليرقي في حراء ونازل، ولأنَّ الراقي لا يُرقَّى قال السهيلي: وأصح الروايتين وراق ليرقى في حراء ونازل، قال البرقي هكذا .. رواه ابن إسحاق وغيره وهو الصواب.

الاسْتِسقَاء بِالدُّعَاء وَبِالنَّار

كانت العرب في الجاهلية إذا حُبس عنهم المطر لجئوا إلى الله تعالى يستمطرونه ليكشف ما نزل بهم من البلاء، وكانوا كثيرا ما يستمطرون في الأماكن المطهرة طمعًا في إجابة الدعاء، كما كانوا يستسقون بمن يرجون الخير بيُمن طلعته.

والاستسقاء فيهم من زمن قديم وهو من بقايا الشرائع السماوية؛ فقد ذُكر أنَّ عادًا أصابهم قحط تتابع عليهم بتكذيبهم هودًا، فأرسلوا وفدًا إلى مكة يستسقون لهم، فبعثوا قيل بن عسير ولقيم بن هزال ومرثد بن مسعد - وكان مسلمًا يكتم إسلامه - وجلهمة بن الخيبري خال معاوية بن بكر ولقمان بن عاد في سبعين رجلاً من قومهم، فاستسقوا فأرسل الله على عاد سحابة سوداء ملأها عذابًا، فلما طلعت عليهم استبشروا بها وقالوا: هذا عارض ممطرنا، وإذا به ما استعجلوا به ريحًا فيها عذاب أليم تدمِّر كلَّ شيء مرَّت به فأهلكهم الله بريحٍ عاتيةٍ تركتهم كأنهم أعجاز نخل خاوية، وعلم الوفد حين رجعوا بمهلك قومهم .. وفي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمي:

فِي كُلِّ عَامٍ لَنَا وَفدٌ نُسَيِّرُهُم ... نَختَارُهُمْ حَسَبًا مِنَّا وَأحلامَا

كَانُوا كَوَفدِ بَنِي عَادٍ أَضَلَّهُمُ ... قِيلَ فَأَتبَعَ عَامًا مِنهُمُ عَامَا

عَادُوا فَلَمْ يَجِدُوا فِي دَارِ قَومِهِمُ ... إلاَّ مَغَانِيَهُمْ قَفْرًا وَأرمَامَا

ولقد حفظ لنا التاريخ مثلاً من دعواتهم في الاستسقاء نذكره لِما فيه من الفائدة والبلاغة، فمن ذلك ما حدث به مخرمة بن نوفل قال:

سمعت أمي رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف وكانت لدة[1] عبد المطلب قالت: تتابعت على قريش سنون أمحلت[2] الأرض وأذهبت الأموال وأقحلت[3] اللحم وأرقت العظم وأشفين[4] على الأنفس، فبينما أنا نائمة اللهم أو مُهوَّمة[5] إذا أنا بهاتف صيت[6] يصرخ بصوت صحل[7] اقشعرَّ له جلدي يقول: يا معشر قريش، إنَّ هذا النبي المبعوث فيكم قد أظلَّتكم[8] أيامه وهذا أوانه وإبان نجومه[9]، فحيلا بالحيا والخصب والفلاح[10] .. ألا فانظروا رجلاً منكم وسيطًا طوالاً عظامًا أبيضَ بضًّا أوطف الأشفار[11] سهل الخدين[12] أشم العرنين[13] مقرون الحاجبين، له شرف يكظم عليه وسُنة

---

(١) اللدة: التِّرب بكسر التاء، أي النظير في السِّن.

(٢) أمحلت: أقحطت.

(٣) أقحلت: أيبست.

(٤) أشفى: أشرف.

(٥) المهوِّم: من يكون بين النائم واليقظان.

(٦) الصيت: البعيد الصوت.

(٧) الصحل: صوت فيه بحَّة.

(٨) أظل: دنا وقرب.

(٩) النجوم: الطلوع.

(١٠) حيل بكذا: أي عليك به، و«الحيا» المطر، و«الفلاح» البقاء.

(١١) الوسيط: من قولهم أوسطهم حسنًا أي أكرمهم وأشرفهم، و«الطوال» الطويل و«العظام» العظيم و«البض» الممتلئ، وفي رواية أوطف الأهداب، و«الأوطف» طويل الأهداب، و«الأهداب» شعر أشفار العيون مفرده هدب.

(١٢) سهل الخدين قليل لحمها.

(١٣) شمم العرنين: طول طرف الأنف.

تُعزَى[١] إليه، إلاً فليخلص هو وولده وليدلف إليه من كلٍّ بطن[٢] رجل فليسنوا[٣] من الماء وليمسوا من الطيب ثم ليستلموا الركن[٤]، وليطوفوا بالبيت سبعًا، وليرتقوا أبا قبيس إلاً وفيهم الطيب الطاهر، ألا فليدع الرجل ولؤمن القوم إلاً فغثتم[٥] إذا شئتم وعشتم، قالت: فأصبحت علم الله مذعورة مفراة قد قف لها جلدي ووله عقلي[٦] فاقتصصت رؤياي فنمَّت[٧] في شعاب مكة، فوا لحرمة والحرم ما سمع بها أبطحي إلاً قال هذا شيبة الحمد عبد المطلب[٨]، وتتامت إليه رجالات قريش، وانقضَّ[٩] إليه من كلٍّ بطن رجلٍ فسنوا من الماء ومسوا من الطيب واستلموا الركن وطوفوا، ثم ارتقوا أبا قبيس فطفق القوم

---

(١) كظم: بمعنى أمسك، ومنه يكظم غيظه، و«السُنة» السيرة، و«تُعزَى» أي تُنسَب.

(٢) الدلف، مشي على مهل كمشي الشيخ، و«البطن» من بطون العرب دون القبيلة، وقد يُطلق عليها.

(٣) سنَّ عليه الماء بالسين المهملة صبه.

(٤) استلام الركن: ضم الحجر.

(٥) غثتم: مطرتم.

(٦) الذعر: الفزع، و«مفراة» بالفاء الموحدة متحيرة مدهوشة من «فرِى» بكسر الراء تحير ودهش، و«قف جلده» يبس، ويروى «قب» أي ذوى، و«الوله» ذهاب العقل.

(٧) نمَّت بتشديد الميم فشت، ومنه التمام وبتخفيفها زادت من النمو.

(٨) الشِّعاب: جمع شعبة ما صغر من التعلة والتعلة ما ارتفع من الأرض، و«الحرمة» الذمة وما يجب حفظه، و«الحرم» حرم مكة، و«الأبطحي» هو القرشي من مكة خاصة، و«شيبه الحمد» هو عبد الملطب.

(٩) تنامت: اجتمعت، و«انقضَّ» أسرع.

يدفون[١] حوله، ما إن يدرك سعيهم مهلة حتى يحلوا ذروته واستكفوا جنابته[٢] ومعه رسول الله ﷺ وهو يومئذ غلام قد أيفع أو كرب[٣] فقال عبد المطلب: اللهم ساد الخلة [٤] وكاشف الكربة، أنت عالم غير معلم ومسئول غير مبخل[٥]، وهذه عبادك وإماؤك بعذرات حرمك [٦]، يشكون إليك سنتهم التي أذهبت الخف وأفنت الظلف [٧]، فاسمع اللهم دعاءنا وأنزل علينا غيثًا مريعًا مغدقًا وَدِقًا[٨] طبقا، فما راموا البيت حتى انفجرت السماء بمائها وكظَّ الوادي بثجيجه[٩]، فسمعت شيخان قريش وجلتها[١٠] يقولون: هنيئًا يا أبا البطحاء إذ عاش بك أهل البطحاء.

وفي ذلك تقول رقيقة بنت أبي صيفي تمدحه ﷺ:

---

(١) طفق: دام، و«يدفون» يتداولون.

(٢) ذروة كل شيء أعلاه، و«استكفوا» أحاطوا به ينظرون إليه، و«جنابته» ناحيته.

(٣) أيفع الغلام قارب الاحتلام، و«كرب» من أفعال المقاربة والمعنى أو قارب.

(٤) الخلة: الحاجة.

(٥) غير بخيل.

(٦) عبادك جمع عبد، ويُروى عِبِدّاؤك بكسر العين، والباء وتشديد الدال أي عبيدك، و«بعذرات حرمك» أي بإفنائه.

(٧) الظلف للبقرة والشاة ومثلهما كالقدم للإنسان، و«الخف» للبعير، وأراد ذوات الظلف وذوات الخف.

(٨) مريعًا أي مخصبا، و«المغدق» الكثير القطر، و«الودق» المطر.

(٩) راموا: برحوا، وكظ الوادي أي ضاق بالماء لكثرته، و«ثجيجه» سيلانه.

(١٠) جلتها: عظماؤها وسادتها.

بِشَيبَةِ الحَمدِ أسقَى اللهُ بَلدتَنَا وَقَدْ فَقَدنَا الحَيَا وَاجلَوَّذَ المطرُ[١]

فَجَادَ بِالمَاءِ جُونِيَّ لَهُ سَيلٌ فَعَاشَت بِهِ الأنعَامُ وَالشَّجَرُ[٢]

منًّا مِنَ اللهِ بِالمَيمُونِ طَائِرِهِ وَخَيرُ مَن بُشِّرَتْ يَومًا بِهِ مُضَرُ[٣]

مُبَارَكُ الأمرُ يَستَسقِي الغَمَامُ بِهِ مَا فِي الأَنَامِ لَهُ عِدلٌ وَلاَ خَطَرُ[٤]

وقد حضر النبي ﷺ استسقاءً آخر وكان رضيعًا، وذلك أنَّ قريشًا أجدبت وحُبس عنهم المطر، فأمر عبد المطلب ابنه أبا طالب أن يحضر المصطفى وهو رضيع في قماط، فلما حضر وضعه على يديه واستقبل الكعبة ورماه إلى السماء وتناوله بيديه، ثم رماه ثانيًا وثالثًا وهو يقول: يا رب، بحق هذا الغلام اسقنا غيثًا مغيثًا مغدقًا دائمًا هاطلاً.

فما انصرفوا حتى جاءهم الغيث، وفي ذلك يقول عمه أبو طالب في قصيدته اللامية:

وأبيَضَ يُستَسقَى الغَمَامُ بِوَجهِهِ ثِمَالُ اليَتَامى عِصمَةٌ لِلأرَامِلِ[٥]

يَلوذُ بِهِ الهُلاَّكُ مِن آلِ هَاشِمٍ[٦] فَهُم عِندَهُ فِي رَحمَةٍ وَفَوَاضِلِ

---

(١) الحيا: الخصب والمطر، و«اجلوذ» مضي وذهب.

(٢) الجون: الأبيض والأسود وهو من الأضداد، و«السيل» المطر.

(٣) منَّ عليه: أنعم، والميمون طائره أي السعيد حظه، و«مضر» قبيلة من العرب.

(٤) في رواية مبارك الكف، و«الغمام» سحاب المطر، و«الأنام» الخلق، و«العدل» بالكسر مثل الشيء، و«لا خطر» أي لا مثل له في علوه.

(٥) قد عبر عن الكرم بالبياض، يقال له عندي يد بيضاء أي معروف، و«الثمال» العماد والملجأ، والمطعم والمغني والكافي، و«العصمة» ما يعتصم به ويتمسك.

(٦)الهلاَّك: الفقراء والصعاليك الذين ينتابون الناس طلبًا لمعروفهم من سوء الحال.

ويستسقى كلُّ ذي دين من مبعوده بالتقرُّب إليه، وسنذكر خبر خـولان وتوسُّلهم لصنمهم «عميانس» بالذبائح ليسقوا.

ومنهم من يستسقي بالنار، وكانوا إذا أرادوا الاستمطار بها جمعوا مـا قدروا عليه من البقر وعقدوا في أذنابهم وبين عراقيبها حزمًـا مـن السَّـلَع والعُشَر[١] وأوقدوا فيها النار وأصعدوها في جبل وعر وفرَّقوا بينهـا وبـين أولادها وساقوا البقر إلى ناحية المغرب دون سائر الجهات وهـم يصـيحون بالتضرُّع والدعاء لله تعالى ويستسقونه وسط خوار الثيران وتـأجُّج النيـران يستجلبون بذلك رحمته وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت:

سَـنَةٌ أزمَـــةٌ تُخَيَّـــلُ بِالنـــاسِ ... تَرى لِلعِضاهِ فيها وَأَوفى صَـريرا[٢]

إذ يَسَـــقَونَ بِالـــدَقيقِ وَكـــانوا ... قَبـلُ لا يَـأكُلونَ شَـيئًا فَطيـرا[٣]

وَيَســوقونَ بـاقِرًا يَطـرُدُ السَـهلَ ... مَهازيـلَ خَشـيَةً أَن يَبـورا[٤]

عاقِـدينَ النيـرانَ فـي شُـكُرِ ... الأَذنابِ مِنها لِكَـي تَهـيجُ البُحـورا

فاشـتَوتَ كُلُهـا فَهـاجَ عَلَـيهِم ... ثُمَّ هاجَـت إِلـى صَـبيرِ صَـبيرا[٥]

فَرَآهـا الآلِـهُ تُرسَـمُ بِـالقَطرِ ... وَأَمسـى جـانِبَهُم مَمطـورا

---

(١) «السَّلَع» بفتحتين و«العُشَر» بضم ففتح: ضربان من الشجر.

(٢) أزمة: أي شديدة، وفي رواية «سنة جدبة»، وتبرح بالناس: تصيبهم بشدة الأذى، و«العضاة» جمع عضاهة، وهي أعظم الشجر أو الخمط، أو كل ذات شوك، و«الصرير» الصوت.

(٣) الباء في «بالدقيق» زائدة، و«الفطير» من العجين ما اختبرته من ساعته ولم تخمره.

(٤) الباقر البقر، و«الطود» الجبل أو عظيمه، و«تبور» تهلك.

(٥) الصبير: السحابة البيضاء أو الكثيفة التي فوق السحابة أو الذي يسير بعضه فوق بعض.

سَلَعٌ ما وَمِثْلُهُ عَشَرٌ ما عائِلٌ ما وَعالَت البَيقُورا[1]

وقال آخر:

يا كُحلُ قَدْ أُثقِلَتِ أذنابَ البَقَر بِسَلَعٍ يُعقَدُ فِيهَا وَعُشَر

فَهَلْ تَجُودِينَ بِبَرقٍ وَمَطَر

وهذه النار تُسمَّى «نار الاستمطار»، وأنكر كثير منهم فائدة الاستمطار بالنار .. قال الشاعر:

شَفَّعنا بِبيقُورَ إلَى هَاطِلِ الحَيَا فَلَمْ يُغنِ عَنَّا ذَاكَ بَل زَادَنَا جَدبَا

فَعُدنَا إلَى رَبِّ الحَيَا فَأجَادَنَا وَصَيَّرَ جَدبَ الأَرضِ مِن عِندِهِ خِصْبَا

وقال آخر:

قُل لِبَنِي نَهشَلَ أصحَابَ الحَوَر أتطلُبُونَ الغَيثَ جَهلاً بِالبَقَر

وَسَلَعَ مِن بَعدِ ذَاكِ وَعُشَر لَيسَ بِذَا يُجَلِّلُ الأرضُ المَطَر

وقال الورل الطائي يعيبهم أيضًا:

لا دَرَّ دَرُّ رِجَالٍ خَابَ سَعْيُهُمُ يَستَمطِرونَ لَدَى الأزْمَاتِ بِالعُشَرِ

أجاعِلٌ أنتَ بيقُورًا مُسَلَّعَةً ذَرِيعةً لكَ بَينَ اللَّهِ والمَطَرِ

قال ابن أبي الحديد: وإنما أضرموا النيران في أذناب البقر تفاؤلاً للبرق بالنار.

---

(١) اختلف في تفسير هذا البيت، ومن بين هذه التفاسير: «عالت» بمعنى أثقلت البقر بما حملتها من السَّلَع والعُشَر، و«البيقور» البقر و«عائل» غالب أو مثقل.

وقال أحد الأذكياء: **كلُّ أمَّةٍ قد اتخذت في مذاهبها مذاهب ملَّة أخرى، وكانت الهند تزعم أنَّ البقر ملائكة سخط الله عليها فجعلها في الأرض، وأنَّ لها عنده حرمة، وكانوا يُلطِّخون الأبدان بأخثائها ويغسلون الوجوه ببولها ويجعلونها مهور نسائهم ويتبرَّكون بها في جميع أحوالهم، فلعل أوائل العرب حذوا هذا الحذو وانتهجوا هذا المسلك.**

وللبقر عند قدماء المصريين أسمى المنازل الدِّينية، وليست هذه العادة من الخرافات؛ فإنَّ للدخان أثرًا في الأمطار، وقد جرَّب بعض علماء الإفرنج بأمريكا إنزال المطر بالدخان المتكاثف فنجحت تجربته.

النَّذر:

كانوا في الجاهلية يُوجبون على أنفسهم فعل أشياء أو تركها، وذلك هو «النذر»، ويُمدحون بالوفاء به .. قال عنترة العبسي في مُعلَّقته:

وَلَقَد خَشيتُ بِأَن أَموتَ وَلَم تَدُر ... لِلحَربِ دائِرَةٌ عَلى اِبنَي ضَمضَمِ

الشاتِمَي عِرضي وَلَم أَشتِمهُما ... وَالناذِرَينِ إِذا لَم أَلقَهُما دَمي

وقال زهير:

قَد أَشهَدُ الشارِبَ المُعَذَّلَ لا ... مَعروفُهُ مُنكَرٌ وَلا حَصِرُ[1]

في فِتيَةٍ لَيِّني المَآزِرِ لا ... يَنسَونَ أَحلامَهُم إِذا سَكِروا

يَشوُونَ لِلضَيفِ وَالعُفاةِ وَيو ... فونَ قَضاءً إِذا هُمُ نَذَروا[1]

---

(١) المعذل: كمعظم من يعذل لإفراط جوده، و«الحصر» البخل والعي في المنطق.

وكانت قديما نذورهم تقرُّبًا لله تعالى، ثم لمَّا تغيَّرت الحنيفية بعبادة الأوثان ودخلت فيهم الديانات الوضعية صاروا ينذورن لأصنامهم أو للانتقام أو لغير ذلك من الأغراض المختلفة التي لا يمكن استقصاؤها .. ولنذكر أمثلةً منها:

في صحيح مسلم أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله، إني نذرت في الجاهلية أن اعتكف ليلةً في المسجد الحرام، قال: فأوف بنذرك.

ومنها ما رُوي أنَّ الحكم بن عبد يغوث المنقري نذر ليذبحنَّ مهاة على الغبغب[2]، وكان من أرمى الناس، فرام صيدها أيامًا فلم يمكنه، فكان يرجع مخفقًا حتى همَّ بقتل نفسه مكانها، فقال له ابنه مطعم: احملني أرفدك، فقال: ما أحمل من رعش رهل[3] جبان فشل، فما زال به حتى حمله، فرمى الحكم مهاتين فأخطأهما، فلما عرضت الثالثة رماها مطعم فأصابها فقال الحكم: «رُبَّ رَميةٍ مِنْ غَيرِ رَام»، فضُربت مثلا في فلتة إحسان من المسيء.

ومنها أن الغوث بن مرّ بن أدّ بن طابخة كان لا يعيش لأمّه ولد، فنذرت لئن عاش لتعلقنَّ برأسه صوفة ولتجعلنه ربيطًا للكعبة، فلما عاش

---

(١) العافي: الضيف وكلّ طالب فضل أو رزق.

(٢) المهاة: البقرة الوحشية، و«الغبغب» منحر العزّى، كانوا ينحرون فيه هداياها.

(٣) الإرفاد: الإعانة، و«رهل لحمه» بالكسر اضطرب واسترخى وانتفخ أو ورم من غير داء.

لها الغوص وفت بنذرها فسُمّي صوفة، وكان له ولولده الإجازة بـــالحجّ من عرفة ومن مِنى لمكانته من الكعبة.

ومن ذلك نذر تهويد الأولاد .. قال السهيلي: اليهود بنـــو إســـرائيل وجملة من كان منهم بالمدينة وخيبر، وهم قريظة والنضير وبنو قينقـــاع، غير أنَّ في الأوس والخزرج من تهوَّد .. وكان من نسائهم من تنـــذر إذا ولدت إن عاش ولدها أن تُهوِّده لأنَّ اليهود عندهم كانوا أهل علم وكتاب، وفي هؤلاء الأبناء الذين تهودوا نزلت «**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين**» حـــين أراد آباؤهم إكراههم على الإسلام في أحد الأقوال.

ومن ذلك ما رُوي أنَّ عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح قتل في غزوة أحُد من المشركين مسافع بن طلحة وأخاه الجلاس بن طلحـــة، كلاهمـــا يصيبه بسهم فيأتي أمه سلافة فتضع رأسه في حجرها وتقول: يـــا بنـــي، من أصابك؟ فيقول: سمعت رجلاً يقول حين رماني: خذها وأنا ابن أبـــي الأقلح، فنذرت إن مكَّنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر.

ومنها ما رُوي أنَّ أبا سفيان لمَّا رجع من مكة ورجع منهزمًا من بدر نذر ألاَّ يمسَّ رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا.

ومنها ما كان من عبد المطلب بن هاشم، فإنه حين لقي من قريش ما لقي عند حَفر زمزم نذر لئن وُلد له عشرة نفر ثم بلغوا معـــه حتـــى يمنعوه لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة، فلما بلغ بنوه عشرة وعرف أنهـــم

مانعوه جمعهم وأخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك فأطاعوه فجعل لكلٍ قدحًا وكتب عليه اسمه وضرب القداح سادن هُبل عنده فخرج قــدح عبد الله فهمَّ بذبحه، فقامت قريش وقالوا: لا تذبحه أبدًا حتى ننذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه فما بقــاء النــاس علــى هذا؟.. وأشاروا عليه أن يذهب لعرّافة سمّوها له ليستفتيها فيما نزل بــه، فلما نزل عبد المطلب بساحتها وقصَّ عليها أمره أمرته أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشرٍ من الإبل، فإن خرج قدح عبــد الله زاد الإبــل عشرًا، وضرب، ولا يزال يفعل ذلك حتى يخرج القدح على الإبل، فعــاد إلى مكة وضرب القداح ومازال يزيد الإبل حتى بلغت مائة فخرج القدح عليها فذبحوها وعبد الله هو والد نبينا المراد بقوله ﷺ:

«**أنا ابن الذبيحين**»، وثانيهما إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

ومن نذورهم السائبة أنَّ أحدهم كان إذا نزل به المكــروه ينــذر أن رُفع عنه أن يسيب ناقته، فإذا فعل ذلك لم تُمنع من الماء ولا من الكــلأ، وقد يسيبون غير الناقة، وكانوا إذا سيَّبوا العبد لم يكن عليه ولاء.

ومن نذورهم ما كان من لبيد بن ربيعة بن عامر – وكان شريفًا في الجاهلية والإسلام – فقد نذر في الجاهلية ألاَّ تهــب الصّــبا[1] إلاَّ نحــر وأطعم، وهبَّت الصّبا يومًا وهو بالكوفة مقترٌ مملق، فعلم بذلك الوليد بــن

---

(١) الصّبا: ريح رقيقة.

عقبة بن أبي معيط وكان أميرًا عليها لعثمان، فخطب الناس فقال: إنَّ أخاكم لبيدا كان آل على نفسه في الجاهلية ألاَّ تهبَّ الصَّبا إلاَّ أطعم وألزم نفسه ذلك في الإسلام، وهذا اليوم من أيامه، فأعينوه، فأنا أول من يُعينه .. ثم نزل فبعث إليه بمائة بقرة وبعث الناس إليه، فقضى نذره .. وكتب إليه الوليد:

أرى الجَزّارَ يَشحَذُ شَفرتَيهِ ... إذا هَبَّت رياحُ أبي عَقيلِ

أشَمُّ الأَنفِ أصيدُ عامِرِيٌّ ... طَويلُ الباعِ كَالسَيفِ الصَّقيلِ

وَفي ابنِ الجَعفَرِيِّ بِجِلفَتَيهِ ... على العَلاَّتِ وَالمالِ القَليلِ[1]

بِنَحرِ الكَومِ إذ سُحِبَت عَلَيهِ ... ذُيولُ صِبًا تُجاوِبُ بِالأَصيلِ[2]

فلما أتاه الشعر قال لابنته: أجيبيه؛ فقد أراني ولا أعيا بجواب شاعر، فأنشأت تقول:

إذا هبّت رِياحُ أبي عقيلٍ ... دَعَونا عندَ هبَّتِها الوَليدَا

أَشمَّ الأنفِ أصيد عَبشميًّا ... أعانَ على مُروءَتِهِ لَبيدَا

بِأمثالِ الهِضابِ كأنّ رَكبًا ... عَلَيها مِن بَني حامٍ قُعُودَا[3]

أبا وهبٍ جَزاكَ اللّه خَيرًا ... نَحرناها وَأَطعمنا الثَّرِيدَا

---

(١) على علاته: أي على كل حال.

(٢) الكوم: القطعة من الإبل.

(٣) الهضاب والهضب جمع الهضبة وهي الجبل، و«حام» هو ابن نوح أبو السودان.

فَعُــد إنّ الكــريمَ لــه معــادٌ وَظَنّي يــا ابــن أروى أن نَعــودَا

فقال: أحسنت، لولا أنك استزدته، فقالت: إنَّ الملـوك لا يُستحيا مـن مساءلتهم.

ذبح الظبي في نذر الشاة:

كان أحدهم يقول عند المكروه يصيبه إن خلصت منه لأذبحنَّ مـن الغنم كذا وكذا، ثم إذا كشف الله عنه ما يكره ضنَّ بما نذر لأنَّ من ألبانها غذاؤه وكره عدم الوفاء، فاستبقى الغنم وذبح من الظباء التي يصيدها بعدد ما نذر من الغنم، وقال الظباء شاء كما أن الغنم شاء، فيجعل ذلـك القربان شاء كله ممَّا يصيد من الظباء .. قال الحارث بن حلزة:

عنتا بـاطلا وظلمـا كمـا تعـ ـتَرُ عَنْ حَجْرَةِ الـرَّبيضِ الظِّبـاءُ [1]

أمْ علينا جُنــاحُ كِنْـدَةَ أن يَغـ ـنَمَ غَـازِيُهمُ ومِنَّـا الجـزاءُ

وأصل «العتر» الذبح في رجب، وكانت العرب تنذره لآلهتها فيقول قائلهم: إن رزقني الله خمسين شاة ذبحت منها في رجـب واحـدة مثلاً، ويُسمَّى هذا الذبح «العتيرة» و«الرجيبة»، ومعنى البيتين: أنكم ألزمتمونا ذنب غيرنا عنتًا باطلاً كما يُذبح الظبي لحقٍّ وجب في الغنم.

وقال الرماح في تلك العتائر:

---

(١) العنت: الفساد، و«تعتر» تذبح، و«الحَجرة» بالفتح الناحية، والمراد بها هنا موضع الغنم، و«الربيض» الغنم برعاتها المجتمعة في مرابضها.

كَلَوْنِ الغَرِيِّ الفَرْدِ أجْسَدَ رأسَـــه   عَتَائرُ مظلومِ الهَديِّ المـــذبَّحِ[1]

وقال كعب بن زهير في رثاء جوى المزني وهي من أبيات الحماسة:

لِنَـــذْرِكَ وَالنُّـــذُورُ لَهَـــا وَفَـــاءُ   إذَا بَلَـــغَ الخزَايَـــةَ بَالِغُوهَـــا

كَأنَّكَ كُنـــتَ تَعلَـــمُ يَـــومَ بُـــزَّتْ   ثِيَابُكَ مَـــا سَـــيَلقَى سَـــالِبُوهَا[2]

فَمَا عَترُ الظِّبَـــاءِ بِحَـــيٍّ كَعـــبٍ   وَلاَ الخَمسُونَ قَصَـــرَ طَالِبُوهَـــا

والمعنى: إننا وفَّينا ولم نقنع في أخذ ثأرك بشيء يغني عمَّا نذرتـــه كمـــا تُذبح الظباء بدل الغنم.

وكان سبب هذه الأبيات أنَّ جويا المزني مرَّ على الأوس والخزرج وهم يقتتلون، والأوس حلفاء مزينة، فقاتل جوي مع حلفائه فأصيب، فمرَّ به ثابت بن المنذر بن حرام أبو حسان الشاعر فقال: أخـــا مزينـــة، مـــا طرحك هذا المطرح؟.. فوالله إنك من قومٍ ما يحمونك.

فرفع جوى رأسه إليه وهو يجود بنفسه فقال: «أُعطـــي الله عهـــدًا ليُقتلنَّ منكم خمسون ليس فيهم أعورٌ ولا أعرج» .. وبلغت كلمته قومـــه فوفوا له بما قال، فلذلك يقول الرماح:

---

(١) الغوي: الضَّال، ولعلَّه يريد به الصنم، و«الجسد» الدم اليابس والزعفران، وإذا قام الثوب من الصبغ قيل قد أجسد ثوب فلان، و«العتائر» الذبائح، وإضافة الذبائح لمظلـــوم إضـــافة بيانيـــة، و«الهدي» المذبَّح المظلوم هو الظباء المذبوحة بدل الشياه.

(٢) بزّت الثياب: سُلبت.

«ولا الخمسون قصر طالبوها»، ومن هذا الباب قولهم في المثل: «أفرع بالظبي وفي المعزى دثر» الباء في بالظبي زائدة، أي ذبح الظبي، و«في المعزى» كثرة .. يُضرب مثلاً لمن له إخوان كثيرون وهو يستعين بغيرهم.

مَا يَفعَلُونَهُ لِلمَوتَى:

نذكر في هذا الفصل عاداتهم التي منشؤها الشرائع السماوية كتحنيط الميت وتكفينه وغسله والمبالغة فيه بوضعهم في ماء الغسل سدرًا ونحوه، ثم نتبع ذلك تتميمًا للموضوع بما كان منشؤه المعتقدات الوهمية كوضع البلية على القبر يركبها الميت يوم البعث، وبما كان منشؤه الفخر والزَّهو كاتخاذ حرم للقبر وتعليه بنائه وغير ذلك.

نعي الموتى

قال الأصمعي: كانت العرب إذا مات فيهم ميت له قدر ركب راكب فرسًا وجعل يسير في الناس ويقول: نعاء فلانًا، أي انعه، وأظهر خبر وفاته، وهذا هو الناعي المراد بقول المتنخل الهذلي:

أَقُولُ لَمّا أَتاني الناعِيانِ بِهِ — لا يَبعَدِ الرُمحُ ذو النَصلَينِ وَالرَجُلُ

رُمحٌ لَنا كانَ لَم يُفلَل نَنوءُ بِهِ — توفى بِهِ الحَربُ وَالعَزّاءُ وَالجَلَلُ

وقيل في رثاء المنتشر:

---

(١) يبعد: بمعنى يهلك، و«الرمح» فاعل يبعد، و«النصل» حديدة الرمح الذي يطعن به، وهو السنان.

إنِّي أَتَتْنِي لِسَانٌ لاَ أُسَرُّ بِهَا ... مِنْ عُلُوٍّ لاَ عَجَبَ مِنهَا وَلاَ سَخَرَ[1]

فَظَلَّتُ مُكْتَئِبًا حَرَّانَ أَنْدُبُهُ ... وَكُنتُ ذَا حَذَرٍ لَوْ يَنفَعُ الحَذَرُ

فَجَاشَتْ النَّفسُ لَمَّا جَاءَ جَمْعُهُمُ ... وَرَاكِبٌ جَاءَ مِنْ تَثْلِيثِ مُعتَمِرُ[2]

يَأتِي عَلَى النَّاسِ لاَ يَلْوِي عَلَى ... حَتَّى الْتَقَينَا وَكَانَتْ دُونَنَا مُضَرُ

إنَّ الَّذِي جِئت مِنْ تَثْلِيثِ تَنْدُبُهُ ... مِنهُ السَّمَاحُ وَمِنهُ النَّهيُ وَالغِيَرُ

يَنعِي امْرًا لاَ تَغِبُ الحَيُّ جِفنَتُهُ ... إذَا الكَوَاكِبُ أَخطَأَ نُوءَهَا المَطَرُ

والغرض من اتخاذ الناعي الإعلام لينهض الناس بالواجب عليهم نحو هذه المصيبة ولتعزية أهل الميت.

غسل الميت:

كانوا يغسلون موتاهم في الجاهلية، قال الأفوه الأودي:

ألا عَلِّلانِي وَاعلَما أَنَّني غَرَرَ ... وَمَا خِلتُ يُجدِيني الشَّفاقُ وَلا

---

(١) اللسان: الرسالة، وأراد بها نعي المنتشر، و«سُخُر» بضمتين، والمعنى أتاني خبر من أعلى نجد لا أعجب منها وإن كانت عظيمة لأنَّ مصائب الدنيا كثيرة.

(٢) جاشت النفس: ارتفعت من حُزن أو فزع.

(٣) لا يلوي على أحد: أي لا يعرج.

(٤) النعي: خبر الموت، و«أغبت القوم جفنته» جاءتهم يومًا وتركت يومًا، و«النوء» سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق، والعرب كانت تنسب نزول المطر للنوء فتقول: مطرنا بنوء كذا.

(٥) الغر بالنفس التعريض للخطر، مصدر يراد به اسم المفعول.

وَما خِلتُ يُجديني أساتي وَقَد بَدَت مَفاصِلُ أوصالي وَقَد شَخَصَ[1]

وَجاءَ نِساءُ الحَيِّ مِن غَيرِ أَمرَةٍ زَفيفًا كَما زُفَّت إِلى العَطَنِ البَقَر

وفي «الأغاني» أنَّ أبا لهب لمَّا مات بـ«العدسة»[2] تركه ابناه ليلتين أو ثلاثة لا يدفنانه حتى انتنَّ في بيته، وكانت قريش تتَّقي العدسة كما تتقي الطاعون تخشى عدواها، حتى قال لهما رجل من قريش ويحكما ألا تستحيان أنَّ أباكما قد انتنَّ في بيته لا تغيبانه فقالا نخشى هذه القرحة قال: فانطلقا، فأنا معكما فما غسلوه إلاَّ قذفًا بالماء عليه من بعيد ما يمسونه، فاحتملوه فدفنوه بأعلى مكة.

وكانوا يضعون في ماء الغُسل ما يساعد على النظافة من سدر أو أشنان، ويغسلون بالسدر ونحوه رءوسهم ولحاهم، وشاهده قول أمريء القيس لما أخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفسًا من بني آكل المرار، فقدم بهم على المنذر فضرب رقابهم بحفر الأملاك في ديار بني مرين:

مُلُوكٌ مِنْ بَنِي حَجَرِ بنِ عَمرٍو يُسَاقُونَ العَشِيَّةَ يَقتُلُونَا

فَلَو فِي يَومِ مَعرَكَةٍ أُصِيبُوا ولَكِن فِي دِيَارِ بَنِي مَرِينَا

ولَمْ تُغسَل رُءوسَهُمْ بِسِدرٍ ولَكِن فِي الدِّمَاءِ مُزَمَّلِينَا[3]

وقد أقرَّهم الإسلام على ما كان عندهم من ذلك.

---

(١) الأوصال: المفاصل أو مجتمع العظام، و«شخص بصره» فتح عينيه وجعل لا يطرف.

(٢) العدسة: بثرة تقتل.

(٣) السدر: ورق النبق، وفي رواية «ولم تغسل جماجمهم بغسل»، و«تزمل» تلفف.

تَحنِيط المَيِّــت:

كانوا بعد غسل الميت يُحنطونه و«الحَنُوط» عطر مركَّب من أشـــياء طيبة الرائحة يُخلط للميت .. وذكروا أنَّ «منشما» كانت امرأة تبيع الحنوط في الجاهلية، فقيل للقوم إذا تحاربوا «دقُّوا بينهم عطر منشم» أرادوا بذلك «طيب الموتى»، ورُوِي أنَّ أول من طيب الموتى بالحنوط مقسم بن بهر القضاعي.

كفـن الميـت:

كانوا يُكفِّنون الميت[1]، وشاهده قول قس بن ساعدة الأيادي:

يَا نَاعِيَ المَوتَ وَالأَموَاتُ فِي جَـدَثٍ عَلَيهِم مِـن بَقَايَـا بـزِّهِم خِـرَقُ[2]

دَعهُم، فإنَّ لَهُم يَومًـا يُصَـاحُ بِهِـم كَمَـا يُنَبَّـهُ مِـن نَوْمَاتِـهِ الصَّـعِقُ

وقال عنترة العبسي:

وَأحمِي حِمَى قَومِي عَلَى طُولِ مُدَّتِي عَلَى أنْ يَرَونِي فِي اللَّفَائِفِ أُدْرَجُ[3]

وقال حجية بن المضرب يخاطب النعمان بن المنذر:

إن كانَ ما بُلِّغتَ عَنِّـي فَلامَنِـي صَدِيقِي وَحُـزَّت مِـن يَـدَيَّ الأَنَامِـلُ

وَكَفَّنْتُ وَحدِي مُنذِرًا فـي ثِيابِـهِ وَصادَفَ حَوطًا مِـن عَـدُوِّيَ قَاتِـلُ[4]

---

(١) الكفَن: لباس الميت.

(٢) الجدث: القبر، و«البز» الثياب.

(٣) اللفافة ما يلف به على الرجل وغيرها، جمعه «لفائف» يُراد بها هنا الكفن.

(٤) قوله: «وكفنت وحدي منذرا» أي: أكون غريبًا لا أجد معينًا: وقوله: «في ردائه» أي: لا أجد كفنًا يليق به، و«المنذر» أخو حجيه الشاعر و«حوط» ابنه، وبه يُكنى.

وسبب هذين البيتين أنَّ النعمان بن المنذر أغار على بني تميم فنذروا به ومعه بكر بن وائل والصنائع مع العرب، وكان فيمن كان معه حجيَّة بن المضرب، وكانت أخته فكيهة بنت المضرب تحتُ ضمرة بن ضمرة، فنذر بنو تميم بالنعمان فهزموه[1]، فاتَّهم النعمان حجية أن يكون أنذرهم فقال البيتين.

وكانوا يُكفنون الميت في ثوب ثمين النسيج إذا كان عظيمًا، وشاهده ما يُروى أنَّ دريد بن حرملة لمَّا قتل معاوية بن عمرو الشريد قدم أخوه صخر فأتى بني مرة فقال:

من قتل أخي؟

فقال له هاشم بن حرملة: إذا أصبتني أو دريدًا فقد أصبت ثارك.

قال: فهل كفنتموه؟

قالوا: نعم، في بردين، أحدهما بخمسٍ وعشرين بكرة.

قال: فأروني قبره .. فأروه إياه.

فلمَّا رأى القبر جزع عنده ثم قال: كأنكم قد أنكرتم ما رأيتم من جزعي، فوالله ما بتُّ مذ عقلت إلاَّ واترًا أو موتورًا أو طالبًا أو مطلوبًا حتى قُتل معاوية، فما ذقت مطعم نومٍ بعده.

وقال مهلهل بن ربيعة من رثاء أخيه كليب:

---

(١) نذر بالشيء كفرح علمه فحذره، و«أنذره بالأمر» أعلمه وحذره وخوفه في إبلاغه.

فَـــابكينَ سَـــيِّدَ قَومِـــهِ وَاندُبنَـــهُ   شُـــدَّت عَلَيـــهِ قَبــاطِيَ الأكفــانِ[1]

وقد جاء ذكر الحنوط وترجيل الشعر والكفن في شـعر يزيـد بـن حذاق، قال ابن قتيبة إنه أول من بكى على نفسه وذكر الموت في شـعره حيث قال:

هَل لِلفَتَى مِن بَنَاتِ الدَّهرِ مِن وَاقِي   أم هَل لَهُ مِن حِمامِ المَـوتِ مِـن
قَد رَجَّلوني وَمَا بالشَّعرِ من شَـعَثٍ   وَألبَسُـوني ثِيَابًـا غيـرَ أخْـلاقِ
وَطَيَّبُـوني وَقَـالُوا أيُّمَـا رَجُـلٍ   وَأدرَجُوني كَـأنِّي طَـيُّ مخْـرَاقِ
وَأرسَلوا فِتْيَةً مِن خيْـرِهِمْ حَسَـبًا   لِيُسنِدُوا فِي ضَرَيحِ القَبْرِ إطبَـاقِي
وَقَسَّمُوا المَالَ وَارفضَّت عَوَائِـدُهُم   وَقَالَ قَـائلُهُم مَـاتَ ابـنُ خَـذّاقِ
هَوِّن عَلَيـكَ وَلاَ تُولَـع بإشْـفَاقِ   فَإنَّمَـا مَالُنَـا لِلْـوَارِثِ البَـاقِي

وجاء الشرع الإسلامي فأقر تحنيط الميت وتكفينه وكره تسريح شعره.

الصلاة على الميت:

كانوا يصلون على موتاهم، وصلاتهم إذا مات الرجل وحُمل علـى سريرة أن يقوم وليه فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه .. قال رجـل مـن كلب في الجاهلية لابن ابنٍ له:

أعَمرُو إنْ هَلَكتَ وَكُنتُ حَيًّا   فَإنِّي مُكثِرٌ لَكَ مِـن صَـلاتِي

---

(١) القُبطية: بالضم وقد تكسر، ثياب من كتان تُنسج بمصر منسوبة إلى القبط على غير القيـاس كالدهري، جمعه قباطيّ بالتشديد وقباطي وبالتخفيف.

قيل: وأول من صلّى في الجاهلية على الميت عطيرة بن صعب.

ومن بليغ ما ورد من ذلك في الإسلام ما ذكره الحرمازي وغيره من أنَّ الأحنف بن قيس لمَّا مات بالكوفة أيام خرج مع مصعب بن الزبير إلى قتال المختار، فلما دُفن قامت امرأةٌ على قبره من بني منقر فقالت: «لله درُّك من مُجن في جنن ومُدرَج في كفن، فنسأل الذي فجعنا بموتك وابتلانا بفقدك أن يجعل سبيل الخير سبيلك ودليل الخير دليلك، وأن يوسِّع لك في قبرك ويغفر لك يوم حشرك».

ثم أقبلت بوجهها على الناس فقالت: معشر الناس، إنَّ أولياء الله في بلاده شهودٌ على عباده، وإنا قائلون حقًّا ومثنون صدقًا، وهو أهل لحسن الثناء وطيب الدعاء.

ثم أقبلت على القبر فقالت: أما والذي كنت من أجله في عدَّة، ومن الضمان إلى غاية، ومن الحياة إلى نهاية، الذي رفع عملك عند انقضاء أجلك؛ لقد عشت حميدًا مودودًا، ولقد متَّ فقيدًا سعيدًا، وإن كنت لعظيم السلم فاضل الحلم، وإن كنت من الرجال لشريفًا، وعلى الأرامل عطوفًا، وفي العشيرة مسودًا، وإلى الخلفاء موفدًا، ولقد كانوا لقولك مستمعين ولرأيك متبعين.

فقال الناس: ما سمعنا كلام امرأة أبلغ ولا أصدق معنًى منها.

سرير الميت:

كانوا يحملون الميت إما على «الحرج» وهو خشب يُشد بعضه إلى بعض .. قال امرؤ القيس:

فَإمّا تَرَيني في رِحالَةِ جابِرٍ   عَلى حَرَجٍ كَالقَرِّ تَخفُقُ أكفاني

وإمَّا على «النعش» وهو سرير الميت، وقيل النعش للمرأة والسرير للرجل .. ذكر ذلك ابن سيدة في «المخصَّص».

وعلى اختصاص المرأة بالنعش فأول امرأة حُملت في نعش زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ كما حكاه القلقشندى في «صبح الأعشى»، لكن جاء في كتاب «وفا الوفا بأخبار دار المصطفى» ما يقتضي أنَّ أول امرأة حملت في نعش هي فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وذلك أنها بعد وفاة أبيها كمدت سبعين يومًا وليلة، فقالت لأسماء بنت عميس:

إني لأستحي من جلالة جسمي إذا أُخرجت على الرجال غدًا.

وكانوا يحملون الرجال كما يحملون النساء، وقيل:

قالت: يا أسماء، إني قد استقبحت ما يُصنع بالنساء؛ إذ يُطرح على المرأة الثوب فيصفها.

قالت أسماء: يا ابنة رسول لله، ألا أُريك شيئا رأيته بأرض الحبشة؟

فدعت بجرائد رطبة فخنَّتها[١] ثم طرحت عليها ثوبًا، فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله!.. تُعرف به المرأة من الرجـل، فـإذا أنـا مـتُّ فاغسليني أنت وعلي، ولا تُدخلي عليّ أحدًا، فلما توفيت جاءت عائشـة تدخل فقالت أسماء: لا تدخلي، فشكت إلى أبي بكر قالت: هذه الخثعميـة تحول بيننا وبين بنت رسول الله وقد جعلت لها مثل هـودج العـروس، فجاء أبو بكر فوقف على الباب فقال: يا أسماء، ما حملك على أن منعت أزواج النبي ﷺ أن يدخلن على بنت رسول الله وقد جعلـت لهـا مثـل هودج العروس.

فقالت: أمرتني ألاَّ يدخل عليها أحد، وأريتها هذا الذي صنعت وهي حيَّـة فأمرتني أن أصنع ذلك لها.

قال أبو بكر: فاصنعي ما أمرتك، ثم انصرف، وغسلها عليٌّ وأسـماء[٢] رضي الله عنهما.

ورُوي أنَّ فاطمة لمَّا أرتها أسماء النعش تبسَّمت وما رؤيت متبسمة بعد موت النبي ﷺ إلاَّ يومئذ، واتُّخذ النعش بعد ذلك سُنة.

---

(١) الخنين هو ما دون الانتحاب من البكاء.

(٢) منعت الحنفية الزوج من تغسيل زوجته ومسها لا من النظر إليها، وأجازته الأئمة الثلاثـة، وحجتهم غسل علي لفاطمة، واحتجَّ الحنفية بقوله ﷺ: **«كلُّ سببٍ ونسبٍ ينقطع بالموت إلاَّ سببي ونسبي»**، مع أن بعض الصحابة أنكر ذلك على عليّ.

قال ابن عبد البر: **فاطمة أول من غُطّي نعشها من النساء في الإسلام على الصفة المذكورة في الخبر المتقدم، ثم بعدها زينب بنت جحش؛ صُنع بها ذلك،** وعلى ذلك فأوّلية زينب بنت جحش التي حكاها القلقشندي إنما هي بالنسبة لمن عدا فاطمة.

تشييع الجنازة:

فإذا وضعوا الميت على سريره حملوه وساروا به على القبر ..

قال حاتم الطائي:

فَاصْدُقْ حَدِيثَك إنَّ المَرءَ يَتبَعُهُ ... مَا كَانَ يَبنِي إذَا مَا نَعشُهُ حُمِلاَ

وقال الخنساء ترثي صخرًا:

وَقَائِلَةٍ وَالنَعشُ قَد فَاتَ خَطوَهَا ... لِتُدرِكَهُ يا لَهفَ نَفسي عَلى صَخرِ

ألا ثَكَلَت أُمُّ الَّذين مَشَوا بِهِ ... إلى القَبرِ ماذا يَحمِلونَ إِلى القَبرِ

وكانت تُحمل النيران في تشييع الجنازة وتتبعها النوائح، وقد نهى الإسلام عن ذلك لأنه من شعار الجاهلية، وقال عمرو بن العاص حين حضرته الوفاة من حديث له رواه مسلم في صحيحة: **فإذا أنا متُّ فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فسنوا على التراب سنًّا[1]، ثم أقيموا حولي قدر ما تُنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وانظر ماذا أراجع به رُسل ربي.**

---

(١) سن التراب: صبّه في سهوله.

قولهم للجنازة:

كانوا يقومون للجنازة ويقولون: «كنت في أهلك مـــا أنـــت مــرَّتين»، وشاهده ما رواه البخاري في صحيحة بسنده قال: أخبرني عمـــرو أنَّ عبـــد انرحمن بن القاسم حدَّثه أنَّ القاسم كان يمشي بين يدي الجنازة ولا يقوم لها .. ويخبر عن عائشة أنها قالت: كان أهلك في الجاهلية يقومون لها ويقولـــون إذا رأوها «كنت في أهلك ما أنت مرَّتين».

قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري:

أي: يقولون ذلك مرَّتين، و«ما» موصـــولة، وبعـــض الصـــلة محـــذوف، والتقدير «كنت في أهلك الذي كنت فيه»، أي الذي أنت فيه الآن، كنت في الحيـــاة مثله؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، بل كانوا يعتقدون أنَّ الرُّوح إذا خرجت تصير طيرًا، فإن كان ذلك من أهل الخير كان رُوحه من صالح الطير وإلاَّ فبالعكس.

ويُحتمل أن يكون قولهم هذا دعاءً للميت، ويحتمل أن تكـــون «مـــا» نافيه، ولفظ «مرَّتين» من تمام الكلام، أي : لا تكوني في أهلك مرَّتين، المرة الواحدة التي كنت فيهم انقضت وليست بعائدة إليهم مرة أُخرى.

ويُحتمل أن تكون «ما» استفهامية، أي: كنت في أهلك شـــريفة، فـــأيُّ شيء أنت الآن؟ يقولون ذلك حزنًا وتأسفًا عليه.

مقـابـرهـــم:

كانوا يحفرون لموتاهم قبورا أو لحودًا[١] يدفنونهم بها قال عنترة العبسي:

بِاللهِ مـــا بـــالُ الأحِبَّـــةِ أعرَضَـــت ... عنّا ورَامَت بِـــالفِراقِ صُـــدودَها

---

(١) القبر: مدفن الإنسان، و«اللحود» جمع لَحد بالفتح والضم، وهو الشق يكون في عرض القبر.

رَضِيَت مُصاحَبَةَ البِلى وَاِستَوطَنَت بَعدَ البُيوتِ قُبورَها ولُحودَها

وقال حاتم الطائي:

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها قبر

إذا أنا دلاني الذين أحبهم بملحودة زلخ جوانبها غير

وراحوا سراعا ينفضون أكفهم يقولون قد دمي أناملنا الحفر

ومن القبور ما يبني ومنه ما يجعل فوقه كومه من التراب وتوضع فوقها الحجارة لتدل على مكان القبر قال طرفة بن العبد:

أرى قَبرَ نَحّامٍ بَخيلٍ بِمالِهِ كَقَبرِ غَوِيٍّ في البَطالَةِ مُفسِدِ [(١)]

تَرى جُثوَتَينِ مِن تُرابٍ عَلَيهِما صَفائِحُ صُمٌّ مِن صَفيحٍ مُنَضَّدِ [(٢)]

وقال لبيد بن ربيعة العامري:

وَهَلْ هُوَ إلاَّ مَا ابْتَنَى فِي حَيَاتِهِ إذَا قَذَفُوا فَوقَ الضَّرِيحِ الجَنَادِلاَ

وقال دريد بن الصمة يرثي معاوية أخا الخنساء لما قتلته بنو مرة:

رَأَيتُ مَكانَهُ فَعَطَفتُ زَورًا وَأَيُّ مَكانِ زَورٍ يا اِبنَ بَكرِ

عَلى إِرَمٍ وَأَحجارٍ وَصيرٍ وَأَغصانٍ مِنَ السَلَماتِ سُمرِ [(٣)]

---

(١) النحام: البخيل و«الغوى» الضال، والبطالة ضد العمل.

(٢) جثوتين: تثنية «جثوة» بالتثليت، وهي الكومة من التراب وغيره، و«صفائح» جمع صفيحة، وهي حجارة عراض رقاق، و«منضد» مجعول بعضه فوق بعض.

(٣) الأرم: العلم، و«الصير» واحدة وهي خظيره الغنم.

وَبُنيـــانُ القُبـــورِ أتـــى عَلَيهـــا طَوالُ الدَهرِ مِـــن سَـــنَةٍ وَشَـــهرِ

وقال عمرو بن شاث الأسدي:

نُطَـــوِّفُ مـــا نُطَـــوِّفُ ثُـــمَّ يَـــأوي ذَوو نُطَوِّفُ ما نُطَوِّفُ ثُمَّ يَأوي

إِلـــى حُفَـــرٍ أَســـافِلُهُنَّ جـــوفٌ وَأَعلاهُـــنَّ صُـــفّاحٌ مُقـــيمُ (١)

وقالت الخنساء من قصيدة ترثي بها صخرًا:

فِي جَوفِ رَمسٍ مُقِيمٍ قَد تَضَـــمَّنَهُ فِي رَسمِه مُقمطـــرَاتٌ وَأحْجَـــارُ(٢)

وقال حسان بن ثابت:

نَفَرَت قَلوصي مِن حِجـــارَةِ حَـــرَّةٍ بُنِيَت عَلى طَلَقِ اليَدَينِ وَهـــوبِ (٣)

لا تَنفُـــري يـــا نـــاقَ مِنـــهُ فَإِنَّـــهُ شَرّابُ خَمـــرٍ مِســـعَرٌ لِحُـــروبِ (٤)

وإذا كان للميت منزلة وشرف بنوا على قبره قبةً أو بيتًا أو بنـــاءً مشرفا كأطمٍ من الآطام مباهاةً وفخرًا وتعاظمًا وزهوًا، فنهاهم النبي ﷺ .. وقال عدي بن ربيعة المعروف بالمهلهل التغلبي من قصيدة في رثـــاء كليب أخيه، وكانت على قبرة قبة رقيقة:

سَـــأَلتُ الحَـــيَّ أَيـــنَ دَفَنتُمـــوهُ فَقالوا لي بِسَفحِ الحَيِّ دارُ

---

(١) الجوف المطمئن من الأرض، و«الصفاح» حجارة عراض رقاق.

(٢) قال أبو عمرو: مقمطرات صخور عظام وأحجار صغار.

(٣) الحرة: بفتح الحاء أرض ذات حجارة نخرة سود.

(٤) المسعر: الذي كأنه آله في إيقاد الحروب.

فَسِرتُ إِلَيــهِ مِــن بَلَــدي حَثيثًــا وَطارَ النَومُ وَامتَنَعَ القَــرارُ
وَحادَت نــاقَتي عَــن ظِــلِّ قَبــرٍ ثَوى فيهِ المَكارِمُ وَالفَخــارُ

ومن ذلك ما رواه الأصبهاني في «الأغاني» عن الأصمعي وأبي عبيدة أنَّ رجلاً من غنى يقال له قيس الندامي وفد على أحد الملوك، وكان قيس سيدًا جوادًا، فلما حفل المجلس أقبل الملك على من حضره من وفود العرب وقال:

لأضعنَّ تاجي على أكرم رجل من العرب، فوضعه على رأس قيس وأعطاه ما شاء ونادمه مدَّة ثم أذن له في الانصراف إلى بلده، فلما قرب من بلاد طيء خرجوا إليه وهم لا يعرفونه فقتلوه، فلمَّا علموا أنه قيس ندموا لأيادٍ له كانت فيهم فدفنوه وبنوا عليه بيتًا!

وقد بنى المنذر الأكبر «الغريان»، وهما منارتان على قبري عمرو بن مسعود وخالد بن نضلة الأسديين.

وسنذكر خبرهما عند الكلام على العقر، وإذا كان الميت من النصارى وضعوا جثته في صندوق يُسمى «التابوت» ويُسمى «الأروان» أيضًا.

حمى القبر:

من عادتهم أن يجعلوا لقبر الشريف حمًى لا يُنتهك، حكى أبو عبيدة عن الحرمازي قال: لمَّا مات عامر بن الطفيل نصبت عليه بنو عامر أنصابًا ميلاً حمى على قبره، لا ينشر فيه ماشية ولا يرعى ولا يسلكه

راكب ولا ماش، وكان جبَّار[1] بن سلمى غائبًا، فلما قدم مرَّ بقبره فقال: ما هذه الأنصاب؟.. قالوا: نصبناها على قبر عامر، فقال: ضيَّقتم على أبي علي، وأفضلَهم منه فضلاً كثيرًا، ثم وقف على قبره وقال: أنعم صباحًا أبا علي، فو الله، لقد كنت تشنَّ الغارة وتحمي الجارة، سريعا إلى المولى بوعدك بطيئًا عنه بإبعادك، وكنت لا تضلُّ حتى يضلَّ النجم، ولا تعطش حتى يعطش البعير، ولا تجبن حتى يجبن السَّيل، وكنت والله خير ما كنت تكون حين لا تظن نفسٌ بنفسٍ خيرًا.

وعامر بن الطفيل هذا كان سيدًا شريفًا ينادي بسوق عكاظ ويقول: هل من راجلٍ فأحمله أو جائعٍ فأطعمه أو خائفٍ فأؤمنه؟.. وقد أدرك الإسلام وقدم على رسول الله ﷺ فوسَّده وسادة ثم قال: أسلم يا عامر، قال: على أنَّ لي الوبر ولك المدر، فأبى رسول الله ﷺ، فقام عامر مغضبًا فولَّى وقال: لأملأنَّها عليك خيلاً جردًا ورجالاً مردًا، ولأربطنَّ بكلِّ نخلةٍ فرسًا، فقال النبي ﷺ: «**اللهم اهدِ بني عامر واشغل عني عامر بن الطفيل بما شئت وكيف شئت وأنَّى شئت**»، فخرج عامر فأخذته غُدَّة مثل غدَّة البكر فآوى إلى بيت امرأة من بني سلول فجعل يثب وينزو في السماء ويقول: يا موت ابرز لي، غدَّة مثل غدة البعير وموت في بيت سلولية!

---

(١) كذا في «الكامل» للمبرد، وفي «مجمع الأمثال» أنه "حَبان" - بالحاء المهملة آخره نون - ابن سلمى بن عامر بن مالك.

نضح القبر بالخمر:

كانوا ينضحون قبر العزيز عندهم بالخمر .. قال نصر بن غالب:

أَصُبُّ عَلَى قَبرَيكُمَا مِن مُدَامَــةٍ ... فَألاَّ تَذُوقَاهَا تَروِ ثَرَاكُمَا

وقال حاتم يوصي امرأته بنضح الخمر على قبره:

أَمَاوِيُّ إمَّا مُتُّ فَاسْعِي بِنُطفَةٍ ... منَ الخَمرِ رِيًّا فَانضَحِنَّ بِهَا قَبرِي

السقيا للقبر:

وكانت العرب تحبُّ نزول المطر على القبور، وقد طلبت لها السقيا .. قال النابغة الذبياني من قصيدة يرثي بها النعمان بن الحارث بن أبـــي شـــمر الغساني:

سَقَى الغَيثُ قَبــرًا بَــينَ بُصــرى ... بِغَيثٍ مِنَ الوَسمِيِّ قَطرٌ وَوَابِــلُ [1]

وَلا زَالَ رَيحَــانٌ وَمِســكٌ وَعَنبَــرٌ ... عَلَى مُنتَهَاهُ ديمَةٌ ثُــمَّ هَاطِــلُ [2]

وَيُنبِــتُ حَوذَانًــا وَعَوفًــا مُنَــوِّرًا ... سَأُتبِعُهُ مِن خَيرِ مَا قَــالَ قَائِــلُ [3]

وقد أوصى المتلمس بذلك في قوله من قصيدة يرثي بها نفسه:

---

(١) بصرى وجاسم: موضعان بالشام، و«الوسمي» أول المطر لأنه يسم الأرض بالنبات.

(٢) وروى ابن الاعرابي: ريحان ومسك يثيره على منتواه، و«يثيره» أي يُهيِّج رائحته، ويذكيه، و«منتواه» موضع تباعده عن الأحياء، ومن روى «منتهاه» أراد قبره، لأنه الموضع الذي ينتهي إليه سعي الإنسان.

(٣) الحوذان والعرف: نباتان إلاَّ أنَّ «الحوذان» أطيب رائحة، وقوله «سأتبعه من خير ما قـــال قائل» أي سأثني عليه بأحسن القول.

خَلِيلَيَّ إمَّا مُتُّ يَومًا وَزُحْزِحَتْ مَنَايَاكُمَا فِيمَا يُزَحْزِحُهُ الدَّهرُ
فَمُرَّا عَلَى قَبرِي فَقُومَا فَسَلِّمَا وَقُولاَ سَقَاكَ الغَيثُ وَالقَطْرُ يَا قَبرُ

وقال مهلهل من قصيدة في رثاء أخيه كليب:

أجِبنِي يَا كُلَيبُ خَلاكَ ذَمٌّ لَقَدْ فُجِعَت بِفَارِسِهَا نِزَارُ
سَقَاكَ الغَيثُ أنَّكَ كُنتَ غَيثًا وَيُسرًا حِينَ يُلْتَمَسُ اليَسَارُ

والأشعار في هذا المعنى كثيرة مستفيضة، وقد اختُلف في سبب استسقائهم لها، فقال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي: **تدعو العرب للقبور بالسقيا ليكثر الخصب حولها فيقصد كلّ من مرَّ بها دعاء لها بالرَّحمة.**

وقال التبريزي في شرح الحماسة عند قول عكرشة العبسي من رثاء بنيه:

سَقَى اللهُ أجدَاثًا وَرَائِي تَركْتُهَا يُحَاضِرُ قِنسَرِينَ مِن سَبَلِ القَطرِ
مَضَوا لاَ يُرِيدُونَ الرَّوَاحَ وَغَالَهُم مِن الدَّهرِ أسبَابٌ جَرَينَ عَلَى قَدرِ
ولَو يَستَطِيعُونَ الرَّوَاحَ تَروَّحُوا مَعِي وَغَدَوا فِي المُصبِحِينَ عَلَى
لَعَمرِي لَقَد وَارَت وَضَمَّت قُبُورُهُم أكُفًّا شِدَادَ القَبضِ بِالأسَلِ السُّمرِ

والقصد من طلب السقيا لها أن تبقي عهودها غضَّة من الدروس طرية لا يتسلَّط عليها ما يزيل جدتها ونضارتها .. ألا ترى أنه لما أراد الشاعر ضد ذلك قال: «فلا سقاهن إلاَّ النار تضطرم».

وقال السهيلي عند قول كعب بن مالك في رثاء من قتل من الشهداء يوم موته:

---

(١) أي: تغدوا في صباح اليوم التالي على ظهر الأرض ولم يصيروا في بطنها مع الأموات.

صلَّى الإلَــهُ علَــيهِمْ مِــنْ فِتيَــةٍ   وَسَقَى عِظَامَهُم الغَمَــامُ المُســبِلُ

وقوله: «وسقى عظامهم الغمام المسبل» يردُّ قول من قال إنما استسقت العرب لقبور أحبتها لتخصب أرضها فلا يحتاجوا إلى الانتقال عنهــا لطلــب النجعة في البلاد.

وقال قاسم بن ثابت في «الدلائل»: فلهذا كعب يستسقي لعظــام الشــهداء بموته، وليس معهم .. وكذلك قول الآخر:

سَقَى مُطفِيَاتِ المَحلِّ جُــودًا وَدِيمَــةً   عِظَامُ ابنِ لَيلَى حَيــثُ كَــانَ رَمِيمُهَــا

فقوله: «حيث كان رميمها» يدلٌّ على أنه ليس مقيمًا معــه، وإنمــا استسقاؤهم لأهل القبور استرحام لهم؛ لأنَّ السُّقيا رحمة وضدّها عذاب.

وكانت العرب تزعم أنَّ المطر يسقي قبر أحد بني عبــد القــيس ونسله .. حكى ابن عبد ربِّه في كتاب النسب من «العقد الفريد» أنَّ رباب بن زيد بن عمرو بن جابر بن ضبيب، كان ممَّن وحَّد الله في الجاهليــة وسأل عنه النبي وفد عبد القيس وكان يسقي قبر كلٌّ من مات من ولــده وفي ذلك يقول الحجَّين بن عبد الله:

وَمنَّا الذي المَبْعوث يَعْرف نَسلَه   إذا ماتَ منهم مَيّتٌ جيد بالقَطْرِ

رِئــاب وأنِّــي للبرّيــة كلّهــا   بِمِثْلِ رِئاب حين يُخْطَر بالسُّمْرِ

وفي «المعارف» لابن قتيبة:

أرباب بن رئاب[1] هو من عبد القيس من شن، وكان على دين عيسى عليه السلام، وسمعوا قبل مبعث النبي ﷺ مناديًا ينادي خير أهل الأرض «ثلاثة رئاب: الشنى وبحيرا الراهب وآخر لم يأت بعد»، يريد النبي ﷺ .. وكان لا يموت أحدٌ من ولد أرباب فيدفن إلاَّ رأوا طشًا على قبره.

والطش: المطر الضعيف.

العقر على القبر ونضجه بالدماء:

كانوا يعقرون[2] على قبر العظيم أو السيد الشريف الخيلَ أو النوق وينضحون القبر بدمائها، وقد ذكر سبب عقرهم الإبل ابن السيد فيما كتبه على كامل المبرد فقال:

واختلف في سبب عقرهم الإبل على القبور؛ فقال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأةً للميت على ما كان يعقر من الإبل في حياته وينحره للأضياف، واحتجوا بقول زياد الأعجم:

وَانضَحْ جَوَانبُ قَبْرِهِ بِدِمَائِهَا ... فَلَقَد يَكُون أخَادِمَ وَذَبَائِحَ

وقد قال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك إعظامًا للميت كما كانوا يذبحون للأصنام، وقيل إنما كانوا يفعلونه لأنَّ الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت

---

(١) في السيرة الحلبية نقلاً عن ابن قتيبة أنَّ اسمه «رباب بن البراء».

(٢) عقر البعير بالسيف عقرًا من باب ضرب إذا ضرب قوائمه به لا يطلق العقر في غير القوائم، وربما قيل عقره إذا نُحر، كذا في المصباح.

فكأنهم يثأرون لهم منها، وقيل إنَّ الإبل أنفَس أموالهم، فكأنهم يريدون بذلك أنها قد هانت عليهم لعظم المصيبة.

نقل ذلك عنه البغدادي في «خزانة الأدب».

والشواهد على عقر الإبل والخيل كثيرة، من ذلك ما حكاه المبرد في الكامل أنَّ رجلا عربياً وقف على قبر النجاشي فترحَّم وقال: لولا أنَّ القول لا يحيط بما فيك والوصف يقصر دونك لأطنبت بل لأسهبت، ثم عقر ناقته على قبره وقال:

عَقرتُ عَلَى قَبرِ النَّجَاشِي نَاقَتِي ... بأبيَضِ عَضبِ أخلَصَتهُ صَيَاقِلُه

عَلَى قَبرِ مَن لَو أَنَّنِي مُتُّ قَبلَهُ ... لَهَانَتْ عَلَيهِ عِندَ قَبرِي رَوَاحِلُه

وقال جريبة بن الأشيم الفقعسي يوصي ابنه بأن يعقر على قبره:

فمنْ مبلغٌ عني يَسَارًا وَرَافعًا ... وَأَسلَمَ إنَّ الأَوهَنَين الأَقَاربُ

فَلاَ تَدفننِّى في ضرًا وادفنَنّنِي ... بِدَيمُومَةٍ تَنزُو عليَّ الجنَادبُ[1]

وَإنْ أنتَ لَم تَعقرْ عليَّ مُطيَتِي ... فَلاَ قَامَ فِي مَالٍ لَكَ الدَّهرَ حَالِبُ[2]

قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة:

وقد ذكرت في مجموعي المسمَّى بـ«العبقري الحسان» أنَّ أبا عبد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع رحمه الله ذكر في كتابه في آراء العرب

---

(١) الجندب: الجراد، جمعه «جنادب».

(٢) يدعو عليه بفقد ما يحلب من الشاء والإبل إذا لم يعقر مطيته.

وأدياتها هذه الأبيات، واستشهد بها على ما كانوا يعتقدون في البلية، وقلت إنه وهم في ذلك، وإنه ليس في هذه الأبيات دلالة على هذا المعنى ولا لها به تعلُّق، وإنما هي وصية لولده أن يعقر مطيته بعد موته، إمَّا لكي لا يركبها غيره بعده أو على هيئة القربان كالهدي المعقور بمكة أو كما كانوا يعقرون عند القبور.

ثم قال: ومذهبهم في العقر على القبور مشهور، وليس في هذا الشعر ما يدل على مذهبهم في البلية، فإن ظن ظانٌ أنَّ قوله «أو يفوز راكب» فيه إيماءً إلى ذلك فليس الأمر كما ظنَّه، ومعنى البيت «ادفني بفلاة جداء مقطوعة عن الإنس ليس بها إلاَّ الذئب والغراب أو أن يعتسف راكبها المفازة»، والمفازة هي المهلكة، سمَّوها «مفازة» على طريق الفأل، وقيل أنها تسمى مفازة من فوز أي هلك، فليس في البيت ذكر البلية، ولكنَّ الخالع اخطأ في إيراده في هذا الباب، كما أخطأ في هذا الباب أيضًا في إيراده قول مالك بن الريب:

وَعَرِّ قَلوصي في الرِّكابِ فَإِنَّها سَتَفلِقُ أكبادًا وتَبكي بَواكِيا

فظنَّ أنَّ ذلك من هذا الباب الذي نحن فيه، ولم يرد الشاعر ذلك، وإنما أراد «لا تركبوا راحلتي بعدي وعطلوها بحيث لا يشاهدها أعادي وأصدقي ذاهبةً جائيةً تحت راكبها فيشمت العدو ويساء الصديق».

ومن العقر على القبور ما ذكره أبو علي القالي في «الأمالي» قال: لما مات عمرو ابن حممة الدوسي، وكان واحد ممَّن يتحاكم إليه العرب،

مرَّ بقبره ثلاثة نفر من أهل يثرب قادمين من الشام وهم: الهدم بن امرئ القيس بن الحارث بن زيد أبو كلثوم ابن الهدم الذي نزل عليه النبي ﷺ، وعتيك بن قيس بن هيشة بن أمية بن معاوية، وحاطب بن قيس بن هيشة الذي كانت بسببه حرب حاطب؛ فعقروا رواحلهم على قبره، وقام الهدم فقال:

لقد ضَمَّتِ الأثـراءُ منـك مُـرزَّأ ... عظيمَ رَمَادِ النـارِ مُشْـتَرَكَ القِـدْرِ[1]

إذا قُلتَ لَم تَتـرُك مَقَـالاً لِقَائِـلٍ ... وإن صُلْتَ كنتَ اللَيْثَ تحمـي حِمَـى

حليمًا إذا ما الحِلمُ كـان حَزامَـةً ... وقوفًا إذا كان الوقوفُ على الجمـر[2]

ليبكيكَ من كانـت حياتُـك عِـزّهُ ... وأصبح لَمَّا مُتَّ يُغْضي على الصُّغْر[3]

سقى الأرضَ ذاتَ الطُول والعرض ... أحَمُّ الذرى واهي العُرى دائمُ القطْـر[4]

وما بِيَ سُقْيَا الأرضِ لكـنَّ تُرْبَـةً ... أضَلّكَ فـي أحشـائها مَلْحَـدُ القبْـر

وقام عتيك بن قيس فقال:

برَغْمِ العُـلاَ والجـودِ والمجـد ... طَوَاكَ الردَى يا خيـرَ حـافٍ وناعـلِ

لقد غالَ صَرْفُ الدهر منك مرزًّا ... نَهُوضًـا بأعبـاء الأمـور الأثاقـلِ

---

(١) الإثراء: جمع الثري، وهو التراب الندي، و«الرزيئة» المصيبة كالرُّزء.

(٢) الحزامة والحزم: ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة.

(٣) الصغر: خلاف العظم.

(٤) منجم: أي سحاب سريع المطر مديمه، و«الأحم» الأسود من كلّ شيء، و«الرَّحـى» وسـط الغيم ومعظمه ووسط الحرب ومعظمها.

يَضُمُّ العُفَــاةَ الطــارقين فِنَــاؤُهُ ... كما ضَمَّ أُمُّ الرأس شَــعْبُ القَبَائِــلِ[1]

ويَسْرُو دُجَــا الهَيْجــا مَضَــاءُ ... كما كَشَفَ الصــبحُ إطْــراقَ الغياطِــلِ

ويُستَهْزَمُ الجيشُ العَرَمْرَمُ باسمِهِ ... وإن كــان جَــرَّارًا كثيــرَ الصــواهلِ

فإمّا تُصِــبْنا الحادثــاتُ بنكْبَــةٍ ... رَمَتْكَ بها إحدى الــدواهي الضــآبلِ[2]

فلا تَبْعَدَنْ إنّ الحتــوفَ مــواردٌ ... وكلُّ فتى من صَــرْفها غيــرُ وائــلِ[3]

وقام حاطب بن قيس فقال:

سَلامٌ على القبــرِ الَّــذِي ضَــمَّ ... تَحُــومُ المعــالي نحــوه فتُسَــلِّمُ

سَلامٌ عَلَيــهِ كُلَّمــا ذَرَّ شَــارِقٌ ... وَمَا امتَدَّ قِطْعٌ مِن دُجَى اللَّيــلِ مُظْلِــمُ[4]

فَيَا قَبْرَ عَمرو جَاد أَرْضًا تَعَطَّفَتْ ... عليــك مُلِــثٌّ دائِــمُ القَطْــرِ مُــرْزِمُ[5]

تَضمَّنْتَ جسمًا طاب حَيًّا ومَيِّتًــا ... فَأَنْتَ بِمَا ضُــمِّنْتَ فــي الأَرضِ مُعْلَــمُ

فَلَو نَطَقَتْ أرضٌ لَقَــالَ تُرَابُهَــا ... إلَــى قَبــر عَمْــرِو الأزدِ حَــلَّ التَكَــرُّمُ

إلى مَرْمَسٍ قد حَلّ بين تُرَابِــهِ ... وَأَحجَــارِه بَــدْرٌ وأَضْــبَطُ ضَــيْغَمُ[6]

---

(١) العافي: الرائد والوارد والضيف وكل طالب فضل أو رزق، و«قبائل الرأس» واحدة قبيلة للقطع المشعوب بعضها إلى بعض.

(٢) الضآبل: الدواهي، واحدها ضئبل.

(٣) الوائل: طالب النجاة.

(٤) ذر: طلع.

(٥) المُلث: الصحاب، و«المرزم» الرعد الشديد صوته.

(٦) المرمس: القبر، و«الأضبط» و«الضيغم» اسمان للأسد.

فلا يُبْعِدنْكَ الله حَيًّا ومَيِّتًا فقَدْ كُنتَ نُورَ الخَطْبِ والخَطْبُ مُظْلِمُ
لَعمرُ الذي حُطَّتْ إليه على الْوَنَا حَدابيرُ عُوجٌ نيّهَا مُتَهَمّمُ[1]
لقد هَدَّمَ العلياءَ موتُكَ جانبًا وكَانَ قديمًا رُكْنُها لا يُهَدَّمُ

ومن العقر على القبور في الجاهلية عقر المنذر الأكبر على قبر عمرو بن مسعود وخالد بن نضلة الأسديَّين الإبل والخيل وطلاهما بالدماء، وقد بنى على قبرهما الغريان[2].

رُوي أنهما كانا يفدان على المنذر الأكبر في كلٍّ سنة فيُقيمان عنده وينادمانه، وكانت أسد وغطفان لا يدينون للملوك ويُغيرون عليهم فوفدا سنة من السنين، فقال المنذر لخالد يومًا وهم على الشراب: يا خالد، من ربّك؟ فقال خالد: عمرو بن مسعود ربي وربك.

فأمسك عنهما ثم قال لهما: ما يمنعكما من الدخول في طاعتي وأن تدنوا مني كما دنت تميم وربيعة؟

فقالا: أبيت اللعن، هذه البلاد لا تلائم مواشينا ونحن مع هذا قريب منك بهذا الرمل، فإذا شئت أجبناك .. فعلم أنهما لا يدخلان في حكمه، فأوحى إلى الساقي فسقاهما سُمًّا، فانصرفا من عنده بالسُّكر على خلاف ما كانا ينصرفان، فلما كان في بعض الليل أحسَّ حبيب بن خالد بالأمر

---

(١) الحدابير: جمع حدبار وهي المنحنية الظهر، و«النّي» الشحم، و«المتهمم» الذائب.

(٢) في القاموس الغري كغني البناء الجيد، ومنه «الغريان» بناءان مشهوران بالكوفة.

لِما رأى من شدَّة سكرهما، فنادى خالدًا فلم يجبه، فقام إليه فحرَّكه فسقط بعض جسده، وفعل بعمرو مثل ذلك، فكان حاله كحاله، وأصبح المنذر نادمًا على قتلهما، فإذا عليه حبيب بن خالد فقال: أبيت اللعن، أسعدك الأهل نديماك وخليلاك تتابعا في ساعة واحدة؟

فقال له: يا حبيب أعلى الموت تستعديني؟ وهل ترى إلا ابنا ميتا وأخا ميتا؟

ثم أمر فحُفر لهما قبران بظاهر الكوفة فدُفنا فيهما، وبنى عليهما منارتين فهما «الغريان»، وعقر على قبر كلٍّ خمسين فرسًا وخمسين بعيرًا وغراهما بدمائها، وجعل يوم نادمهما يوم نعيم ويوم دفنهما يوم بؤس.

ومن هذا الباب أيضًا ما حكاه الأصبهاني في الأغاني: إنَّ حسَّان بن ثابت لمَّا مرَّ بقبر ربيعة بن مكدم قال يعتذر لعدم عقر ناقته على قبره:

لا يَبعُدَنَّ رَبيعَةُ بنُ مُكَدَّمٍ	وَسَقى الغَوادي قَبرَهُ بِذُنوبِ[1]
نَفَرَت قَلوصي مِن حِجارَةِ حَرَّةٍ	بُنِيَت عَلى طَلقِ اليَدَينِ وَهوبِ
لا تَنفُري يا ناقَ مِنهُ فَإِنَّهُ	شَرّابُ خَمرٍ مِسعَرٌ لِحُروبِ[2]
لَولا السِفارُ وَبُعدُ خَرقٍ مَهمَهٍ	لَتَرَكتُها تَحبو عَلى العُرقوبِ

---

(١) الذنوب: الدلو العظيمة، وقيل لا تسمى ذنوبا حتى يكون فيها ماء، وقد استعاره للغيث، وربما جعل الذنوب في الحظ والنصيب.

(٢) المسعر، الذي كأنه آلة في إسعار الحرب.

فبلغ شعره بني كنانة فقالوا: والله لو عقرها لسُقنا إليه ألف ناقة سود الحدق، ولا عبرة لقول ابن عبد ربه في العقد الفريد «كان يُعقر على قبر ربيعة بن مكدم في الجاهلية ولم يُعقر على قبر أحد غيره» لِمَّا قدَّمناه، ومنه يظهر أنَّ العقر من سُنن الجاهلية وعاداتهم المستفيضة، ولمشابهته القربان الذي يقدم للأصنام نهى ﷺ عنه بقوله «لا عقر في الإسلام»، ولتأصُّل هذه العادة من نفوس العرب لم يجتنبها بعضهم في الإسلام، وشاهده قول أبي عمر وهلال بن العلاء الرقي: «وعقر في الجاهلية على قبر ربيعة بن مكدم وفي الإسلام على قبر المغيرة بن المهلب، عقر عليه كعب بن أبي ثور».

وقال زياد الأعجم يرثي المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة:

قُل لِلقَوَافِلِ وَالغُزَاةِ إذَا غَزَوْا ... وَالبَاكِرِينَ ولِلمَجِدِ الرَّائِح[1]

إنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ ضُمِّنَا ... قَبرًا بِمَرو عَلَى الطَّرِيقِ الوَاضِح

فَإذَا مَرَرتَ بِقَبرِهِ فَاعقِر بِهِ ... كَومَ الجلادِ وَكُلُّ طَرفٍ سَابِح

وَانضَح جَوَانِبَ قَبرِهِ بِدِمَائِهَا ... فَلَقَدْ يَكُونَ أَخَادِمٌ وَذَبَائِح[2]

يروون أنَّ زيادًا الأعجم أنشد المهلَّب هذه القصيدة،، فلما أتى على قوله:

فَإذَا مَرَرتَ بِقَبرِهِ فَاعقِر بِهِ ... كَومَ الجلادِ وَكُلَّ طَرفٍ سَابِح

---

(١) روى أبو الحسن: والغزاة إذا غزوا، جمع غاز، و«القوافل» جمع قافلة وهي الرفقة الراجعة من سفرها إلى وطنها.

(٢) النضح: الرش القليل.

قال له: مهلاً، عقرت عليه يا أبا إمامة فرسك، قال: إنـي كنـت علـى مُقرف، ولو كنت على عتيق[1] لفعلت .. فاستحسن قوله وقال لمن حضره من ولده ومواليه: لينفذ كلُّ واحدٍ منكم إلى زيادة فرسًا من خيله، فانصرف بعـدَّة أفراس.

ومن ذلك قول الفرزدق يرثي بشر بن مروان ويزعم أنه عقر فرسه على قبره من قصيدة أولها:

أعينَـيَّ إلاَّ تُسـعِدَاني أَلُمْكُمَـا ... وَمَا بَعدَ بِشرٍ مِنْ عَـزَاءٍ وَلاَ صَـبْرِ[2]

وَقَـلَّ جَـدَاءً عَبـرَةً تَسـفَحَانِهَا ... عَلَى أَنَّهَا تَشفِي الحَرَارَةَ فِي الصَّدرِ[3]

وَلَوْ أَنَّ قَومًا قَاتَلُوا المَوتَ قَبلَنَـا ... بِشَيءٍ لَقَاتَلـتُ المَنِيَّـةَ عَـن بِشـرِ

إلى أن قال في عَقر فرسه:

أَقـولُ لِمَحبـوكِ السَـراةِ كَأَنَّـهُ ... مِنَ الخَيلِ مَجنـونُ الإِطاقَـةِ وَالحُضـرِ

أَغَـرَّ صَـريحِيٍّ أَبـوهُ وَأُمُّـهُ ... طَويلٍ أَمَرَّتـهُ الجِيـادُ عَلـى شَـزرِ[4]

أَتَصهِلُ عِندي بَعدَ بِشرٍ وَلَـم تَـذُق ... ذُكـورَةَ قَطّـاعِ الضَـريبَةِ ذي أَثـرِ[5]

---

(١) المُقرف من الفرس وغيره: من أمّه عربية لا أبوه: و«الفرس العتيق» الكريم.

(٢) أسعده الله: أعانه.

(٣) الجداء: الثواب.

(٤) الصريح: فرس عبد يغوث بن حرب وآخر لبني نهشل وآخـر للخـم، و«أمرّتـه» فتلتـه، و«الشذر» فتل الحبل عن اليسار، والمعنى أنّ آباءه أورثته القوة.

(٥) المذكر من السيوف ذو الماء، و«الضريبة» حد السيف، و«الأثر» فرند السيف وهو ما يُرى فيه شبه غبار أو مدب نمل.

غَضِبتُ ولَم أملِك لِبِشرِ بِصارِمٍ على فَرَسي عِندَ الجَنازَةِ وَالقَبرِ (١)

حلفتُ لَهُ لاَ يَتبعُ الخَيلَ بَعدَهَا صَحِيحَ الشَّوَى حَتَّى تَكُوسَ مِن

أَلَستُ شَحيحًا إِن رَكِبتُكَ بَعدَهُ لِيَومَ رِهانٍ أو غَدَوتَ مَعي تَجرِي

وقال أبو عبيدة: دعوى الفرزدق أنه عقر فرسه على بشر بن مروان كذب، وكانوا يطعمون ما يُعقر للفقراء والمساكين، وقد أحسن بعض المحدثين في هذا المعنى فقال:

أَيُّهَا النَّاعِيَانِ مَن تَنعِيَانِ وَعَلَى مَنْ أَرَاكُمَا تَبكِيَانِ

اندُبَا المَاجِدَ الكَرِيمَ أَبَا إِسـ ـحَاقِ رَبَّ المَعرُوفِ وَالإِحسَانِ

وَاذهَبَا بِي إِنْ لَم يَكُن لَكُمَا عُـ ـقرٌ إِلَى جَنبِ قَبرِهِ فَاعقِرَانِي

وَانضَحَا مِن دَمِي عَلَيهِ فَقَدْ كَا نَ دَمِي مِن نَدَاهُ لَو تَعلَمَانِ

العقر للضيافة نيابة عن الميت:

كما كانوا يعقرون الإبل والخيل عند نزول الموت أشعارًا بأن أنفس أموالهم هانت عليهم لعظم المصيبة، كانوا يعقرون عند القبر إذا مروا به نيابة عن الميت في قرى الضيفان .. قال التبريزي في شرح الحماسة عند قول حسان بن ثابت:

لَولاَ السِّفَارُ وَبُعدُ قَفرِ مَهمَهٍ لَتَرَكتُهَا تَحبُو عَلَى عُرقُوبِ

---

(١) الجنازة: الميت.

(٢) الشوى: اليدان والرجلان والأطراف، و«كاس البعير» مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب.

كانت العادة في العرب أنَّ الواحد إذا اجتاز بقبر كريم كان مأوى للأضياف ينحر راحلته ويطعمها للناس إذا اعوزَّ الزاد ولم يتسع، يفعل ذلك نيابةً عنه إلاَّ أن يمنع مانع من بُعد سفر أو ما يجري مجراه، فصار هذا يعتذر من إبقائه على راحلته.

وقال في شرح قول جرير يرثي قيس بن ضرار بن القعقاع.

وَحَقٌ لِقَيسَ أن يُبَاحَ لَهُ الحمى وَأن تُعقَرَ الوَجنَاءُ إنْ خَفَّ زَادُهَا

وكان الواحد منهم إذا مرَّ بقبر رئيس وهو في صحبة أحبَّ أن ينوب عن المقبور في الضيافة، وإذا لم يساعده من الطعام ما يدعو الناس إليه عقر ناقته إكرامًا لذلك.

قال: وإن تُعقر الوجناء إن خفَّ زادها.

ثم قال: وذكر النمري ما يشبه هذا.

وردَّ عليه أبو محمد الإعرابي فقال:

إنَّ قوله «وإن تعقر الوجناء إن خفَّ زادها» مثل قول سعيد بن العاص بن أمية يرثي هشام بن المغيره:

ألاَ هَلَكَ المَأمُولُ وَهُوَ نَجِيبُ وَمَنْ هُوَ زَادُ الرَّكبِ حِينَ يَئُوبُ

فَإن لَم يَكُن زَادَ فَإنَّ قُصَارَهُ مِن المُفرَّهَاتِ صَعبَةٌ وَرَكُوبُ

ومن العقر على القبر للقرى ما ذكره المبرد في «الكامل» عن لهذم مكاتب لبني منقر حين طلع بمكاتبته فأتى قبر غالب فاستجار به، وأخذ منه حصيات فشدَّهن في عمامته، ثم أتى الفرزدق فأنشده:

بِقَبرِ ابنِ لَيلَى غَالِبِ عُذتُ بَعدَمَا خَشِيتُ الرَّدَى أَوْ أن أُرَدَّ عَلَى قَسرِ
بِقَبرِ امرِئٍ تُقرِي المَئِين عِظَامُهُ وَلَمْ يَكُ إلاَّ غَالِبًا مَيِّتٌ يُقرِي
فَقَالَ لِي استَقدِمْ أَمَامَكَ إنَّمَا فَكَأنَّكَ أَنْ تَلقَى الفَرَزدَقَ بِالمَصرِ

قال المبرد: يريد بقوله «تقري المئين عظامه» إنهم كانوا ينحرون الإبل عند قبور عظمائهم فيطعمون الناس في الحياة وبعد الممات، وهذا معروف في أشعارهم.

اتخاذ البليَّة:

وقد كان من مذهبهم في الجاهلية «اتخاذ البلية»، وهي ناقة تُعقل عند قبر صاحبها إذا مات حتى تموت جوعًا وعطشًا.

وذكر البلية مطرود بن كعب الخزاعي من قصيدة يرثي بها المطلب وبني عبد مناف جميعًا حين أتاه نعي نوفل بن عبد مناف في قوله:

يَا عَينُ فَابكِي أَبَا الشَّعثِ الشَّجِيَّات يَبكِينَهُ حَسرًا مِثلَ البَلِيَّات[1]
يَبكِينَ أكرَمَ مَن يَمشِي عَلَى قَدَمٍ يَعُولنَهُ بِدُمُوعٍ بَعدَ عَبَرَاتِ

وقد بيَّن مذهبهم في ذلك ابن أبي الحديد فقال: والبلية أنهم إذا مات منهم كريمٌ بلوا ناقته أو بعيره فعكسوا عنقها وأداروا رأسها إلى مؤخِّرها وتركوها في حفيرة لا تطعم ولا تسقي حتى تموت، وربما أحرقت بعد موتها وربما سلخت وملئ جلدها ثمامًا، وكانوا يزعمون أنَّ من مات ولم يبل عليه حُشِر ماشيًا، ومن كانت له بلية حُشر راكبًا على بليته.

---

(١) البليات: جمع بلية.

وقد ذكر القلقشندي في «صبح الأعشى»: إنَّ العرب كانت تشدُّ ناقة الميت إلى قبره ويُقبلون برأسها إلى ورائها ويُغطون رأسها بـ"ولية" وهي البرذعة، فإذا أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى، ويزعمون أنهم إذا فعلوا ذلك حُشرت معه إلى المعاد ليركبها.

وقد قال أبو زيد في تشبيه رجال بالبلايا:

كَالبَلاَيَا رُءُوسُهَا فِي الوَلاَيَا مَانِحَاتِ السَّمُومِ حَرَّ الخُدُود

والولايا البراذع، وكانوا يقوِّرون البرذعة ويُدخلونها في عنق تلك الناقة، وقال الشهرستاني:

كانوا يربطون الناقة معكوسة الرأس إلى مؤخرها ممَّا يلي ظهرها أو مما يلي كلكلها أو بطنها، ويأخذون ولية فيشدون وسطها ويقلدونها عنق الناقة ويتركونها كذلك حتى تموت عند القبر.

وكان لا يتخذ البلية من لا يؤمن بالبعث، وقال جريبة بن الأشيم الفقعسي يوصي ابنه بالبلية:

يَا سَعدُ أمَا أهلَكنَ فَإنَّنِي أُوصِيكَ أنَّ أخَا الوُصَاةِ الأقرَبُ

لاَ تَترُكَنَّ أبَاكَ يَسعَى خَلفَهُم تَعَبًا يَخرُّ عَلَى اليَدَينِ وَيَنكُبُ

وَاحمِلِ أبَاكَ عَلَى بَعِيرٍ صَالِحٍ يَومَ القِيَامَةِ إنَّ ذَلِكَ أَصوَبُ[1]

وَلَعَلَّ لِي مِمَّا جَمعتَ مُطَيَّةً فِي الحَشرِ أركَبُهَا إذَا قِيلَ

وقال عويمر النبهاني يوصي ابنه أيضًا:

---

(١) رواية: «وتق الخطيئة أنه هو أصوب».

أبُنَـــيّ لاَ تَـــنسَ البَلِيَّـــةَ إنَّهَـــا لأَبِيــكَ يَــومَ نُشُــورِهِ مَركُــوبُ

وقال عمرو بن زيد المتمني يوصي ابنه عند موته بالبلية:

أبُنَـــيّ زَوِّدنِــــي إذَا فَـــارَقتَنِي فِي القَبرِ رَاحِلَةً بِرَحلٍ قَـــاتِرِ[١]

لِلبَعثِ أركَبُهَا إذَا قِيلَ اظْعَنُـــوا[٢] مُستَوثِقِينَ مَعًا لِحَشرِ الحَاشِـــرِ

من لاَ يُوَافِيــهِ عَلَـــى عَثَرَاتِــهِ فَالخَلقُ بَينَ مُـــدفِعٍ أو عَـــاثِرِ

وقال أبو العلا المعري في «رسالة الغفران»: وقد كانوا فـــي الجاهليـــة يكسعون ناقة الميت على قبره ويزعمون أنه إذا نـهض لحشره وجـــدها قد بُعثت له فيركبها، فليته لا ينهض بثقلة منكبهـــا، وهيهـــات .. بـــل حُشروا عراةً حفاة.

قـولـهـم لـلـمـيـت «لا تـبـعـد»:

كان من عادتهم الدعاء للميت بقـــولهم «لا تبعـــد»، وقـــد كثـــرت أشعارهم في هذا .. قال أعشى بأهله من قصيدة في رثاء المنتشـــر بـــن وهب البأهلي:

فَاذْهَبْ فَلاَ يُبْعِدَنْكَ اللهُ مِنْ رَجُلٍ فَقَدْ تَرَكْتَ رَقِيقًا عَظْمُهُ وَصِبا[٣]

وقال أم عمرو ترثي ربيعة أخاها:

---

(١) القاتر: من الرجال أو السروج الجيد الوقوع على الظهر أو اللطيف منها الذي يقي الظهر ولا يعقره.

(٢) رواية: «للبعث أركبها إذا قيل اركبوا».

(٣) يقال: بَعُـــدَ بُعـــدًا: إذا هلك.

فَاذْهَبْ فَلاَ يُبْعِدَنْكَ اللهُ مِنْ رَجُـلٍ لاَقَى الَّـذي كُـلُّ حَـيٍّ مِثْلُـهُ لاَقِ

وقالت الخنساء من رثاء لأخيها:

فَاذْهَبْ فَلاَ يُبْعِدَنْكَ اللهُ مِنْ رَجُلٍ مَنَّـاعِ ضَـيمٍ وَطَـلاَّبٍ بِأَوْتَـارِ

وقال السموأل:

يَا لَيتَ شِعرِي حِـينَ أنـدُبُ هَالِكًـا مَاذَا يُؤَبِّنُنِي بِهِ أَنْـوَاحِي

أَيقُلْـنَ لاَ تَبعُـدْ فَـرُبَّ كَرِيهَـةٍ فَرَّجتَهَا بِشَجَاعَةٍ وَسَـمَاحِ

وقال مخارق بن شهاب أحد بني خزاعي بن مالك بن عمرو بن تميم:

كَمْ شَامِتٌ بِي إنْ هَلَكتُ وَقَائِـلٍ لاَ يُبعِدَنَّ مَخَارِقُ بنِ شِـهَابِ

المُشْتَرِي حُسنَ الثَّنَـاءِ بِمَالِـهِ وَالمَالِئُ الجَفَنَاتِ لِلأَصـحَابِ

وقال عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب:

عند قول الخرنق بنت هفان من قصيدة رثت بها زوجها بشر بن عمرو بن مرثد الضبعي وابنها علقمة بن بشر وأخويه حسان وشرحبيل ومن قتل معه من قومه في يوم قلاب:

لا يَبعَدَن قَومي الَّذينَ هُـمُ سُمُّ العُداةِ وَآفَـةُ الجُـزرِ[1]

النَّـازِلونَ بِكُـلِّ مُعتَـرَكٍ وَالطَيِّبُـونَ مَعاقِـدَ الأُزرِ[1]

---

(١) العداة: الأعداء جمع عاد، و«الآفة» العلة، و«الجزر» بضم فسكون جمع «جزور» والأصل بضمتين كرسول ورسل، فسكن الثاني تخفيفا، و«الجزور» هي الناقة التي تُنحر، فإن كانت من الغنم فهي جَزَرة بفتحتين، وصفتهم أولاً: بالشجاعة والنجدة أنهم يقتلون أعداءهم كما يقتلهم السم، وثانيًا: بالكرم ونحر الإبل للأضياف، فكأنهم آفة للأبل تصيبها فتهلكها.

وقال ابن السيد في شرح أبيات أجمل:

فإن قيل كيف دعت لقومها بألاَّ يُهلكوا وهم قد هُلكوا فالجواب أنَّ العرب قد جرت عادتهم باستعمال هذه اللفظة في الدعاء للميت، ولهم في ذلك غرضان:

الأول: إنهم يريدون به استعظام موت الرجل الجليل، وكأنهم لا يصدقون بموته وقد بيَّن هذا المعنى زهير بن أبي سلمى بقوله:

يَقولونَ حِصنٌ ثُمَّ تَأبَى نُفوسُهُم   وَكَيفَ بِحِصنٍ وَالجِبالُ جُموحُ

ولَم تَلفِظِ المَوتى القُبورُ ولَم تَزَل   نُجومُ السَماءِ وَالأَديمُ صَحيحُ

يريد أنهم يقولون مات حصن ثم يستعظمون أن ينطقوا بذلك ويقولون كيف يجوز أن يموت والجبال لم تُنسف والنجوم لم تنكدر والقبور لم تخرج موتاها وجرم العالم صحيح لم يحدث فيه حادث؟!

والغرض الثاني: إنهم يريدون الدعاء له بأن يبقى ذكره ولا يذهب؛ لأنَّ بقاء ذكر الإنسان بعد موته بمنزلة حياته، ألا ترى إلى قول الشاعر:

---

(١) تعني بقولها «النازلين بكلِّ معترك» أنهم ينزلون عن الخيل عند ضيق المعترك فيقاتلون على أقدامهم، وفي ذلك الوقت يتداعون نزال، وتعني بقولها «والطيبون معاقد الأزر» أنهم أعفاء في فروجهم لأنَّ العرب تكني بالشيء عما يحويه أو يشتمل عليه، و«المعاقد» أما جمع معقِد بكسر القاف وهو موضع العقد، وإما جمع معقَد بفتح القاف وهو مصدر ميمي .. قال اللخمي = «المعاقد» الحجز، والحجزة هي حيث يثني طرف الإزار في لوث الإزار، أي طيه .. و«الأُزر» جمع إزار، وسُكِّن تخفيفًا، والأصل ضمها، و«الإزار» عند العرب ما ستر النصف الأسفل من الإنسان و«الرداء» ما ستر النصف الأعلى منه، والعرب لا تكاد تلبس إلاَّ الأزر، ولبس السراويل عندهم نادر، يُروى أنَّ إعرابيا مرَّ بسراويل ملقاة فظنها قميصا فادخل يديه في ساقيها وأدخل رأسه فلم يجد منفذا فقال ما أظن هذا إلاَّ من قمص الشياطين!

فَـــاثْنُوا عَلَيْنَـــا لاَ أَبَـــا لأَبِـــيكُمُ بِأَفعَالِنَـــا إنَّ الثَّنَـــاءَ هُـــوَ الخُلْـــدُ

وقال آخر يرثي يزيد بن يزيد الشيباني:

فَإِنْ تَكُ أَفْنَتـــهُ اللَّيَـــالِي فَأَوشَـــكَت فَإِنَّ لَـــهُ ذِكـــرًا سَـــيُفْنِي اللَّيَالِيَـــا

وقد بيَّن مالك بن الريب المزني ما في هذا المعنى من المحال فقال من قصيدة:

يَقولونَ لا تَبعُـــد وَهُـــم يَـــدفِنونَني وَأَينَ مَكـــانُ البُعـــدِ إِلاَّ مَكانِيـــا

هذا وممَّن لم يجد في هذا المعنى غناء الضرار السلمي فقال:

وكَتِيبَـــــةٍ لَبَّسْـــــتُها بكَتِيبَـــــةٍ حتَّى إِذا الْتَبَسَتْ نَفَضْتُ لَها يَـــدِي

فَتَرَكْتُهُمْ تَقِصُ الرِّمَـــاحُ ظُهُـــورَهُم مِنْ بَيْنِ مُنْعَفِـــرٍ وآخَـــرَ مُسْـــنَدِ

مَا كـــانَ يَنْفَعُنِـــي مَقَـــالُ نِسـائِهِمْ وقُتِلْتُ دُونَ رِجالِهـــا: لا تَبْعَـــد[١]

ومثله قول الشاعر:

يَقُولُونَ لاَ تَبعُدْ وَمَن يَـــكُ مُســـدِلاً عَلَى وَجهِهِ سِترًا مِنَ الأَرضِ يَبعُدُ

وقال قراد بن غوية بن سلمى بن ربيعة بن زبان:

أَلاَ لَيتَ شِعرِي مَا يُقُولَنَّ مخـــارِقُ إِذَا جَاوَبَ الهَامُ المُصِـــيحُ هـــامتي[٢]

وَدُلِّيتُ فِي زَورَاءَ يُسفِي تُرَابَهَـــا عَلَى طَوِيلاً فِـــي ذُرَاهَـــا إِقَـــامَتِي[٣]

وَقَـــالُوا أَلاَ لاَ يَبعُـــدَنَّ اخْتِيَالُـــهُ وَصَـــولَتُهُ إِذَا القُـــرُومِ تَسَـــامَتِ[١]

---

(١) في رواية: «وقتلت بين».

(٢) معنى البيت: جاوب صداه صداهم على عادتهم فيما كانوا يقولون إنَّ عظام المـــوتى تصـــير أصداء وهامًا.

(٣) أي أرسلت في حفرة معوجة، يعني اللحد، و«يسفي ترابها» أي يُهال ترابها.

وَمَا البُعدُ إلاَّ أنْ يَكُونَ مَغِيبًا عَنِ النَّاسِ مِنِّي نَجدَتِي وقسامتي[٢]

مُعتَقَدَاتُهُم الدِّينيَّة:

نبدأ هذا الفصل باعتقادهم في الله تعالى فنقول:

قد آمن به أصحاب الأديان السماوية من العرب كما آمن به عبدة الأوثان منهم، وإنما حجُّوا للأصنام وقرَّبوا لها القرابين ونذروا لها النذور زعمًا منهم أنها تشفَع لهم عند الله فقالوا: «**مَا نَعبُدُهُم إلاَّ لِيَقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلفَى**»، قال تعالى:﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ ..

فكان كفرهم بخضوعهم لها الخضوع التام واحترامهم إياها أعظم الاحترام؛ لأنَّ الله خصَّ نفسه بغاية التعظيم، ولم يرضَ الوساطة بينه وبين عباده، لأنه قريبٌ يجيب دعوة الداعِ إذا دعاه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد .. ومن العرب من أنكر وجود الله.

وحكى الشهرستاني مذهبهم فقال:

وصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المجيء والدهر المفني وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنيَا نَمُوتُ وَنَحيَا وَمَا يُهلِكُنَا إلاَّ الدَّهر﴾.

---

(١) اختياله: إذلاله وتجبُره، و«القروم» الفحول، ويريد بـ«تسامت القروم» تنازلت.

(٢) القسامة: الحسن ويروي مكانها بسالتي أي نجدتي وشجاعتي.

إشارة إلى الطبائع المحسوسة وقصر الحياة والموت على تركبها وتحلُّلها فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر «**وَمَا يُهلِكُنَا إلاَّ الدَّهرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلمٍ إنْ هُم إلاَّ يَظُنُّون**»، فاستدلَّ عليهم بضرورات فكرية وآيات قرآنية فطرية في كم آية وكم سورة فقال تعالى:

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِنْ جُنَّةٍ إنْ هُوَ إلاَّ نَذِيرٌ مُبِين﴾

وقال: **﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرض وَمَا خَلَقَ الله﴾**.

وقال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُم﴾**.

فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق عن الخالق فإنه قادر على الكمال أبداء وإعادة.

الأنبيَاء والرُّسُل الكرَام:

قد آمن كلُّ أهل دينٍ سماويٍّ بالأنبياء والمرسلين الذين ذكرهم نبيهم أو أخبر عنهم كتابهم، أمَّا الدَّهريون الذين أنكروا الخالق فأنكروا الأنبياء والمرسلين كما أنكرهم عبَّاد الأصنام، وقالوا: «**مَا لِهَذَا الرَّسُولُ يَأكُلُ الطَّعَامَ وَيَمشِي فِي الأَسوَاق**» إلى قوله:

«**إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَسحُورًا**».

قال الشهرستاني: وكان إنكارهم لبعث الرسول في الصورة البشرية أشدَّ وإصرارهم على ذلك أبلغ، وأخبر عنهم التنزيل:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً﴾.

أبشر يهدوننا؟.. فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتي مَلَك من السماء: ﴿ وَقَالُوا لَولاَ أُنزِلَ عَلَيهِ مَلَك﴾.

ومن كان لا يعترف بهم كان يقول الشفيع والوسيلة منا على الله تعالى هم الأنصاب المنصوبة، أمَّا الأمر والشريعة من الله إلينا فهو المنكر، فيعبدون الأصنام التي هي الوسائل.

البَعث وَالحِسَاب:

اختلف اعتقاد العرب في البعث اختلافًا كثيرًا فأكثر عباد الأصنام الذين تقرَّبوا لله بعبادتها أنكروا بعث الأجساد مع إقرارهم بالخالق وابتداء الخلق والإبداع فقالوا:

«أَئِذَا مِتنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبعُوثُونَ؟.. أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ؟»

وقال تعالى فيهم:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلقَه قَالَ مَن يُحيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيم﴾.

وقد استدلَّ الله تعالى عليهم بالنشأة الأولى لاعترافهم بها فقال:

﴿قُل يُحيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَة﴾.

وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالخَلقِ الأَوَّلِ بَل هُم فِي لَبسٍ مِنْ خَلقٍ جَدِيد﴾.

ومن أشعارهم الدالة على إنكار البعث قول بعضهم:

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوتٌ ثُمَّ نَشر حَدِيثُ خُرَافَةٍ يَا أمَّ عَمرُو

وقال شداد بن الأسود الليثي يرثي قتلى بدر من المشركين ويتهكّم بما أنزل على سيدنا محمد:

أَلاَ مَن مُبلِغُ الرَّحمَنَ عَنِّي بِأنِّي تَارِكٌ شَهرِ الصِّيَامِ

إِذَا مَا الرَّأسُ زَايَلَ مَنكِبَيهِ فَقَد شَبِعَ الأَنِيسُ مِنَ الطَّعَامِ

تَوَعَّدَنَا ابنُ كَبشَةَ أنْ سَنَحيَا وَكَيفَ حَيَاةَ أَصدَاءٍ وَهَامِ[1]

أتترك أن ترد الموت عني وتحييني إذا بليت عظامي

ومنهم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وعرض الأعمال يومئذ للحساب بقية فيهم من الأديان السماوية، وقال أعشى قيس في ذلك:

وَمَا أَيبُلِيٌّ عَلَى هَيكَلٍ بَنَاهُ وَصَلَّبَ فِيهِ وَصَارا[2]

يُرَاوِحُ مِن صَلَوَاتِ المَلِيـ ـكِ طَورًا سُجودًا وَطَورًا جُؤارا[3]

بِأَعظَمَ مِنهُ تُقىً فِي الحِسَابِ إِذَا النَسَمَاتُ نَفَضنَ الغُبَارا[4]

وقال حاتم الطائي في البعث واستئثاره تعالى بعلم الغيب:

أَما وَالَّذي لا يَعلَمُ الغَيبَ غَيرُهُ وَيُحيِ العِظَامَ البيضَ وَهِيَ رَمِيمُ

---

(١) يُرِيدُ بِابنِ كَبشَةَ سَيدَنَا مُحمَّدًا رَسُولَ الله.

(٢) أيبلي: الراهب، و«الهيكل» بيت النصارى فيه صورة مريم وديرهم، و«صلب» اتخذ صليبا.

(٣) الجؤار: رفع الصوت بالدعاء.

(٤) النَّسمة: الإنسان جمعه «نَسَمَات».

لَقَد كُنتُ أطوي البَطنَ وَالزادُ يُشتَهى مَخافَـــــةَ أن يُقـــــالَ لئـــــيمُ

وقال حاتم أيضًا:

وَإِنّـــي وَإن طـــالَ الثَّـــواءُ لَمَيِّـــتٌ وَيَعظِمُني ماوِيَّ بَيـــتٌ مُسَـــقَّفُ(١)

وَإِنّي لَمَجـــزِيٌّ بِمـــا أنـــا كاسِـــبٌ وَكُلُّ امرِئٍ رَهنٌ بِما هُـــوَ مُتلِـــفُ

وقال قس بن ساعدة الأيادي في البعث وكان ممن يعتقد التوحيد:

يَا نَاعِيَ المَوتَ وَالأَمواتُ فِي جَدَثٍ عَلَيهِم مِن بَقَايَـا بَـزِّهِم خِـرَقُ(٢)

دَعهُم، فإنَّ لَهُم يَومًا يُصَـاحُ بِهِـم كَمَا يُنَبَّهُ مِـن نَوْمَاتِـهِ الصَّـعِقُ

حَتّى يَعودوا بِحـالٍ غَيـرِ حـالِهِم خَلقًا جَديدًا كَما مِن قَبلِهـا خُلِقـوا

مِنهُم عُـراةٌ وَمِـنهُم فـي ثِيـابِهِم مِنها الجَديدُ وَمِنها المَنهَجُ الخَلَـقُ

وهو القائل في وصية له: كلاً وربّ الكعبة، ليعودنّ ما باد، ولئن ذهب ليعودن يومًا.

وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

فَلَنْ تَكُونَ لِنَفسِـي مِنـكَ وَاقِيَـةٌ يَومَ الحِسَابِ إذَا مَا يُجمَعُ البَشَـرُ

وقال علان بن شهاب التميمي:

وَعَلِمـتُ أنَّ اللهَ جَـازَ عَبـدَهُ يَومَ الحِسَـابِ بِأَحسَـنِ الأَعمَـالِ

---

(١) يعظمني من عظمه عظمة ضرب عظامه.

(٢) الجدث: القبر، و«البز» الثياب.

ومن المؤمنين بالبعث عبد الله بن تغلب بن وبرة وعبد المطلب بـن هاشم، وكان يقول إنه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منـه، إلاَّ أنه حدث أن هلك رجل ظلوم دون أن تصبه عقوبة، فقيل له في ذلـك ففكَّر ثم قال:

والله إنَّ وراء هذه الدار دارًا يُجزَى فيها المُحسن بإحسانه والمُسيء يُعاقَب بإساءته.

ومنهم عامر بن الظرب العدواني حكيم العرب القائل من وصايا له: إني ما رأيت شيئًا قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعًا إلاَّ مصنوعًا، ولا جائيًا إلاَّ ذاهبًا، ولو كان يُميت الناس الداء لأحياهم الدواء، ثم قال: إنـي أرى أمورًا شتى، وحتى قيل له: حتى ماذا؟

قال: حتى يرجع الميت حيًّا ويعود ما ليس بشيء شيئًا؛ ولـذلك خُلقت السماوات والأرض، فتولَّوا عنه ذاهبين.

فقال: ويل أمها نصيحة لو كان من يقبلها.

كتابة الأعمال:

اعتقد بعضهم بكتابة الأعمال في هذه الدار وعرضها يوم البعـث، فهذا زهير بن أبي سلمي كان يمرُّ بالعضاة، وقد أورقت بعد مـا يبست فيقول: لولا أن يسبَّني العرب لآمنت بأنَّ الذي أحيا الأرض بعـد يبسـها سيُحيي العظام وهي رميم،أي لأعلنت هذا المعتقد ثم جهر به فقال:

فَلاَ تُكتِمَنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُم لِيَخفَى وَمَهمَا يُكتَمُ اللهُ يَعلَمُ

يُؤخَر فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخرِ   لِيَوم الحِسَابِ أو يَعجُل فَيُنقَمُ

ومعنى البيتين أنَّ الله لا تخفى عليه خافية فلا تضمروا الغدر فيرقمه الله في كتاب ويؤخِر العقاب ليوم الحساب أو يُعجله في الدنيا فينتقم من الغادر.

الإيمان بالقدر:

كانت العرب في الجاهلية تعتقد أنَّ الله قدَّر جميع الممكنات من خيرٍ أو شرٍّ قبل خلقها، قال الحسن البصري: **لم يزل أهل الجاهلية يذكرون القدر في خطبهم وأشعارهم، وجاء الإسلام فزاد هذه العقيدة تأكيدًا.**

وعن سعيد بن أبي عروبة قال: سألت قتادة عن القدر فقال: رأي العرب تريد أم رأي العجم؟.. فقلت: رأي العرب، قال: فإنه لم يكن أحدٌ من العرب إلاَّ وهو يثبت، وأنشد:

مَا كَانَ قَطعِي هَولَ كُـلِّ تَنوفَـةٍ   إلاَّ كِتَابًا قَدْ خَلاَ مَسْطُورَا

ومن الإيمان بالقدر قول لبيد بن ربيعة العامري في مُعلَّقته:

فَاقنَع بِمَا قَسَمَ المَلِيكُ فَإنَّمَا   قَسَمَ الخَلائِقُ بَينَنَا عَلاَمَهَا

وقال النابغة:

وَلَيسَ امرُؤٌ نَائِلاً مَنْ هَوَا   هُ شَيئًا إذَا هُوَ لَمْ يُكتَبِ

خالق أفعال الإنسان:

اختلف المتكلمون في الموجد لأفعال الإنسان الجبرية، فالذي ذهب مذهب العدلية أعشى بكر حيث يقول:

اســـتأثر الله بالوفـــاء وبالعـــد ل وولـــى الملامـــة الـــرجلا

والذي ذهب مذهب الجبرية لبيد بن ربيعة العامري حيث يقول:

إن تقـــوى ربنـــا خيـــر نفـــل وبـــإذن الله ريـــث وعجـــل[١]

مـــن هـــداه سـبل الخيـــر اهتـــدى نـــاعم البـــال ومـــن شـــاء أضـــل

وذكر صاحب الأغاني أن أعشى بكر أخذ مذهبه من أساقفه نجران، وكان يعود في كل سنة على عبد المدان فيمحدهم ويقيم عندهم يشرب الخمر معهم وينادمهم ويسمع من أساقفة نجران قولهم فكل شيء في شعره من هذا فمنهم أخذه.

التَّنَاسُـخ:

هو وصول رُوح إذا فارق البدن على جنين قابل للرُّوح، وافترق القائلون به على فرقتين:

الأولى: تُجيز انتقال الرُّوح لجسد ولو لم يكن من نوع الجسد الذي فارقته؛ إذ ليس انتقالها إلى نوعها أولى من انتقالها إلى غير نوعها .. والتناسُخ عنـدهم

---

(١) النفَل: محركة الغنيمة والهبة، و«الريث» الإبطاء كالتريُّث .. قال السيد: إن كان لا طريق إلى نسبة الجبر إلى مذهب لبيد إلا هذان البيتان فليس فيهما دلالة على ذلك، وأما قوله: «وبإذن الله ريثي والعجل» فيُحتمل أن يريد بإذنه علمه، كما يتأوّل عنيه قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾، أي بعلمه .. وإن قيل فـي هذه الآية أنه أراد بتخليته وتمكينه، وإن كان لا شاهد لذلك في اللغة أمكن مثله في قول لبيد .. وأمَّا قوله «من هداه سُبل الخير»، فيحتمل أن يكون مصروفًا على بعض الوجوه التي يتأوّل عليها الضلال والهدى المذكوران في القرآن مما يليق بالعدل ولا يقتضي الإجبار، اللهم إلاَّ أن يكون مذهب لبيد في الإجبار معروفًا بغيـر هـذه الأبيات فلا تؤوّل له هذا التأويل، بل يُحمل مراده على موافقة المعروف من مذهبه.

على سبيل العقاب والثواب؛ فالفاسق تنتقل رُوحه على أجساد البهائم المُسخَّرة للأعمال الشاقة أو المُعدَّة للذَّبح أو المرتطمة في الأقذار.

والثانية: تمنع انتقال الرُّوح لجسد يُغاير نوع الجسد الذي فارقته؛ لأنَّ النوع الذي أوجب لها طبعها الإشراف عليه والتعلُّق به لا يجوز أن تتعلَّق بغيره.

والتناسُخ مذهب قديم قال به أهل الهند والعرب في الجاهلية .. قال ابن أبي الحديد: وكان من العرب من يعتقد التناسخ وتنقل الأرواح في الأجساد، ومن هؤلاء أرباب الهامة(١).

وقدمنا آنفا عند قولهم للجنازة «كنت في أهلك ما أنت مرتين»، عن ابن حجر إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث، بل كانوا يعتقدون أنَّ الرُّوح إذا خرجت تصير طيرًا، فإن كان ذلك من أهل الخير كان رُوحه من صالح الطير وإلاَّ فبالعكس.

ولقد خالف بعض المسلمين الإجماع فأجاز انتقال الرُّوح لجسدٍ من نوع الجسد الذي فارقته أو من غير نوعه، ومن هؤلاء أحمد بن حابط وأحمد بن نانوس تلميذه وأبو مسلم الخراساني ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب، وهو قول القرامطة وأكثر جماعة الشيعة .. وقال رجل من النصيرية:

أعجبَنِي أمنَّا لِصَرفِ اللَّيَالِي ... جَعَلَت أختَنَا سَكِينَةَ فَارَه

---

(١) قال الشهرستاني في الملل: ومن العرب من يعتقد التناسخ فيقول إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانتصب طيرًا هامة، فيرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة، ولهذا أنكر الرسول عليهم فقال «لا هامة ولا عدوى ولا صفر»، وأنت خبير بأن هذا ليس من التناسخ الذي هو وصول الروح عند مفارقة البدن لجسم جنين.

فَازجُرِي هَذِهِ السَّنَانِيرَ عَنهَا　　وَاترُكِيهَا وَمَا تَضُمُّ الغَرَارَه

المَسْخ:

تحويل الصورة إلى صورة هي دونها .. قال الجاحظ: **قلت لعبيد الكلابي، وكان مشغولاً بالإبل: أبينكم وبين الإبل قرابة؟.. قال: نعم، خئولة، فقلت: مسخك الله بعيرًا، فقال: إنَّ الله لا يمسخ إنسانًا على صورة كريم بل لئيم.**

ويُنكر المسخ أكثر الدَّهرية، وأهل الكتاب لم يقرُّوا به، غير أنهم أجمعوا على أنَّ الله جعل امرأة لوط حجرًا، ويؤمن المسلمون بوقوعه فيما مضى لقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ .

أمَّا اعتقاد مسخ شيء معيَّن فمتوقِّف على ورود النص.

وكانت العرب في الجاهلية تعتقد وقوع المسخ، فزعموا أنَّ عشَّارين مُسخ أحدهما ضبعًا والآخر ذئبًا، وزعموا أنَّ سهيلاً كان عشَّارًا، وأنَّ الزهرة كانت امرأة اسمها «أناهيد» فمُسِخا نجمين!

أحكَامُهُم الدِّينيَّة:

لا نذكر في هذا الفصل الأحكام الدِّينية لليهود والنصارى من العرب، ولكن نذكر بعض الأحكام الدِّينية لمُشركيهم وهم «الدَّهماء»، وتلك الأحكام إمَّا من مجهود قرائحهم واستحسانهم ما حسَّنه عقلهم واستقباحهم ما قبَّحه، أو بقية فيهم من شريعة إبراهيم وإسماعيل؛ فإنَّ الحنيفية لم تطمس جميع أحكامها بما دخل عليها من عبادة الأصنام

والكواكب وغيرها، فقد حرَّم كثيرٌ منهم الزّنا لتحريم شريعة إبراهيم إيَّاه أو لِما فيه من ضرر الإغارة على الأعراض واختلاط الأنساب، فمن هؤلاء عبد الله بن عبد المطلب والد نبينا ﷺ وهو القائل لمَّا راودته فاطمة بنت مر الخثعمية عن نفسها:

أمَّا الحَرَامُ فَالحِمَامُ دُونَهُ وَالحِلُّ لاَ حِلَّ فَأَسْتَبِينَه

فَكَيفَ بِالأمرِ الَّذِي تَبغِينَه يَحمِي الكَرِيمُ عِرضَهُ وَدِينَه

ومنهم الأسلوم اليامي، وهو القائل في تحريم الزّنا والخمر:

سالَمتُ قَومي بَعدَ طولِ مَظاظَةٍ وَالسِّلْمُ أبقَى في الأُمورِ وَأعرَفُ

وتَركتُ شُربَ الرَّاحِ وَهيَ أثيرَةٌ وَالمومساتِ وتَركُ ذَلِكَ أشرَفُ

وَعَففتُ عَنهُ يا أُمَيمُ تَكَرُّمًا وكَذاكَ يَفعَلُ ذو الحِجى المُتَعَفِّفُ

ومنهم عنترة بني عبس وهو القائل:

ما اِستَمتُ أُنثى نَفسَها في مَوطِنٍ حَتّى أُوَفّي مَهرَها مَولاها

أغشى فَتاةَ الحَيِّ عِندَ حَليلِها وَإِذا غَزا في الجَيشِ لا أغشاها

وَأَغَضُّ طَرفي ما بَدَت لي جارَتي حَتّى يُواري جارَتي مَأواها

وكانوا يرجمون في الزّنا، ويروي أبو هلال العسكري عند قولهم في المثل (إحدى بنات طبق): إنَّ امرأة قالت لزوجها في سفر احمل لي هذا الكرز فحمله، فلمَّا توسَّط الثنية وجد بللاً على عنقه فقذف به، فخرج منه رجلٌ يسعى فاستفتى لقمان بن عاد في شأنها فقال تُدفن حيَّة في كرزها.

قال أبو حاتم: وأظن أنَّ أصل رجم المحصنة من هذا وذكر القلقشندي أن أول من رجم في الزنا في الجاهلية ربيع بن حدان ثم جاء الإسلام بتقريره في المحسن.

وحرَّم كثيرٌ من أهل الرأي فيهم الخمر تكرمًا لأنفسهم وصيانةً لها عن معرَّة السُّكر أو اتقاءً لضرر الخمر، وذُكر أنَّ أول من حرَّمها الوليد بن المغيرة، وقيل قيس بن عاصم السعدي وفيها يقول:

لَعَمرُكَ أنَّ الخَمرَ مَادُمتُ شَارِبًا لَسَالِبَةٌ مَالِي وَمُذْهِبَةٌ عَقلِي

وَتَارِكُنِي مِن الضِّعَافِ قُوَاهُم وَمُوَرِّثَتِي حَربَ الصَّدِيقِ بِلاَ نُبلِ

وحرَّمها صفوان بن أمية بن محرث الكناني، وقال: وتروي لقيس بن عاصم:

رَأيتُ الخَمرَ صَالِحَةً وَفِيهَا مَنَاقِبُ تُهلِكُ الرَّجُلَ الكَرِيمَا

فَلاَ وَاللهِ أَشْرَبُهَا حَيَاتِي وَلاَ أَسقِي بِهَا أَبدًا نَدِيمَا

ومنهم مقيس بن صبابة السهمي، وذلك أنه سكر مرة فجعل يخط ببوله ويحدِّث بعيره، فلمَّا أفاق أُخبر بذلك فحرَّمها وقال:

رَأيتُ الخَمرَ طَيِّبَةً وَفِيهَا خِصَالٌ كُلُّهَا دَنَسٌ ذَمِيمُ

فَلاَ وَاللهِ أَشربُهَا حَيَاتِي طَوَالَ الدَّهرِ مَا طَلَعَ النُّجُومُ

ومنهم الأسلوم اليامي وعبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ وعمه أبو طالب وجده قصي بن كلاب وهو القائل لبنيه: اجتنبوا الخمر؛ فإنها تصلح الأبدان وتفسد الأذهان.

وكذلك ورقة بن نوفل وشيبة بن ربيعة والوليد بن الوليد وعامر بن الظرب العدواني وعبد الله بن جدعان، وكان من أجواد قريش وساداتها، وسبب تحريمه الخمر كما قال أبو الزناد أنه شرب مع أمية بن أبي الصلت الثقفي فضربه على عينه فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب فقال له عبد الله: ما بال عينك؟

فسكت فألحَّ عليه، فقال له: ألستَ ضاربها بالأمس؟

فقال: أو بلغ مني الشراب ما أبلغ معه من جليسي هكذا؟ ووداها ديتين عشرة آلاف درهم، وقال الخمر عليّ حرام لا أذوقها بعد اليوم أبدًا.

وحرَّمها كذلك عفيف بن معد يكرب الكندي عم الأشعث بن قيس وقال:

وَقَائِلَةٍ هَلُمَّ إِلَى التَّصَابِي	فَقُلتُ عَفَفتُ عَمَّا تَعلَمِينَا
وَوَدَّعتُ القِدَاحَ وَقَدْ أَرَانِي	بِهَا فِي الدَّهرِ مَشغُوفًا رَهِينَا
وَحَرَّمتُ الخُمُورَ عَلَيّ حَتَّى	أكُونَ بِقَعرِ مَلحُودًا دَفِينَا

وقال أيضًا:

فَلاَ وَاللهِ لاَ أُلفَى وَشَرْبًا	أُنَازِعهم شرابًا ما حَيِيتُ
أبَى لِي ذاكَ آباءٌ كِرامٌ	وأجدادٌ بمجْدِهِمُ رَبِيتُ

وممَّن حرَّمها في الجاهلية وأدرك الإسلام أسد بن كرز، وكان يُدعى في الجاهلية «رب بجيلة»، وسويد بن عدي بن عمرو بن سلسلة الطائي وهو القائل حين أدرك الإسلام:

تَركتُ الشِّعرَ وَاستَبدلتُ مِنهُ ... إذَا دَاعِي مُنَادِي الصُّبحِ قَامَا

كِتَابَ اللهِ لَيسَ لَهُ شَرِيكٌ ... وَودَّعتُ المُدَامَةَ وَالنَّدامَى

وَحَرَّمتُ الخُمُورَ وَقَدْ أرَانِي ... بِهَا سَدِكًا وَإنْ كَانَتْ حَرَامَا

وأبو بكر الصديق وعبد الرحمن بن عوف والعباس بن مرداس، وقد قيل له حين كبر: لو أخذت من الشراب شيئًا فإنه يزيد في قوَّتك فقال: لا أدخل رأي شيئًا يحول بيني وبين عقلي.

وعثمان بن عفَّان، وقيل له ما منعك من شرب الخمر في الجاهلية؟.. فقال: إني رأيتها تذهب العقل جملة، وما رأيت شيئًا ذهب جملةً ويعود جملة.

وعُدي بن هاشم، وقد قيل له مالك لا تشرب الخمر؟.. فقال: لا أشرب ما يشرب عقلي .. وقيل له: مالك لا تشرب النبيذ؟.. فقال: معاذ الله، أُصبح حكيم قومي وأمسي سفيههم!

ومن بقايا دين إبراهيم فيهم احترام البيت وأعمال الحج والعمرة وحرم الأشهر الحرم والغسل من الجنابة وتغسيل الموتى وتكفينهم ممَّا تقدَّم ذكره.

ومن الأحكام الدِّينية التي ذكرتها مفصلة في كتاب «المرأة العربية في الجاهلية»: **حُرمة تزوُّج الأمَّهات والبنات والعمَّات والخالات، وحُرمة الجمع بين الأختين، وأول من جمع بينهما أبو أحيحة سعيد بن العاص، جمع بين هند وصفية ابنتَي المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم.**

وكذلك حرمة قربان الحائض والاغتسال من الحيض الظهار والإيلاء والخلع وعدة الوفاة والطلاق والعدة منه وكونه ثلاثًا على التفرقة .. قال عبد الله بن عباس أول من طلَّق ثلاثًا إسماعيل بن إبراهيم بثلاث كرَّات، وكانت العرب تفعل ذلك فيُطلِّقها واحدة وهو أحقُّ الناس بها حتى إذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها.

ولقد حرَّموا السرقة وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى، وكانت ملوك اليمن وملوك الحيرة تصلب الرجل إذا قطع الطريق، وقدَّروا الديَّة في النفس والجوارح، وحكموا بأنَّ الخنثى يتبع في ميراثه المنال، وكان طريق الحكم عندهم يمينًا أو منافرةً إلى حاكم يقطع بالبينات أو جلاءً وبرهانًا يجلي به الحقَّ وتتضح به الدعوى، وجاء ذلك في قوله زهير:

فإنَّ الحَقَّ مَقطَعُهُ ثَلاثٌ ... يَمِينٌ أَو نفَارٌ أَو جَلاءُ

قال أحد الرواة: لو أنَّ زهيرًا نظر إلى رسالة عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري ﷺ ما زاد على ما قال.

وكانت اليمين على المدَّعي، وأول من قال «البيِّنة على من ادعى واليمين على من أنكر» هو قسُّ بن ساعدة الأيادي، وكانوا يقضون بالقسامة، وهي الأيمان تُقسم على أهل المحلَّة في شأن قتيل وُجد في محلتهم لم يُدرَ

قاتله، فيستحلف ولي الدم منهم خمسين رجلاً بالله ما قتلت وما علمت له قاتلاً، وأول قسامة في الجاهلية كانت بحُكم أبي طالب، وجاء الإسلام فأقرَّ القسامة على ما كانت عليه في الجاهلية.

وكانوا يداومون على طهارات الفطرة العشر التي ابتلى الله بها إبراهيم: وهي خمس في الرأس «المضمضة والاستنشاق وقص الشارب وفرق الشعر والسواك»ن وخمس في الجسد وهي «الاستنجاء بالماء وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان امتثالاً لأمر ربه»، فلما جاء الإسلام أقرها سُنة من سُنن الدِّين .. ولنبسط الكلام على الختان فنقول:

الخِتَان:

هو في العرب سُنة للنساء والرجال، وأول امرأة اختُتنت هاجر أم إسماعيل وأول رجل اختُتن إبراهيم امتثالاً لأمر ربه، ولقد حافظت العرب على سُنة الختان، حتى أنَّ العربي ليخشى أن يوسم بأنه أغرل[1]، وشاهده ما حكاه ابن هشام في غزوة حنين من أنه: لما استعر القتل من ثقيف في بني مالك فقتل منهم سبعون رجلاً منهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة وقتل معه غلام نصراني له أغرل، فبينا رجل من الأنصار يسلب قتلى ثقيف إذ كشف العبد يسلبه فوجده أغرل فصاح بأعلى صوته: يا معشر العرب، يعلم الله أنَّ ثقيفا غرل.

---

(١) الاغرل كالاقلف ذو الغرلة أو القلفة وهي الجلدة التي تقطع في الختان.

قال المغيرة بن شعبة: فأخذت بيده وخشيت أن تذهب عنا في العرب فقلت: لا، تقل ذاك، فداك أبي وأمي، إنما هو غلام لنا نصراني (ومنه يُعلم أنَّ نصارى العرب كانوا لا يُختتون، ومن عادتهم أن يختتنوا الوليد رضيعًا أو صبيًّا، ويتخذون لذلك وليمة يسمونها «الأعذار»).

وحكى أهل السِّير أنَّ النبي وُلد معذورًا[1].

قال الجاحظ في «الحيوان»:

والختان في العرب في الرِّجال والنساء من لدنَّ إبراهيم وهاجر إلى يومنا هذا، ثم لم يولد صبي مختون قط أو في صورة مختون، وناس يزعمون أنَّ النبيَّ وعيسى ابن مريم عليهما السلام وُلدا مختونين، والسبيل في مثل هذا الرجوع إلى الرواية الصحيحة.

وقد اختُلف في ولادة نبيِّنا مختونًا على ثلاثة أقوال حكاها ابن القيم الجوزية في كتابه «زاد المعاد»:

أولها: إنه وُلد مختونا مسرورًا[2]، وقد رُوي في ذلك حديث لا يُصح ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في «الموضوعات»، وليس فيه حديث ثابت، وليس هذا من خواصه؛ فإنَّ كثيرًا من الناس يُولد مختونًا، والناس يقولون لمن وُلد كذلك «ختنه القمر»، وهذا من خرافاتهم[3].

---

(١) معذورا أي مختونا يقال عذر الصبي واعذر إذا ختن.

(٢) مسرورًا: أي مقطوع السرة.

(٣) كانت العرب في الجاهلية تزعم أنَّ الغلام الذي يولد في القمراء بختنه القمر، وذلك لأنَّ غرلته تتقلَّص فيصير كالمختون.

ثانيها: إنه خُتن يوم شقَّ قلبه الملائكة عند حليمة.

ثالثها: إنَّ جدَّه عبد المطلب ختنه يوم سابعة وصنع له مأدبة وسماه محمدًا.

قال أبو عمرو ابن عبد البر: وفي هذا الباب حديث غريب مُسند إلى ابن عباس، ومن رجال سنده يحيى بن أيوب القائل: قد طلبت هذا الحديث فلم أجده عند أحدٍ من أهل الحديث ممَّن لقيته إلاَّ عند ابن أبي السري، وقد صنَّف كمال الدِّين بن طلحة مصنفًا في أنه وُلد مختونًا وأجلب فيه من الأحاديث التي لا زمام لها فنقضه عليه كمال الدِّين بن العديم وبيَّن فيه أنه خُتن على عادة العرب، وكان عموم هذه السنة للعرب مغنيًا عن نقلٍ معيَّن فيها.

الدِّين الفتشي

يقال له «دين الوثن وذي الرُّوح»؛ لأنَّ أهله اعتقدوا أنَّ لكلِّ مادة رُوحًا تحتلُّ الجسم أو تتصل به ولها سلطان على الأجسام الأخرى، حتى أنَّ عبيد غانة كانوا إذا خرجوا لسفر أقسموا أمام أول كائن يبصرونه إنهم يخصونه بأنواع العبادة إذا وُفِّقوا في سفرتهم، فعبدوا لذلك الأشجار وأغصانها وجذورها وقشورها والجلد والعظم والريش والناب والمخلب والحافر والسن والظفر والحجر وأنواع الحيوان وآلات الحرب والشمس والقمر وغير ذلك لاعتبارهم أنَّ لها قوَّة مؤثِّرة، وقدَّموا لها القرابين باعتبار الرُّوح التي تتصل بها أو تحتلّها، واتخذوها تميمةً تقيهم عوادي الأيام وتدفع عنهم الخطوب.

وهذه ديانة كلِّ الأمم البدائية، ويسمى الغرب هذا الدِّين «فتيش» (feliehisomc)، وتأتي بالبرتغالية بمعنى «السِّحر»؛ لأنَّ الملاحين البرتغاليين سموا بها السحرة من الزنوج ثم توسعوا فيها فأطلقوها على هذا الدِّين، ولقد كان إكبار بعض الناس للحكماء الأولين أن اتخذوا لهم الصور والتماثيل اعترافًا بفضلهم فيما بذلوا من الإرشاد والتهذيب، فاتخذ المتأخِّرون لجلّهم تلك الصور والتماثيل زلفى يعبدونها لتقرِّبهم إلى الله، ثم آل الأمر ببعضهم أن اتخذ تلك الأصنام آلهةً خصُّوها بأنواع العبادة كما دعتهم أوهامهم إلى ذلك.

ولشيوع هذا النوع من العبادة في أممٍ عديدةٍ عبدت الملوك العادلون والعباد والشجعان والقواد والسمحاء الأجواد ممَّن بلغ في صفة غاية الكمال، ثم زادوا فيه توسعًا فعبد كلُّ قومٍ صنمًا استحسنوه على صورة إنسان أو كوكب أو حيوان أو معدن أو نبات، ثم توسَّعوا في ذلك حتى اختُصَّ بعضهم بصنمٍ يعبدونه في خلوته دون ذويه وعشيرته.

ومعبودات هذا الدِّين لا تُحصر، فإنَّ من لوازم النفوس البحث عن مُوحِّد فتصوَّروه النافع أو الضار من النبات أو المعدن أو الحيوان أو الكواكب، وافترقوا في عبادة ذلك النافع أو الضار بحسب اختلاف النظر إلى فرقٍ شتى.

فمنهم عُباد الثيران وعُباد الثعابين وعُباد الفيلة وعُباد القطط وعُباد الثوم وعُباد شجر الزيتون وعُباد الخرنوب وعُباد الشمس أو القمر وعُباد

التماثيل وعُباد الإنسان أو جزءٍ منه أو غير ذلك، حتى عبدوا الأرواح كالملائكة والشياطين.

واعتنق هذا الدِّين كثيرٌ من العرب من قديم الزمان، ولم تدل دولة هذا الدِّين وغيره من الأديان حتى أشرق على العرب نور الإسلام فتبدَّدت بأشعته حُجب الأوهام.

عِبَادَة الإنسَان وَالحَيَوان وَالشَّجَر وَالملائكَة وَالجِن

من العرب عُباد الحيوان أو عبدة الملائكة أو الجن أو الشجر لمعنى نلحظه في المعبود من النفع أو الضرر؛ فمن عبادة الحيوان عبادتهم للجمل، وشاهدها ما ذكره السهيلي في قدوم وفد طيء على رسول الله قال: خرج نفر من طيء يريدون النبي ﷺ بالمدينة وفودًا ومعهم زيد الخيل ووزر بن جابر بن سدوس النبهاني وقبيصة بن الأسود بن عامر الجرمي – وهو النصراني – ومالك بن عبد الله بن خيبري وقعين بن خلف من جديلة ورجل من بني بولان، فعقلوا رواحلهم بفناء المسجد ودخلوا فجلسوا قريبًا من النبي ﷺ حيث يسمعون صوته، فلما نظر النبي

ﷺ إليهم قال: إني خيرٌ لكم من العزّى ولاتها ومن الجمل الأسود الـذي تعبدونه من دون الله وممَّا حازت مناع[1] من كلٍّ ضارٍ غير نفّاع.

ونقل هذا الخبر الأصفهاني في «الأغاني»، ومن ذلك ما كان من عمرو بن حبيب الموصوف بـ«ذي الكيود» أي كثير الكيد؛ فإنه أغار على بني بكر فأصاب سقبا[2] كانوا يعبدونه من دون الله فأراد إغاظتهم فنحره وأكله، وفي ذلك يقول أحمد البدوي الشنجيطي عند ذكر محارب وهو أبو قبيلة:

وَأنسبُ حَبِيبَهُم وَذَا الكُيُودِ آكِلَ سقبِ بَكرِ المَعبُودِ

عبادة الإنسان:

كانوا يُعظِّمون الأمراء والرؤساء تعظيم العبادة، وليس أدلُّ على ذلك من الحجِّ إليهم وتعظيم أماكنهم وآثارهم، وقد حجَّت العرب عصابة الزبرقان بن بدر .. قال السهيلي: **وكان الزبرقان يرفع له بيت من عمائم وثياب وينضح بالزعفران والطيب وكانت بنو تميم تحج ذلك البيت وقد أشار الزبرقان لذلك بقوله من قصيدة:**

بِما تَرى الناسُ تَأتِينا سُراتُهُمُ مِن كُلِ أَرضٍ هَوِيًّا ثُمَ تَصطَنِعُ[3]

---

(1) قال أبو المنذر: يعني بمناع جبل طيء.

(2) السقب: ولد الناقة أو ساعة يولد أو خاص بالذكر.

(3) وفي رواية: من كلِّ أرض هو أنا ثم نتبع.

فَنَنحَرُ الكوم عَبطًا في أرومَتِنا ... لِلنازِلينَ إذا ما أُنزِلوا شَبِعوا

قال البغدادي في «خزانة الأدب»: وقال أبو محمد الأسود الإعرابي إنَ بني سعد بن زيد مناة كانوا يحجون عصابة الزبرقان إذا استهلوا رجبًا في الجاهلية إجلالاً له وتعظيمًا لقدره.

وذكر ذلك ربيعة بن سعد النمري يمدح الزبرقان بقوله:

كَانَت تحُجُّ بَنُو سَعدٍ عِصَابَتَهُ ... إذَا استَهَلُّوا عَلَى أنْصَابِهِ رَجَبَا

سَبٌّ يُزَعفِرُهُ سَعدٌ وَيَعبُدُهُ ... فِي الجَاهِلِيَّةِ يَنتَابُونَهُ عصَبَا

والعصابة ما يُعصب به الرأس.

فأنت ترى الشاعر قد صرَّح بأنَّ هذا التعظيم نوعٌ من العبادة في قوله «ويعبده في الجاهلية»، ولقد هجا الزبرقان بن بدر المخبل السعدي فقال:

أَلَمْ تَعلَمِي يَا أمَّ عَمرةَ أنَّنِي ... تَخَاطَأنِي رَيبَ الزَّمَانِ لأكبَرَا[1]

وَأشهَدَ مِن عَوفٍ حُلُولاً كَثِيرَةً ... يَحُجُّونَ سَبَّ الزِّبرَقَانِ المُزَعفَرَا[2]

---

(١) تخاطأني: بمعنى تخطّأني وفاتني، و«ريب الزمان» حوادثه، و«كبر في السن» من باب فرح، يعني أنه كره أن يعيش ويعمر حتى يرى الزبرقان من الجلالة والعظمة بحيث يحج بنو سعد عصابته.

(٢) قال البغدادي في خزانة الأدب: قال أبو محمد الأسود و«أشهد» بالنصب عطف على لأكبرا، و«عوف» أبو قبيلة، وهو عوف بن كعب بن سعد، و«حلول القوم» النزول، من حلَّ بالمكان إذا نزل فيه، و«يحجون» يقصدون .. قال ابن دريد في الجمرة: الحج القصد، وأنشد هذا البيت، و«السِّب» بكسر السين المهملة العمامة، وكانت سادات العرب تصبغ العمائم بالزعفران، وقال =

و«الزَّبرقان» هو حصين بن بدر، لُقِّب به لحُسن وجهه؛ لأنَّ الزِّبرقان من أسماء القمر أو لأنه كان "يُزبرِق" عِمامته في الحرب، أي يُصفِّرها.

وكان الزِّبرقان في وفد تميم الذين وفدوا على رسول الله ﷺ فنادوه من وراء الحجرات، وقد أسلم وولاَّه رسول الله صدقات قومه فأدَّاها في الردَّة إلى أبي بكر فأقرَّه، ثم إلى عمر، وذكر الكوكبي أنه وفد على عبد الملك وقاد إليه خمسة وعشرين فرسًا، ونسب كلَّ فرس إلى آبائه وأمهاته، وحلف على كلٍّ فرس منها يمينًا غير التي حلف بها على غيرها، فقال عبد الملك: عجبي من اختلاف إيمانه أشد من عجبي بمعرفته بأنساب الخيل.

عبادتهم الملائكة والجن:

شاهدهما ما ذكره الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل»: إنَّ من العرب من يصبوا إلى الملائكة فيعبدهم، ومنهم من يعبد الجن، ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله.

وقال أبو المنذر :وكانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن وفيهم نزلت:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادًا أَمثَالُكُم﴾

= بعض الناس إنَّ الناس قصد بهذا البيت معنى قبيحا وكنى بهذا اللفظ عنه، ويدفعه قوله «يزورون»؛ فإنَّ الزيارة لا تستعمل في هذا إلا أن يدعي التهكم.

وفي «شعب الإيمان» عن مجاهد قال: **قال كفار قريش الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق فمَن أمهاتهم؟.. قالوا بنات سراة الجن!**

ولقد ردَّ الله عليهم بقوله:

﴿ألاَ إنَّهُم مِن إفكِهِم ليَقُولُونَ * ولَدَ الله وَإنَّهُم لَكَاذِبُون﴾

إلى أن قال:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

وقد اعتقد بعض العرب في أشخاص من الملائكة والأرواح التدبير لأهل الأرض فيما دون الأمور العظام من إصلاح حال العابد في نفسه وولده وماله، وشبهوهم بحال الشفعاء والندماء .. وبعضهم اعتقد أنَّ الله جلَّ جلاله يكتسب من الملائكة علمًا ليس عنده، قياسًا على الملوك بالنسبة للجواسيس!

واعتقد العرب أيضًا أنَّ الجن يعلمون الغيب، وأنهم قادرون على إيذاء الإنسان؛ فكانوا يستعيذون بهم إذا ركبوا المفاوز، يزعمون أنهم إذا استعاذوا بهم دفعوا عنهم كلَّ مكروه حتى قال بعضهم وقد استعاذ بالجني عظيم الوادي فأكل السبع ولده:

قَد استَعَذنَا بِعَظِيمِ الوَادِي — مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ مِن الأعَادِي

فَلَم يُجِرنَا مِن هُزَبرٍ عَادِي

ونسبوا أكثر الأمراض إلى الجنّ وداووها بالتقرُّب إليها، وإذا اشترى أحدهم دارًا أو استخرج عينًا ذبح للجن ذبيحة لتسعد الدار ولا تنضب العين، وأمثال هذه المعتقدات كانت مدعاة لعبادتهم.

وعن عبد الله بن مسعود في رواية أنّ نفرًا من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجنّ فأسلم الجنيون والإنس كانوا يعبدونهم لا يشعرون، فأنزل الله تعالى:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ .

ولقد ردّ الله أيضًا على من عبَد الملائكة من العرب بقوله:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾.

عبادتهم للأشجار:

حكى عبادتهم لها ابن هشام في السيرة عند الكلام على غزوة حنين عن الحارث بن مالك. قال:

خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية، فسرنا معه على حنين، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة

عظيمة خضراء يقال لها «ذات أنواط»[1] يعظمونها ويأتونها كلَّ سنة فيُعلِّقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يومًا، فرأينا ونحن نسير مع رسول الله سدرة خضراء عظيمة، فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال رسول الله ﷺ: الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى «اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة إنكم قوم تجهلون»، إنها السُّنن، لتركبن سُنن من كان قبلكم.

وفيها يقول الشاعر:

لَنَا المُهَيمِنُ يَكفِينَا أعَادِينَا ... كَمَا رَفَضنَا إلَيهِ ذَاتَ أنوَاطِ

هذا وعبدت العرب العزَّى، وهي كما قال السهيلي «نخلات مجتمعه»، وكان عمرو بن لحي قد أخبرهم أنَّ الربَّ يشتي بالطائف عند اللات ويصيف بالعزى، فعظموها وبنوا لها بيتا وكانوا يهدون إليه كما يهدون إلى الكعبة.

وممًا فعلة عمر بن الخطاب مخافة عبادة الشجر قطعه للشجرة التي حصلت تحتها بيعة الرضوان عام الحديبية سنة ست للهجرة، فعن نافع قال:كان الناس يأتون الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها بيعة الرضوان فيُصلُّون عندها، فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت.

فعل عمر ذلك قطعًا لشأفة الوثنية خشية الفتنة بها وعبادة غير الله تعالى، ولعمر في هذا الباب مواقف مجيدة منها: إنه عندما دخل مسجد بيت المقدس

---

(١) ناطه نوطًا علقه والأنواط المعاليق سميت بذلك لأنهم كانوا يعلقون بها أسلحتهم.

استدعى كعب الأحبار، فلما أتى به قال له أين ترى أن نجعل المصلى؟ فقال: إلى الصخرة، فقال: ضاهيت والله اليهودية يا كعب، وقد رأيتك وخلعك نعليك، فقال: أحببت أن أباشره بقدمي، فقال: قد رأيتك، بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله قبلة مساجدنا صدورها، فاذهب إليه؛ فإنًّا لم نؤمر بالصخرة، ولكنا أُمرنا بالكعبة.

ومنها قوله للحجر الأسود: قد علمتُ أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتك.

الوَثَنِيَّة فِي العَرَب

أول من سجد للأصنام الصابئون، وكانوا كالمجوس يسجدون في مبدأ أمرهم للأجرام السماوية، ولمَّا رأوا الشمس تختفي ليلاً وسائر الكواكب نهارًا وأرادوا التمكُّن من عبادتها في كلِّ حين مثلوا لها صورًا عبدوها، ولذلك كانت أوثان القدماء المشهورة هي المشترى وزحل والمريخ وعطارد وأرطاميس ويونون والزهرة، ثم زعموا أنَّ لنفوس الأموات العظماء مددًا إلهيًّا به كانوا عظماء في الحياة فمثَّلوا لهم صورًا عبدوها واتخذوهم شفعاء عند الله، وأول من فعل ذلك نينوس بن نمروذ بن نوح ملك الآشوريين باني مدينة نينوى، فإنه صنع لأبيه تمثالاً سنة ٢٠٥٩ قبل الميلاد وحمل الناس على عبادته، وذلك مبدأ عبادة الملوك والأمراء والشجعان.

وتاريخ دخول الوثنية في بلاد العرب قديم جدًّا، وأول من أدخلها إلى مكة وما جاورها عمرو بن لحي سيد خزاعة، وذلك أنَّ جُرهمًا كانوا قد طغوا في الحرم وظلموا واستحلُّوا منه أمورًا عظامًا، فأرسل الله إليهم خزاعة حين أجلاهم سيل العرم من بلادهم فطردوا جُرهما منه وقتلوا من قتلوا منهم فشفي ذلك صدور أهل الحرم وفرحوا بانتصار خزاعة على جُرهم .. وربما ظنوا أنَّ الله قد أرسلهم إليهم ليخلص أهل حرمه من جورهم، وكان رئيس خزاعة عمرو بن لحي فتولَّى سدانة البيت، ودانت له العرب، واتَّخذوه ربًّا لا يبتدع لهم بدعة إلاَّ اتَّخذوها شرعة، وكان فوق ذلك قد ملكهم بإحسانه، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسى عشرة آلاف حلَّة، وكان يطعم الحجيج السويق فدعاهم لعبادة الأوثان وكانت نفوسهم مستعدة لعبادتها بما كانوا يُعظِّمونه من حجارة الحرم فأجابوه، حكى أبو المنذر عن أبيه وغيره قال:

إنَّ إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام لمَّا سكن مكة وولد له بها أولادٌ كثير حتى ملئوا مكة ونفوا من كان فيها من العماليق فضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضًا فتفسَّحوا في البلاد والتماس المعاش، وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلاَّ احتمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلُّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمُّنًا منهم بها وحبًّا لها وهم بعد يُعظِّمون الكعبة ومكة ويحجون

ويعتمرون على إرث أبيهم إبراهيم وإسماعيل، ثم سلخ ذلك بهم إلـى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان[١] وصاروا إلى ما كانت عليه الأمـم مـن قـبلهم وانتجثوا[٢] ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقي فيهم من ذِكرهـا وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسَّكون بها من تعظـيم البيت والطواف به والحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه، فكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان وسـيَّب السـائبه ووصـل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامية عمرو بن ربيعة، وهو لحي ابـن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي وهو أبو خزاعة.

وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة، فلمَّا بلغ عمرو بن لحـي نازعه في الولاية وقاتل جرهما ببني إسماعيل فظفر بهم وأجلاهـم عـن الكعبة ونفاهم من بلاد مكة وتولى حجابة البيت، ثم أنه مـرض مرضًـا شديدًا فقيل له إنَّ بالبلقاء من الشام حَمَّـة[٣] إن أتيتهـا بـرأت، فأتاهـا

---

(١) لهذا أمر النبي ﷺ بتسوية القبور وطمس التماثيل ولعن المتخذين علـى القبـور المسـاجد والسرج ونهى عن الصلاة إلى القبور وسال به ألا يجعل قبره وثنًا يُعبد، ونهى أمته أنه يتخـذوا قبره عيدًا، وقال «اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد حتى لا تخلف الخلـوف بعد الخلوف وتنسى ما كان عليه السلف وتتخذ ما تصنع دينا فسدا للذريعة» ونهى عن ذلك.

(٢) انتجثوا اس:تخرجوا.

(٣) الحَمة: بفتح الحاء والميم المشددة المفتوحة كل عين فيها ماء حار ينبع يستشفي بها الأعلاء.

فاستحمَّى بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟.. فقالوا: نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة[١].

فأنت ترى أنَّ الوثنية كانت فيهم قبل عمرو بن لحي بما عبدوه من حجارة الحرم في أسفارهم، وإنما عمرو بن لحي هو أول من وضَّح لهم أنواع عبادتها وبيَّن لهم ضروب التقرُّب إليها من اتخاذ البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وغير ذلك، وأول من نقل الأصنام إلى الحرم ونصبها حول الكعبة وحمل أهله على عبادتها، ولولاه ما رسخت فيهم أقدامها؛ ولذلك قال ﷺ: «**قد عرفت أول من سيب السائبة ونصب النصب عمرو بن لحي، رأيته يؤذي أهل النار بريح قصبه[٢]**».

وقال سحنة بن خلف الجرهمي في اتخاذ عمرو بن لحي للأصنام:

يَا عَمرُو إنَّكَ قَدْ أحْدَثْتَ آلِهَةً	**شَتَّى بِمَكَّةَ حَولَ البَيْتِ أنصَابَا**
وكَانَ لِلبَيتِ رَبٌّ وَاحِدٌ أبَدًا	**فَقَدْ جَعَلتَ لَهُ فِي النَّاسِ أربَابَا**
لَتَعرِفنَّ بِأنَّ اللهَ فِي مَهَلٍ	**سَيَصطَفِي دُونكُمْ لِلبَيتِ حُجَّابَا**

---

(١) حكى أبو المنذر أيضًا أنَّ عمرو بن لحي كان كاهنًا وكان له رئي من الجن يُكنى «أبا ثمامه» فقال له: عجل بالسير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة .. قال: جير ولا إقامة؟.. قال: ائت ضف جدة تجد فيها أصنامًا معدة فأوردها تهامة ولا تهاب، ثم ادعُ العرب لعبادتها تجب، فأتى شط جده فاستثارها ثم حملها حتى ورد تهامة وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة.

(٢) القُصب: بالضم المعي جمعه أقصاب.

ونظم ذلك أحمد البدوي الشنقيطي في كتابه «عمود النسب» فقال:

قُمَّعَةَ قِيلَ جَدُّ عَمرُو بـنِ لُحَـي ... ذِي القَصبِ فِي حَدِيثِ أَفضَـلِ لُـؤَي

أَوَّلُ مَن حَمَّـلَ أَكيَـاسَ الحَـرَم ... لِكُفـرِهِ عَلَـى عِبَـادَةِ الصَّـنَم

وَأَدخَـلَ اللَّـذَينِ أَخرَجَهُمَـا ... إِذْ أَحـدَثَا فَمَسَـخَا أَهلَهُمَـا[1]

وَصُـلِبَا عَلَـى الصَّـفَا لِيَـتَّعِظ ... عَـنِ الزِّنَـا بِمَكَّـةَ كُـلُّ يَقِـظ

مَلِـكَ أَربَعِـينَ أَلفًـا فَسَـمَل ... عَن شُكرِهَا عُيُونَ عِشـرِينَ جَمَـل[2]

وَكَـانَ يَعبُـدُ فَكُـلُّ مَـا أَمَـر ... بِـهِ مِـنَ المُختَلَقَـاتِ يُعتَبَـر

كَـالبَحرِ وَالوَصـلِ وَكَالتَّسـيِيب ... وَكَالحِمَايَـةِ وَكُـلِّ رِيـب

إلى أن قال بعد تفصيل في البحيرة والوصيلة والسائبه والحامي:

وَالعَـرَبِ قَبـلَ مُتَـدَيِّنُونَا ... بِمِلَّـةِ الخَلِيـلِ يُعمِلُونَـا

وَهُـوَ أَبُـو خُزَاعَـةَ وَأَكـثَم ... شَـبَّهَهُ بِـهِ النَّبِـيُّ مِـنهُم[3]

---

(١) انظر الكلام على أساف صفحة ١٣٣.

(٢) في الروض الآنف: وذكر أبو الوليد الازرقي في أخبار مكة أن عمرو ابن لحي فقأ أعين عشرين بعيرًا وكانوا يفقؤن عين الفحل إذا بلغت الإبل الفا فإذا بلغت الفين فقؤا العين الأخرى قال الراجز : وكان شكر القوم عند المنن ... كي الصحيحات وفق الأعين

(٣) حكى ابن إسحاق في سيرته أنَّ أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعي: يا أكثم، رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك منه، فقال أكثم: عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله: قال لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غيَّر دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي.

وقد نصَّ الشهرستاني في الملل أنَّ عمرو بن لحي وضع الأصنام في البيت في أول مُلك سابور ذي الأكتاف، وتاريخ دخول الوثنية في الحرم يرجع لتولّي عمرو بن لحي الحرم حين نزوحه مع خزاعة وتغلُّبه على جُرهم عام سيل العرم، وقد اختلفوا في وقت حدوث ذلك السيل، قال حمزة والأصفهاني إنه حدث قبل الإسلام بأربعمائة سنة، أي في القرن الثالث للميلاد.

وقال ابن خلدون إنَّ السدَّ تهدَّم في أيام حسَّان بن تبان أسعد، أي في القرن الخامس للميلاد.

وذكر ياقوت أنه وقع في ملك حبشان، ولعلها «حسان» حرَّفها النُسَّاخ بـ«حبشان»، فيوافق ابن خلدون، أو المراد بـ«حبشان» الأحباش، وقد كان ملكهم على اليمن في القرن السادس، وكانت الوثنية في عاد قوم هود، وكانت ديارهم بالدو والدهناء.

وعالج ويبرين ووبار إلى عمان وفي ثمود قوم صالح، وكانت منازلهم بين الشام والحجاز في الحجر وقرح، وهي وادي القرى، وفي دولة حمورابي، وهي الدولة البابلية الأولى من سنة ٢٤٦٠ق.م إلى ٢٨١ ق.م.

وفي أثناء هذه الدولة بعث لهم إبراهيم الخليل وقد حكى الله قصة تكسيره الأوثان في قوله "وتالله لاكيدن أصنامكم بعد أن تولولا مدبرين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون" إلى آخر الآيات ومعبودات البابليين على ما ذكره جرجي زيدان في كتابة العرب قبل

الإسلام كثيرة الشبه في أسمائها وأسماء الذين ينتسبون إليها بأقدم الهة العرب في اليمن وغيرها مثل ايل وبل وشمس واشتار وسين وسمدان ونسر وينع وذكر أيضًا أن العرب القحطانيين والعدنانيين يشتركون في عبادة الأصنام إلا أن آلهة القحطانيين أهل اليمن أقرب إلى معبودات البابليين فعندهم عشتار وايل وبعل وغيرها.

أمَّا العرب الإسماعيليون أو العدنانيون سكان شمال جزيرة العرب فيشتركون في عبادات تختلف عن تلك كاللات والعزى ومناة وهبل وغيرها، وكانت الوثنية في مدين قوم شعيب وكانت منازلهم تجاور أرض معن من أطراف الشام ممَّا يلي الحجاز، وكانت الوثنية دين ملوك الحيرة قبل أن يتنصروا ودين أهل اليمن قبل أن يُدخل تُبع الآخر اليهودية فيهم.

أَصنَامُ العَرَب وَبُيُوتِ عِبَادَتِهَا:

قال السهيلي: **يقال لكلِّ صنم من حجر أو غيره «صنم»، ولا يقال «وثن» إلاَّ لِما كان من غيرِ الصخر كالنحاس وغيره.**

وقال: **أبو المنذر المعمول من خشب أو ذهب أو فضة صورة إنسان فهو «صنم»، وإذا كان من حجارة فهو «وثن».**

وقال غيره: «الوثن» كلُّ ما له جثة معمولاً من جواهر الأرض أو من الخشب أو الحجارة كصورة الآدمي تُعمل وتُنصب فتُعبد، و«الصنم» الصورة بلا جثة.

ومن العلماء من لم يفرق بينهما، وقال: إذا كان ما يعبدونه حجرًا على غير صورة فهو «نُصُب»، وإن كان تمثالاً سُمي «صنمًا» و«وثنًا»، ويقال لبيت الأصنام الذي يُتخذ ويُزين «الزونة»، وللبيت الذي فيه أصنام وتصاوير «اليد».

وكان للعرب أصنام عدة وبيوت للعبادة يعظمونها ويجعلون لها سدنة وحُجابًا ويهدون لها كما يهدون للكعبة، ويطوفون بها كطوافهم بها وينحرون عندها، وهم يعرفون فضل الكعبة عليها؛ لأنهم يعلمون أنها من بناء إبراهيم الخليل عليه السلام، ولنذكر ما عثرنا عليه من ذلك مرتبا على حروف المعجم فنأتي بكل ما جاء منها بكتاب الأصنام لأبي المنذر هشام بن محمد السائب بن بشر الشهير بابن الكلبي، وما لم يذكر منها فيه ننبه عليه، وقد نعزوه على مأخذه ونكتفي فيما ذكره أحمد بن فارس .. وفيما ذكره ابن سيده في «المخصَّص» بقولنا عن المخصَّص، وفيما ذكره السيد مرتضى في «تاج العروس» شرح القاموس بقولنا عن تاج العروس فنقول:

آزر: صنم عبدته العرب في الجاهلية (عن تاج العروس).

إساف ونائلة:

صنمان عبدتهما العرب وكانوا ينحرون ويذبحون عندهما.

حكي ابن المنذر عن أبي صالح عن ابن عباس أنَّ إساف بن يعلى رجل من جُرهم كان يتعشَّق نائلة بنت زيد من جُرهم[١] في أرض اليمن، فأقبلا حاجين فدخلا الكعبة فوجدا غفلةً من الناس وخلوا في البيت ففجر بها في البيت فمُسخا فأصبحوا فوجدوهما مسخين فأخرجوهما فوضعوهما موضعهما ليتَّعظ الناس بهما، فلمَّا طال مكثهما وعُبدت الأصنام عُبدا معها!

وكان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم فنقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة إلى الآخر فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب.

وحكى ابن العربي عن ابن إسحاق أنَّ إسافًا ونائلة بعد مسخهما وُضع أحدهما على الصفا والآخر على المروة لينزجر الناس عن مثل ما ارتكبا، فلم يزل الأمر يدرس ويتقادم حتى صار يتمسَّح بهما من وقف من الصفا والمروة، فلمَّا كان عمرو بن لحي أمر بعبادتهما وتعظيمهما والتمسُّح بهما.

---

(١) في سيرة ابن هشام: إساف بن بغي ونائله بنت ديك، وفي الملل للشهرستاني: إساف بن عمرو ونائلة بنت سهيل، وفي الأغاني عن عثمان بن ساج عن أبي الزناد إساف بن سهيل ونائلة بنت عمرو بن ذئب، وقال غيره نائلة بنت ذئب.

وقال: إنهما كانا معبودين لِمن قبلكم، فلمّا كان قصي بن كلاب حولهما من الصفا والمروة فجعل أحدهما لصقًا بالكعبة وجعل الآخر في موضع زمزم، وكان يطرح بينهما ما يهدي للكعبة، وكان يسمى ذلك الموضع «الحطيم»، وكان يُنحر عندهما ويُذبح، ولم تكن تدنو منهما امرأة طمثت، وفي ذلك يقول بشر بن أبي حازم الأسدي أسد خزيمة:

عَلَيهِ الطَّيرُ مَا يَدنُونَ مِنهُ   مَقَامَاتُ العَوَارِكِ مِن إسَافِ

فكان الطائف إذا طاف بالبيت يبدأ بإساف ويستلمه، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائله فاستلمها، فكان كذلك حتى كسرهما رسول الله مع الأصنام يوم فتح مكة.

وفي عتبة باب السلام الخارجية أحد أبواب المسجد الحرام حجر عظيم يشبه درجة سلم غير منتظم تطؤه النعال يقول أهل مكة أنه إساف، ذلك الصنم.

الأسحَم: صنم عبدته العرب (عن تاج العروس).

الأشهَل: صنم، وبه سُمي «عبد الأشهل» أبو حي من العرب (عن تاج العروس).

الأقيصر: قال أبو المنذر: هو صنم كان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان، وكان في مشارف الشام، فكانوا يحجون إليه ويحلقون رءوسهم عنده، فكان كلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كلّ شعرة قرَّة من دقيق – والقرّة القبضة – فكانت هوازن تنتابهم في ذلك الأبان، فإن أدركه

أحدهم قبل أن يلقي القرة مع الشعر قال: أعطنيه، فإني من هوازن ضارع، وإن فاته أخذ ذلك الشعر بما فيه من القمل والدقيق فخبزه وأكله.

وفي الأقيصر يقول زهير بن أبي سلمي:

حلفتُ بِأنصَابِ الأُقَيصَرِ جَاهِدًا وَمَا سُحِقَت فِيه المَقَادِيمُ وَالقُمَّلُ

أوال: صنم لبكر وتغلُب (عن تاج العروس).

باجَر: بالجيم المفتوحة، وربما كسرت، صنم كان للأزد ومن جاورهم من طيء وقضاعة.

البجة: صنم عبدته العرب (عن تاج العروس).

بس: بيت لغطفان.

بعل: صنم كان لقوم إلياس عليه السلام (عن أحمد فارس).

البعيم: صنم (عن تاج العروس).

بلج: صنم (عن تاج العروس).

بوانة: صنم عبدوه، رُوي عن أمِ أيمن أنهم كانوا في الجاهلية يجعلون لهم عيدًا عند بوانة، وهو صنم تعبده قريش وتُعظِّمه وتنسك، أي تذبح له وتحلق عنده وتعكف عليه يومًا على الليل في كلِّ سنة، فكان أبو طالب يحضر مع قومه ويكلم رسول الله أن يحضر ذلك العيد معه فيأبى ذلك.

قالت: حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عمَّاته غضبن عليه أشدَّ الغضب، وجعلن يقلن إنَّا نخاف عليك ممَّا تصنع من اجتناب آلهتنا وما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدًا ولا تكثر لهم جمعًا، فلم

يزالوا به حتى ذهب معهم ثم رجع فَزِعًا مرعوبًا، فقلن ما دهاك؟.. فقال: إني أخشى أن يكون بي لمم (جمع لمَّة،وهي المس من الشيطان)، فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان، وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟.. قال: إني كلّما دنوت من صنم من تلك الأصنام التي عند ذلك الصنم الكبير الذي هو بوانة تمثّل لي رجل أبيض يصيح بي وراءك يا محمد لا تمسّه.

قالت أم أيمن: فما عاد إلى عيدهم حتى تنبَّأ ﷺ .. وتلك إحدى إرهاصاته.

تيم: صنم كانت تعبده بنو تميم في الجاهلية.

قال أبو عبيدة: تميم كلُّها كانت في الجاهلية يُقال لها عبد تيم (عن الأغاني).

الجبهة: صنم كان يُعبَد في الجاهلية (عن تاج العروس).

جريش: كأمير، صنم عُبد في الجاهلية، وإليه نُسب «عبد جريش» والد عبد قيس (عن تاج العروس).

الجلسد: صنم عُبد في الجاهلية كما في «المُخصَّص» لابن سيده .. قال الشاعر:

فَبَاتَ يَجتَابُ شُقارى كَمَا ... بَيقَرَ مَن يَمشي إِلَى الجلسَدِ[1]

---

(١) الشقارى : شقائق النعمان، و«بيقر» أسرع مطأطئا رأسه.

جهار: صنم كان لهوازن (عن تاج العروس).

الدَّار: صنم سُمي به عبد الدار بن قصي بن كلاب أبو بطن من العرب (عن تاج العروس).

دوار: قال البغدادي في «خزانة الأدب»: دَوار بالفتح صنم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف بالبيت الحرام .. قال امرؤ القيس:

فَعَنَّ لَنَا سِربٌ كَأنَّ نِعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مُلاَءٍ مُذَيَّلِ[1]

يقول: إنَّ هذا القطيع من البقر يلوذ بعضه ببعض ويدور كما تدور العذارى حول دوار، وهو نسك كانوا في الجاهلية يدورون حوله.

وقال العسكري في «التصحيف»: **ويُروى «دُوار» بدال مضمومة و«دَوار» بدال مفتوحة وواو مخفَّفة**[2]**، وهو نسك كان لهم في الجاهلية يدار حوله**، ويطلق الدوار على الطواف، قال أبو المنذر: وكانت للعرب حجارة غير منصوبة يطوفون بها ويعتمرون عندها يسمونها «الأنصاب»، ويسمون الطواف بها «الدوار»، في ذلك يقول عامر بن الطفيل: وأتى غني بن أعصر يومًا وهم يطوفون بنصب لهم فرأى في فتيلتهم جمالاً وهن يطفن به فقال:

ألا يا لَيتَ أخوالي غَنِيًّا عَلَيهِم كُلَّما أَمسَوا دُوارُ

---

(١) السِّرب: قطيع من ظباء أو بقر أو شاء أو نساء أو قطا، و«الملاء» بضم الميم جمع ملاءة، وهي الملحفة، و«المذيل» السابغ.

(٢) في القاموس: الدوار ككتان ويضم صنم ويخفف.

وقال في ذلك المثقب العبدي لعمرو بن هند:

يُطيفُ بِنُصبِهِم حُجنٌ صِغارٌ   فَقَد كادَت حواجِبُهُم تَشيبُ [١]

ذو الخَلَصة: بفتحات الخاء المعجمة واللام والصاد المهملة بيت لخثعم كان يُدعى «الكعبة اليمانية»، وكان فيه صنم يدعي «الخلصة».

وقيل اسم البيت «الخلصة» واسم الصنم «ذو الخلصة».

وحكى المبرد أنَّ موضع «ذي الخلصة» صار مسجدًا جامعًا لبلدة يُقال لها «العبلات» من أرض خثعم.

وقال أبو المنذر: إنَّ **«ذا الخلصة» كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج وكانت بتبالة بين مكة واليمن مسيرة سبع ليال من مكة، وكان سدنتها بنو أمامه من باهلة بن أعصر، وكانت تعظمها وتهدي لها خثعم وبجيلة وازد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوزان ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة.**

وفيها يقول خداش بن زهير العامري لعثعث[٢] بن وحشي في عهد كان بينهم فغدر بهم:

وَذَكَّرتُهُ بِاللَهِ بَيني وَبَينَهُ   وَما بَينَنا مِن مُدَّةٍ[٣] لَو تَذَكَّرا

وَبِالمَروَةِ البَيضاءِ يَومَ تَبالَةٍ   وَمَحبَسَةِ النُعمانِ حَيثُ تَنَصَّرا

---

(١) حجن: صبيان.

(٢) خزانة الأدب للبغدادي لعقبة.

(٣) رواية خزانة الأدب من هذه.

فلما فتح رسول الله ﷺ مكة وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها قدم عليه جرير بن عبد الله مسلما فقال له: يا جرير، ألا تكفيني ذا الخلصة؟

فقال: بلى، فوجَّهه إليه فخرج حتى أتى بني أحمس من بجيلة فسار بهم إليه فقاتلته خثعم وباهلة دونه فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مائة رجل وأكثر القتل في خثعم وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر بن خثعم فظفر بهم وهزمهم وهدم بنيان ذي الخلصة وأضرم فيه النار فاحترق.

وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تبالة.

وبلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قال:**لا تذهب الدنيا حتى تصطكَّ إليات نساء دوس على ذي الخلصة يعبدونه كما كانوا يعبدونه».**

وكان يُحجُّ إليه ويُهدى له .. روى العباس أحمد بن يحيي ثعلب أنَّ المنتشر بن وهب الباهلي خرج يريد حجَّ ذي الخلصة ومعه غلمة من قومه، وكان بنو نفيل بن عمرو بن كلاب أعداء له، فلما رأوا مخرجه وعورته وما يطلبه به بنو الحارث بن كعب وطريقه عليهم، وكان من حجَّ ذا الخلصة أهدى له هديا يتحرَّم به ممَّن لقيه، فلم يكن من المنتشر هدى، فسار وأنذر بنو نفيل بالمنتشر بني الحارث بن كعب وأراد قتالهم فأمنوه، وكان قد أسر رجلاً منهم يُقال له هند بن أسماء ابن زنباع، فسأله أن يفدي نفسه فأبطأ عليه فقطع أنمله، ثم أبطأ فقطع منه أخرى، وقد أمنه

القوم ووضع سلامه فقال: أتؤمنون مقطعًا وإلهي لا أؤمنه؟.. ثم قُتل فرثاه أخوه لأمِّه أعشى باهلة بقصيدته التي يقول في مطلعها:

إنِّي أتتني لِسَانٌ مَا أُسَرُّ بها من عَلوَ لا عَجَبٌ فِيهَا ولا سَخَرُ[1]

إلى أن قال:

أصَبْتَ في حُرُمٍ مِنَّا أخَا ثِقَةٍ هِنْدَ بْنَ سَلْمَى فَلاَ يَهْنَا لَكَ الظَّفَرُ

خاطب قاتل المنتشر بقوله: «أصبت منا أخا ثقة» في حرم، وهو حرم ذي الخلصة.

وروى البخاري بسنده عن جرير قال: **كان بيت في الجاهلية يقال له «ذو الخلصة» و«الكعبة اليمانية» و«الكعبة الشآمية»، فقال لي النبي ﷺ: ألا تريحني من ذي الخلصة؟.. فنفرت في مائة وخمسين راكبًا فكسرناه، واستشكله بعض المحدثين بأنَّ معناه كان يقال الكعبة اليمانية والشامية، يعنون بـ«الشامية» البيت الحرام، فزيادة «له» سهو، وبإسقاطه يصحُّ المعنى.**

وأجاب عنه السهيلي بأنَّ الحديث في جامع البخاري بزيادة «له» كما في صحيح مسلم وليست «له» بمزيده سهوًا؛ إذ المعنى كان يقال له،

---

(١) اللسان: الرسالة، وأراد بها نعي المنتشر، و«سُخُر» بضمتين، أي أتاني رسالة من أعلى نجد لا أعجب منها، وإن كانت عظيمة لأنَّ مصائب الدنيا كثيرة.

أي يقال من أجله الكعبة الشامية للكعبة وهو الكعبة اليمانية، و«له» بمعنى «من أجله» لا تنكر كما قال ابن أبي ربيعة:

وَقُمَيرٌ بَدَا ابْنُ خَمسٍ وَعِشْرِيـ ـنَ لَهُ قَالَتِ الفَتَاتَانُ قُومَا

ذو الشرى: صنم كان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد.

ذو الكعبات: بيت كان لربيعة كانوا يطوفون به كما في «تاج العروس»، وكان بسنداد، وفيه يقول أعشى بني قيس بن ثعلبة:

بَينَ الخَوَرنَقِ وَالسَّدِيرِ وَبَارِقٍ وَالبَيتِ ذِي الكَعبَاتِ مِنْ سِنْدَادِ

ذو الكفَّين: صنم كان لبني منهب بن دوس، فلمَّا أسلموا بعث النبي ﷺ الطفيل بن عمرو الدوسي، فجعل يلقي النار في وجهه ويحرقه ويقول:

يَا ذَا الكَفَّينِ لَستُ مِن عِبَادِكَا مِيلاَدُنَا أَكبَرُ مِن مِيلاَدِكَا

إِنِّي حَشَوتُ النَّارَ فِي فُؤَادِكَا

الرَّبة: اللات، وكعبة كانت بنجران لمذحج، وبني الحارث بن كعب (عن تاج العروس).

رضاء: بيت لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، ولها يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب حين هدمها في الإسلام.

وَلَقَد شَدَدتُ عَلَى رُضَاءٍ شَدَّةً فَتَرَكتُهَا قَفرًا بِقَاعٍ أَسحَمَا

وَدَعَوتُ عَبدَ اللَّهِ فِي مَكرُوهِهَا وَلَمِثلُ عَبدُ اللَّهِ يَغشَى المَحرَمَا

رئام: هو بيت كان بصنعاء لحِمير، وأهل اليمن يُعظِّمونه وينحرون عنده ويكلمون منه فيما يذكرون، فلما انصرف تُبع من مسيره الذي سار فيه إلى العراق قدم معه الحبران اللَّذان صحباه من المدينة فأمراه بهدم رئام وقالا: إنما هو شيطان يفتنهم، فخلّ بيننا وبينه قال: شأنكما، فنشر التوراة وجعل يقرآنها وهدماه .. قال ابن إسحاق: فبقاياه اليوم كما ذكر لي بها آثار الدماء التي كانت تُهرق عليه.

السجّة: صنم كما في القاموس.

سعد: قال أبو المنذر:

هو صنم كان لبني مالك وملكان لبني كنانة ومكانة بساحل جدة وتلك الناحية وكان سعد صخرة طويلة فأقبل رجل من بني ملكان بأبل له ليقفها عليه ابتغاء بركته، فلما أدناها منه ورأته وكان يهراق عليه الدماء نفرت منه فذهبت في كل وجه فغضب ربها فتناول حجرا فرماه به وقال لا بارك الله فيك الها أنفرت على ابلي ثم خرج في طلبها حتى جمعها ثم انصرف وهو يقول:

أَتَينَا إِلَى سَعدٍ لِيَجمَعَ شَملَنَا فَشَتَّتَنَا سَعد فَلاَ نَحنُ مِنْ سَعدِ
وَهَلْ سَعدُ إلاَّ صَخرَةٌ بِتَنُوفَةٍ مِن الأَرضِ لاَ يَدعُو لِغِيٍّ وَلاَ رُشدِ

سعد: صنم أيضًا كان لمذحج (عن أحمد فارس).

سعد: صنم أيضًا كانت تعبده هذيل (عن المخصَّص).

السعيدة: بيت بُني بجبل أحُد كانت تحجُّه ربيعة في الجاهلية (عن المخصَّص).

سُعَير: بصِيغة التصغير صنم كان لعنزة قال أبو المنذر خرج جعفر بن أبي خلاس الكلبي على ناقته فمر به وقد عترت عنزة عنده فنفرت ناقته منه فأنشأ يقول:

نَفَرتْ قَلوصي من عتائرَ صُـرِّعتْ حولَ السُّعَيْرِ تَزوره ابنة يقْدُمِ[1]

وجموعُ يَـذْكُرَ مهطِعين جَنَابَـه مَـا إنْ يُحيرُ إليهمُ بِتَكلُّمِ

سواع: قال أبو المنذر: وكان أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم وسموها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل هذيل بن مدركة[2]، اتَّخذوا سواعًا، وذلك أنَّ عمرو بن لحي دفع

---

(١) يقدم ويذكر ابنا عنزة، رأى الشاعر بني هؤلاء يطوفون حول السعير.

(٢) مقتضاه إن ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا هي غير ما عبده قوم نوح، بل مطابقة لها في الإسلام، وفي «المستطرف» إنها أصنام قوم نوح لقوله: ﴿وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، وأما يغوث ويعوق ونسر فقيل أنهم كانوا أولاد آدم عليه السلام، وكانوا أتقياء عبادًا، فمات أحدهم فحزنوا عليه حزنًا شديدًا، فأرادوا أن يصوروا صورته ليذكروه إذا نظروه، فصوَّروه من صفر ونحاس، وجعلوه في مؤخرة المسجد كراهة أن يكون في قبلته، ثم مات آخر ففعلوا به ذلك، إلى أن ماتوا كلُّهم فصوروهم هناك وأقام مَن جاء بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وعبدوها، حتى بعث الله نوحا عليه السلام فنهاهم عن عبادتها .. ولمَّا عمَّ الطوفان الأرض طمَّها وعلا عليها التراب زمنًا طويلاً، ثم أخرجها مشركو العرب فعبدوها .. وذكر الواحدي في الوسيط أنَّ هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام، فسوَّل الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوِّروا صورهم ليكون أنشط لهم وأشوق للعبادة كلما رأوهم، ففعلوا ثم نشأ بعدهم جهال بالأحوال فحسن لهم عبادتها =

دفع للحارث ابن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر سواعًا، فكان لهم برهاط من أرض ينبع يعبدوه من يليه من مضر بن نزار، وكانت سدنته بن لحيان وكانوا يحجُّون إليه وينحرون عنده ويعكفون عليه، وفي ذلك يقول الشاعر:

تَـراهُم حَـولَ قِبلَـتِهِم عُكُوفًـا ... كَمَا عَكفَـتْ هَـذِيلُ عَلَـى سِـوَاعِ

تَظَـلُّ جَنَابُـهُ صَـرْعَى لَدَيـهِ ... عَتَـائِرِ مِـن ذَخَـائِرِ كُـلِّ رَاعِ

وقد بعث رسول الله ﷺ لهدمه عمرو بن العاص .. قال عمرو:

فلمَّا انتهيت إليه وعنده السادن فقال: ما تريد؟.. فقلت: أمرني رسول الله أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لِمَ؟ قال: تُمنَع، فقلت: ويحك، وهل يسمع أو يبصر؟

قال: فدنوت منه فكسرته ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

الشَّارق: صنم كانت تعبده هذيل، وبه سُمي عبد الشارق (عن تاج العروس).

شمس: صنم قديم كان في الجاهلية، وبه سُمي عبد شمس، وهو بطن من قريش، وأول من تسمَّى به سبأ بن يشجب (عن تاج العروس).

- فعبدوها .. ومقتضاه أن تكون هذه الأصنام تماثيل إنسانية .. لكن نقل الواقدي أنَّ وُدًّا كان على صورة رجل وسواعًا على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسرا على صورة نسر، وهذا يصحِّح ما ذكره أبوا المنذر وابن إسحق من أنَّ الأصنام المذكورة ليست هي الأصنام التي عبدها قوم نوح وإنما سُميت بأسمائها.

ضمار[1]: صنم عبدَهُ العباس بن مرداس ورهطه (سيرة ابن هشام).
الضميئرن: صنم كان يُعبد من دون الله في الجاهلية (عن المخصَّص).
الضيزنان: صنمان كانا للمنذر الأكبر، كان اتَّخذهما بباب الحيرة ليسجد لهما من دخل الحيرة امتحاناً للطاعة (عن المخصَّص).
عائم: بالهمز صنم كان لأزد السراة، وأقسم زيد الخير به فقال:

تُخَبِّرُ مَن لاَقَيتَ أن قَد ولَم تَدرِ ما سِيمَاهُم لاَ وَعَائِمِ

عبدة مرحب: صنم كان بحضرموت.
عبعب: بالعين المهملة - ويقال بالمعجمة - صنم كانت قضاعة تعبده (عن المخصَّص).
العزَّى: صنم عبدته العرب واتخذ عليه بيت .. قال أبو المنذر: وهي أحدث من اللات ومناة، وذلك أني سمعت العرب سمَّت بهما قبل العزَّى، فوجدت تميم بن مر سمَّى ابنه زيد مناة بن تميم بن مر بن أد بن طابخة، وعبد مناة ابن أد، وباسم اللات سَمَّي ثعلبة بن عكابة ابنه «تيم اللات»، وتيم اللات بن رفيدة ابن ثور وزيد اللات بن رفيدة بن ثور بن وبرة بن مر بن أد بن طابخة، وتيم اللات بن النمر بن قاسط وعبد العزَّى بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، فهي أحدث من الأوليين.

---

(١) قال السهيلي ضمار بكسر الراء مثل حذام ورقاش ولا يكون مثل هذا البناء إلا في أسماء المؤنث وكانوا يجعلون آلهتهم إناثا كاللات والعزة ومناة لاعتقادهم الخبيث في الملائكة انها بنات.

وعبد العزَّى بن كعب من أقدم ما سمَّت به العرب، وكان الذي اتخذ العزَّى ظالم بن أسعد[1]، وكانت بوادٍ من نخلة الشامية يقال له حراض بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، فبنى عليها بيتًا وكانوا يسمعون فيه الصوت، وكانت العرب وقريش تسمِّي بها، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويتقرَّبون عندها بالذبائح، وكانت قريش قد حمت لها شعبًا من وادي حراض يقال له «سقام» يُضاهون به حرم الكعبة، فذاك قول أبي جندب الهذلي في حلف امرأة كان يهواها بها:

لَقَد حلفتُ جَهدًا يَمينًا غَلِيظَةً ... بِفَرعِ الَّتِي أحمَتْ فُرُوعَ سِقَام

وكان لها منحر ينحرون فيه هداياها يقال له «الغُبغُب»[2] وفيه يقول نهيكة الفزاري لعامر بن الطفيل:

يَا عَامُ لَو قَدَرَت عَلَيك رِمَاحُنَا ... وَالرَّاقِصَاتُ إِلَى مِنَى فَالغُبغُبِ

وكانت قريش تخصها بالإعظام، فلذلك يقول زيد بن عمرو بن نفيل، وكان قد تألَّه في الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام:

تَرَكتُ اللاَّتَ وَالعُزَّى جَمِيعًا ... كَذَلِكَ يَفعَلُ الرَّجُلُ الصَّبُور

---

(١) ننقل عن ابن العربي عند الكلام على اللات أن أول من دعا لعبادة العزى عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب.

(٢) قال السهيلي: «الغبغب» هو المنحر ومراق الدم، كأنه سمي بحكاية صوت الدم عند انبعاثه.

فَـلاَ العُـزَّى أدِيـنُ وَلاَ ابْنَتَيْهَـا[1] وَلاَ صَـنَمَي بَنِـي غَـنَمٍ أزُور

وَلاَ هُـبَلاً أزُورُ وَكَـانَ رَبًّـا لَنَا فِي الدَّهْرِ إذْ حِلمِي صَـغِير

وكان سدنة العزّى بنو شيبان بن جابر بن مرة من بني سليم، وكان آخر من سدنها منهم دبية بن حرمي السلمي.

فلم تزل العزّى كذلك حتى بعث الله نبيه فعابها وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها فاشتدّ ذلك على قريش، ومرض أبو أحيحة مرضه الذي مات فيه فدخل عليه أبو لهب يعوده فوجده يبكي فقال: ما يبكيك يا أبا أحيحة، أمن الموت تبكي ولا بدّ منه؟!

قال: لا، ولكني أخاف ألاَّ تُعبَد العزّى بعدي.

قال أبو لهب: والله ما بعدت حياتك لأجلك ولا تُترك عبادتها بعدك لموتك.

فقال أبو أحيحة: الآن علمت أنّ لي خليفة، وأعجبه شدة نصبه في عبادتها، فلما كان يوم الفتح دعا النبي خالد بن الوليد فقال: انطلق إلى شجرة ببطن نخلة فأعضدها، فانطلق فقتل دبية سادنها.

وذكر ابن هشام أنها كانت بيتًا يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومضر، فلما علم سادنها السلمي بمسير خالد إليها علق سيفه وأسند في الجبل الذي هي فيه وهو يقول:

---

(١) رواية ولا ابتغيها.

أَيَا عُـزُّ شُدِّي شَـدَّةً لاَ شـوَى عَلَى خَالِدٍ أَلقِي القِنَـاعَ وَشَـمِّرِي
فَإنَّــكِ إلاَّ تَقتُلِــي اليَـومَ خَالِـدًا فَبُــوئِي بِــذُلٍّ عَـاجِلاً وَتَنَصَّـرِي

فلما انتهى إليها خالد هدمها.

وقال بعضهم إنَّ خالدًا حمل على العزَّى وهو يقول:

يَا عُـزُّ كُفرَانَكِ لاَ سُبحَانَك إنِّي رَأيتُ اللهَ قَد أَهَانَك

ثم قتل دبية السادن وقطع الشجرة.

وكان من سدنتها أفلح بن النضر السليمي من بني سليم .. حكى سعيد بن عمرو الهذلي أنَّ أفلح سادنها لمَّا حضرته الوفاة دخل عليه أبو لهب يعوده وهو حزين فقال:

ما لي أراك حزينا.

قال: أخاف أن تضيع العزَّى بعدي.

فقال له: لا تحزن، فإني أقوم عليها بعدك.

فجعل أبو لهب يقول لكلٍّ من لقي: إن تظهر العزَّى كنت قد أخذت عندها يدًا، وإن يظهر محمد على العزَّى وما أراه يظهر .. فأنزل الله تعالى:﴿ تَبَّت يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَب﴾.

وروى ابن العربي من حديث أبو الوليد أنَّ سدنة العزَّى بنو شيبان بن سليم حلفاء بني هاشم، وكانت قريش وبنو كنانة وخزاعة وجميع

---

(١) رواية خزانة الأدب. عزاي شدي شدة لا تكذبي.

مضر تعظّمها، فإذا فرغوا من حجّهم وطوافهم بالكعبة لم يحلّـوا حتـى يأتوا العزّى فيطوفون بها ويحلون عندها ويعكفون عندها يومًا.

وقال أبو المنذر: ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها مـن العـرب يعظمون شيئًا من الأصنام إعظامهم العزّى ثم اللات ثم مناة، أمّا العـزّى فكانت تخصُّها دون غيرها بالزيارة والهدية، وذلك فيما أظنُّ لقربها منها، وكانت ثقيف تخصُّ اللات كخاصـة قـريش العـزّى، وكانـت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء الآخرين، وكلهم كان مُعظّمًا للعزى، ولم يكونوا يرون في الخمسة الأصنام التي دفعها عمرو بن لحي، وهـي التي ذكرها الله تعالى في القرآن المجيد حيث قـال: ﴿وَلاَ تَذرُنَّ ودًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، كرأيهم في هذه ولا قريبًا من ذلـك، فظننت أنَّ ذلك كان لبعدها منهم، وكانت قريش تعظّمها، وكانت «غنـى» و«باهلة» يعبدونها معهم.

وروى ابن العربي بسنده عن ابن عباس أنَّ خالد بن الوليد بعـد أن هدم العزّى رجع إلى رسول الله وقال: الحمد لله الذي أكرمنـا بـك يـا رسول الله وأنقذنا من الهلكة، لقد كنت أرى أبي يأتي العزّى بخير مالـه من الإبل والغنم فيذبحها للعزّى ويُقيم عندها ثلاثـًا ثـم ينصـرف إلينـا مسرورًا، فنظرت إلى ما مات أبي عليه، وإلى ذلك الرأي الـذي كـان يعيش في فضله حتى يذبح لِما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع.

فقال رسول الله: إنَّ هذا الأمر إلى الله، فمن يسَّره للهدى تيسَّر لـــه، ومن يسَّره للضلالة كان لها.

وكان هدمها لخمس ليالي بقين من رمضان ســنة ثمــان .. وجــاء حسَّان بن ثابت الأنصاري إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد فقال: يــا رسول الله، ائذن لي أقول، فإني لا أقول إلاّ حقًّا، فقال: قل .. فانشأ يقول:

شَهِدتُ بِــإِذنِ اللَــهِ أنَّ مُحَمَّــدًا   رَسولُ الَّذي فَوقَ السَماواتِ مِــن

فقال النبي ﷺ وأنا أشهد، فقال حسان:

وَأَنَّ أَبا يَحيــى وَيَحيــى كِلَيهِمــا   لَهُ عَمَلٌ في دينِهِ مُتَقَبَّلُ

فقال عليه الصلاة والسلام: وأنا أشهد فقال حسان:

وَأَنَّ الَّذي عادى اليَهــودَ اِبــنَ   رَسولٌ أَتى مِن عِنــدِ ذي العَــرشِ

فقال عليه الصلاة والسلام: وأنا أشهد فقال حسان:

وَأَنَّ أَخا الأَحقافِ إِذ يَعذِلونَهُ   يُجاهِدُ في ذاتِ الإِلَهِ وَيَعدِلُ

فقال عليه الصلاة والسلام وأنا أشهد فقال حسان:

وَأَنَّ الَّتي بِالسَدِّ مِن بَطنِ نَخلَــةٍ   وَمَن دانَها فِلٌّ مِنَ الخَيرِ مَعــزِلُ [1]

فقال عليه الصلاة والسلام: وأنا أشهد.

قال سفيان: يعني العزّى.

---

(١) قال هشام: الفل من الأرض المجدبة التي لا خير فيها ولا بركة فشبهها بذلك.

عُميانس[1]: قال أبو المنذر:

وكان لخولان صنم يقال له «عميانس» بأرض خولان يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسمًا بينه وبين الله تعالى بزعمهم، فما دخل في حقٍّ الله تعالى من حقٍّ عميانس ردُّوه عليه وما دخل في حقٍّ الصنم من حقٍّ الله الذي سمُّوه له تركوه!

وذكر اليعمري في «عيون الأثر» وابن هشام في سيرته أن اسمه «عم انس»، وقد تبعهما أحمد البدوي الشنقيطي في كتابه «عمود النسب»، فقال بعد ذِكر خولان:

أَضَلَّهُم صَنَمُهُم عَمّ أَنَس — كَانُوا إِذَا مَا الغَيثُ عَنهُم احتَبَس

تَوسَّلُوا إِلَيهِ بِالذَّبَائِحِ — فَأمْطَرُوا وَأعظِم القَبَائِح

إنْ جَعَلُوا لَهُ وَللهِ نَصِيب — مِن مَالِهِم وَإن تَغَيَّبَ النَّصِيب

أعطِي لِلصَّنَمِ حَظٌّ الله — وَحَظُّهُ لَمْ يُعطَ لِلإلَه

ومن حديث هذا الصنم أنَّ النبي ﷺ قال لخولان:

ما أعظم ما رأيتم من فتنته!

قالوا له: يا رسول الله، لقد رأيت حالنا وقد أكلنا الرِّمة وهلكت ثاغيتنا وراغيتنا وحافرنا فقلنا: قرِّبوا لعميانس قربانًا يشفع لكم فتغاثوا فتعلونا، فجمعنا ما قدرنا عليه من عين مالنا ثم ذهب ذاهبنا فابتاع مائة ثور ثم

---

(١) في القاموس: «عُميانس» بالضم والياء المثناة تحت بعدها الف ونون صنم لخولان.

حشرها علينا فنحرناها في غداة واحدة وتركناها للسباع ونحن أحوج إليها من السباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا، فأيُّ فتنةٍ أعظم من هذه؟.. فلقد رأينا الغيث يواري الرجال، ويقول قائلنا: أنعم علينا عميانس .. وسألوه ﷺ عمّا قسموا له من مالهم فذكر لهم أنَّ الله أنزل عليه في ذلك: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق أنَّ ذلك الصنم كان لبطن من خولان يقال لهم الأديم.

عوض: ذكر ابن هشام أنَّ ابن الكلبي لم يذكره في كتاب الأصنام، وقال: «عوض» اسم صنم كان لبكر بن وائل، وفيه يقول رشيد بن رميض بالتصغير فيهما العنزى:

حَلَفتُ بِمَائِرَاتٍ حَولَ عِوَضٍ وَأَنصَابٍ تُركنَ لَدَى السَّعِيرِ

حلف بالأنصاب التي حول السعير وبالدماء الجاريات حوله وكانوا يذبحون للأصنام (عن البغدادي في خزانة الأدب).

العوف: صنم (عن القاموس).

غُبغُب: انظر عبعب.

غمدَان: بيت غمدان بناه الضحَّاك بمدينة صنعاء اليمن على اسم الزهرة وخربة عثمان ذو النورين (عن الملل والنحل للشهرستاني).

الفَلس: قال أبو المنذر:

وكان لطيء صنم يُقال الفلس، وكان أنفًا أحمر في وسط جبلهم الذي يُقال له أجأ اسود كأنه تمثال إنسان، وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويعترون عنده عتائرهم ولا يأتيه خائف إلاَّ أمن عنده، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلاَّ تُركت له، وكانت سدنته بنو بولان وهو الذي بدأ بعبادته، فكان آخر من سدنه منهم رجل يقال له «صيفي» فأطرد ناقة خلية[١] لامرأة من كلب من بني عليم وكانت جارة لمالك ابن كلثوم الشمجي، وكان شريفًا فانطلق بها حتى وقفها بفناء الفلس، وخرجت جارة مالك فأخبرته بذهابه بناقتها فركب فرسًا عربيًّا وأخذ رمحه وخرج في أثره فأدركه وهو عند الفلس والناقة موقوفة عند الفلس، فقال له: خلٍّ سبيل ناقة جارتي، فقال: إنها لربِّك، قال: خلٍّ سبيلها، قال: أتخفر إلهك؟ فبوَّأ له الرمح[٢] فحلَّ عقالها وانصرف بها مالك، وأقبل السادن على الفلس ونظر إلى مالك ورفع يده وقال وهو يشير بيده إليه:

---

(١) الخلية: من معانيها الناقة التي تنتج وهي غرير فيجر ولدها من تحتها فيجعل تحت أخرى وتخلى هي للحلب.

(٢) بوأ الرمح نحوه: قابله به.

يَا رَبَّ إنَّ مَالِكَ بنَ كَلثُومِ أخفَرَكَ اليَومَ بِنَابِ علكُومِ[1]
وَكُنتُ قَبلَ اليَومِ غيرَ مَغشُومِ

يحرضه عليه وعدي بن حاتم يومئذ قد عتر عنده، وجلس هو ونفر معه يتحدثون بما صنع مالك، وفزع لذلك عدي بن حاتم وقال: انظروا ما يصيبه في يومه هذا؟

فمضت له أيام لم يُصبه شيء، فرفض عدي عبادته وعبادة الأصنام وتنصَّر، فلم يزل متنصِّرًا حتى جاء الله بالإسلام فأسلم، فكان مالك أول من أخفره، فكان بعد ذلك السادن إذا أطرد طريدة أخذت منه، فلم يزل الفلس يُعبد حتى ظهرت دعوة النبي ﷺ فبعث إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فهدمه وأخذ سيفين كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان قلَّده إياهما يقال هما «مخذم» و«رسول»، فقدم بهما علي بن أبي طالب على النبي ﷺ فتقلَّد أحدهما ثم دفعه إلى علي بن أبي طالب، فهو سيفه الذي كان يتقلَّده.

القُلَّيس: كنيسة بناها أبرهة الأشرم.

القيس: صنم لم يذكره ابن الكلبي، وبه سُمِّي «امرؤ القيس»، أي رجل ذلك الصنم؛ ولذلك كان الأصمعي يكره أن يروي قوله في معلقته «عقَرتُ بَعيرِي يَا امرَأ القَيسِ فَانزِل» فكان يقول «يا مرَأ الله».

---

(١) أخفره: نقض عهده وغدره، و«الناب» الناقة المسنة، و«العلكوم» الشديدة.

كثري: صنم لجديس وطسم، كسره نهشل الربيش بن عرعرة ولحق بالنبي ﷺ فأسلم وكتب له كتابًا، وقال عمرو بن صخر بن أشنع:

حلفتُ بِكثرَى حلفةً غيرَ بَرَّةٍ   لَتَستَلِبَنَّ أثوابَ قَيسِ بنِ عَازِبِ

الكسعة: صنم عبدوه في الجاهلية (عن تاج العروس).

الكعبة: هي بيت الله الحرام، وهو أول بيت وضع للناس مباركًا وهدى للعالمين، بناه بالوحي الإلهي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

قال الشهرستاني:**وكذب من قال إنَّ بيت الله الحرام أنما هو بيت زحل بناه الباني الأول على طوالع معلومة واتصالات مقبولة وسمَّاه «بيت زحل»، ولهذا المعنى اقترن الدوام به بقاء والتعظيم له لقاء؛ لأنَّ زحل يدل على البقاء وطول العمر أكثر ممًا يدل عليه سائر الكواكب، وهذا خطأ؛ لأن البناء الأول كان مستندًا إلى الوحي على يدي أصحاب الوحي.**

كعبة نجران: كانت لبني الحارث.

قال أبو الفرج الأصبهاني: إنها بيعة بناها بنو عبد المدان على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة وسمُّوها «كعبة نجران».

وكان فيها أساقفة يقيمون، وهم الذين جاءوا على النبي ودعاهم إلى المباهلة.

وقيل إنها قبَّة من ثلاثمائة جلد لعبد المسيح بن دارس بن عدى، وسمَّتها العرب «كعبة نجران» لأنهم كانوا يقصدون زيارتها كما يقصدون زيارة الكعبة، فكان إذا نزل بها مستجير أجير أو خائف أمن أو

مسترفد أعطى ما طلب أو جائع شبع أو طالب حاجة قضيت .. وفيها يقول الأعشى يخاطب ناقته:

فَكَعبَةُ نَجرَانَ حَتمٌ عَلَيـ ـكَ حَتَّى تُنَاخِي بِأبوَابِهَا
نَزُورُ يَزِيدَ وَعَبدَ المَسِيحِ وَقَيسًا هُمُو خَيرَ أربَابِهَا

قال أبو المنذر: وكان لبني الحارث بن كعب كعبة بنجران يُعظِّمونها، وهي التي ذكرها الأعشى، وقد زعموا أنها لم تكن كعبة عبادة وأنما كانت غرفة لأولئك القوم الذي ذكرهم، وما أشبه ذلك عندي بأن يكون كذلك؛ لأني لا أسمع بني الحارث تسمّوا بها في شعر .. وكان لإياد كعبة أخرى بسنداد من أرض بين الكوفة والبصرة في الظهر، وهي التي ذكرها الأسود بن يعفر[1]، وقد سمعت أنَّ هذا البيت لم يكن بيت عبادة، أنما كان منزلاً شريفًا فذكره.

كعيب وامرأته: صنمان لم يذكرهما ابن الكلبي، كانا في كنيسة القُلَّيس، وكان «كعيب» خشبة من ساج منقوشة طولها ستون ذراعًا، وكانت امرأته خشبة من الساج مثلها في الطول، وكانوا يتبرّكون بهما في الجاهلية.

اللات: صخرة بالطائف اتَّخذ العرب عليها بيتًا .. قال أبو المنذر:

---

(١) قول الأسود بن يعفر المشار إليه هو:

أهلُ الخَورنَقِ وَالسَّدير وَبَارِقٍ وَالقَصرِ ذِي الشُّرفَاتِ مِن سِندَادِ

(٢) يلت السويق: أي يطحن الدقيق.

وهي أحدث من مناة، وكانت صخرة مربَّعة، وكان يهود يلت عندها السويق[1]، وكان سدنتها من ثقيف بنو عتاب[2] بن مالك، وكانوا قد بنوا أمامها بناءً، وكانت قريش وجميع العرب تُعظِّمها، وبها كانت العرب تسمى «زيد اللات» و«تيم اللات».

وقد كانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم، وهي التي ذكرها الله في القرآن فقال:﴿ أَفَرَأَيتُم اللاتَ وَالعُزَّى﴾.

وفيها يقول عمرو بن الجعيد:

فَإنِّي وتَركِي وَصلِ كَأسٍ   تَبَرَّأَ مِن لاَتَ وَكَانَ يُدِينَهَا

وقال السهيلي: إنَّ عمرو بن لحي هو اللات الذي يلت السويق للحجيج على صخرة معروفة تسمَّى «صخرة اللات»، ويقال أنَّ الذي يلتُّ كان من ثقيف، فلما مات قال لهم عمرو أنه لم يمت ولكن دخل في الصخرة ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بيتًا يُسَمَّى اللات، ودام أمره وأمر ولده على هذا بمكة ثلثمائة سنة، فلما هلك سُميت تلك الصخرة اللات مخفَّفة التاء واتُّخذت صنمًا يُعبد.

وحكى ابن العربي من حديث أبي الوليد بسنده عن ابن عباس قال:

---

(٣) جعل ابن إسحاق سدنتها بني معتب.

إنَّ رجلاً ممَّن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف يبيع السمن من الحاج إذا مرّ، يلتُّ سويقهم، وكان ذا غنم، فسُميت «صخرة اللات»، فلمَّا فقده الناس قال لهم عمرو: إن ربَّكم اللات قد دخل في جوف الصخرة.

وكانت «العزَّى» ثلاث شجرات نخل، وكان أول من دعا إلى عبادتها عمرو بن ربيعة والحرب بن كعب، وقال لهم عمرو: أنَّ ربكم يُصيف باللات لبرد الطائف ويشتّي بالعزَّى لحرِّ تهامة، فبنوا على صخرته بيتًا يعبده أهل الطائف، وهم ثقيف، ويسترونه بالثياب ويهدون له الهدي ويطوفون حوله ويسمونه «الرَّبة» يضاهون به بيت الله الحرام بمكة.

ولهدمه خبر مفصل؛ وهو أنه لمَّا قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ بعد فتح مكة للصلح لتيقنهم ألاَّ طاقة لهم بقتاله وهم بضعة عشر رجلاً من أشرافهم فيهم كنانة وعبد ياليل وهو رئيسهم يومئذ وصاحب أمرهم، فعرض عليهم النبي الإسلام فقالوا له:

أرأيت الزنا؟.. فإنا قوم نغترب ولا بدَّ لنا منه.

قال: هو عليكم حرام.

قالوا: فالرِّبا؛ فإنه أموالنا كلُّها.

قال: والرِّبا حرام، ولكم رءوس أموالكم.

قالوا: فالخمر؛ فإنها عصير أرضنا، ولا بدَّ لنا منها.

قال: إنَّ الله قد حرَّمها .. وتلا عليهم بذلك كلِّه قرآنا.

قالوا: أرأيت الرَّبة؟.. ماذا نصنع فيها؟

قال: أهدمنًها.

قالوا: هيهات، لو تعلم الرَّبة أنك تريد هدمها قتلت أهلها.

فقال عمر بن الخطاب ﷺ: ويحك يا عبد ياليل، ما أحمقك!.. إنما الرَّبة حجر.

قالوا: إنا لم نأتك يا ابن الخطاب.

ثم قالوا: يا رسول الله، تولَّ أنت هدمها، فأما نحن فلا نهدمها أبدًا.

فقال: سأبعث من يكفيكم هدمها .. فرجعوا إلى بلادهم، وبعث رسول الله ﷺ سرية منهم أبو سفيان بن حرب ومنهم المغيرة ابن شعبة وأمَّر عليهم خالد بن الوليد، فلما قدموا عليهم عمدوا إلى اللات ليهدموها، وانكفت ثقيف كلُّها الرجال والنساء والصبيان حتى خرج العواتق من الحجال وهم لا يرون أنها تهدم ويظنون أنها ستمتنع، فأخذ المغيرة بن شعبة فأسًا كبيرة وقال لأصحابه: لأضحكنَّكم من ثقيف.

قالوا: بلى.

فضرب بالمعول ضربةً ثم صاح وخرَّ مغشيًّا على وجهه، فارتجَّت الطائف بالصياح سرورًا بأنَّ اللات قد صرعت المغيرة، وأقبلوا يقولون: كيف رأيتها يا مغيرة؟.. دونكها إن استطعت، ألم تعلم أنها تهلك من عاداها؟.. من شاء منكم فليقترب وليجد على هدمها، فوالله لا تستطاع أبدًا.

فوثب المغيرة يضحك منهم ويقول: والله يا معشر ثقيف ما قصدت إلاَّ الهزء بكم، ما هي إلاَّ حجارة.

ثم ضرب الباب فكسره ثم علوا سورها فما زالوا يهدمونها حتى سووها بالأرض وجعل صاحب المفاتيح يقول: ليغضبنَّ الأساس، فليخسفنَّ بهم الأرض.

فلمَّا سمع ذلك المغيرة قال لخالد: دعني أحفر أساسها، فحفروه حتى أخرجوا ترابها وحرقوه بالنار، ثم أخذوا حُلِيَّها وثيابها وكسوتها فقدموا به على رسول الله فقسمه من يومه وحمدوا الله عزَّ وجلَّ على نصر نبيِّه وإعزاز دينه.

ورُوي أنَّ المغيرة لمَّا قام يهدمها قام قومه دونه بنو معتب خشية أن يُرمَى أو يُصاب، وخرج نساء ثقيف حسرًا يبكين عليها ويقُلن:

لَتَبكِيـنَّ دِفَـاع

لَـم يُحسِـنُوا المَصَـاع[1]

أسـلَمَهَا الرِّضَـاع[2]

وفي اللات يقول كعب بن مالك الأنصاري من قصيدة:

وتُنْسَى اللاَّتُ والعُزَّى وَوُدٌّ ... ونَسْلُبُها القَلائِدَ والشُّنُوفَا

---

(١)المصاع: القتال.

(٢) أي: أسلمها اللئام.

ويقول شداد بن عارض الجشمي ينهي ثقيفا عن العود إليها:

لاَ تَنصُرُوا اللاَّتَ إنَّ اللهَ مُهلِكُهَـا   وَكَيفَ نَصركُمْ مَن لَيسَ يَنتَصِـرُ

إنَّ الَّتِي حُرِقَتْ بِالنَّارِ فَاشْـتَعَلَت   ولَمْ تُقَاتِل لَدَى أحجَارِهَـا هَـدَرُ

أنَّ الرَّسُولَ مَتَى يَنزِلْ بِسَـاحَتِكُم   يَظعَنْ ولَيس بِهَا مِنْ أهلِهَا بَشَرُ

المحرق: صنم لبكر بن وائل كان بسلمان (عن تاج العروس).

المدان: صنم وبه سمّي «عبد المدان» وهو أبو قبيلة (عن تاج العروس).

مرحب: صنم كان بحضرموت اليمن، و«ذو مرحب» ربيعة بن معد يكرب كان سادنه، أي حافظه (عن تاج العروس).

مناة: صنم من أصنامهم، قدم به عمرو بن لحي من البلقاء من أرض الشام إلى مكة ونصبه حول الكعبة .. قال أبو المنذر:

إنَّ العرب دانت للأصنام واتخذوها، فكان أقدمها كلُّها «مناة»، وسمَّت العرب «عبد مناة» و«زيد مناة»، وكان منصوبًا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة، وكانت العرب جميعًا تُعظِّمه وتذبح حوله، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له.

وكان أولاد معد على بقية من دين إسماعيل، وكانت ربيعة ومضر على بقية من دينه، ولم يكن أحدٌ أشدَّ إعظامًا له من الأوس والخزرج.

و«مناة»[1] هي التي ذكرها الله تعالى في قوله:

﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخرَى﴾.

وكانت لهذيل وخزاعة، وكانت قريش وجميع العرب تُعظِّمه، فلم يزل على ذلك حتى خرج رسول الله ﷺ من المدينة سنة ثمان من الهجرة وهو عام الفتح، فلمّا سار من المدينة أربع ليالٍ أو خمس ليالٍ بعث عليًا[2] إليها فهدمها وأخذ ما كان لها فأقبل به إلى النبي ﷺ.

وكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن أبي شمر ملك غسَّان أهداهما، اسم أحدهما «مخزم» والآخر «رسوب»، وهما سيفا الحارث اللّذان ذكرهما علقمه في شعره فقال:

مُظاهِرُ سِربَالي حَديدٌ عَلَيهِما ... عَقيلاً سُيوفٍ مِخذَمٌ وَرَسُوبُ

فوهبهما لعلي.

فيقال أنَّ «ذا الفقار» سيف علي أحدهما، ويقال أنَّ عليًّا وجدهما في الفلس - صنم لطيء - حين بعثه النبي ﷺ لهدمه، وكانت الأوس والخزرج يخصُّونها دون غيرها بالزيارة والهدية.

---

(١) قال السهيلي: مناة وزنة فعلة من منيت الدم وغيره إذا صببته، لأنَّ الدماء كانت تمنى عنده تقربًا إليه، ومنه سُميت الأصنام «الدمى»، وجعلها ثالثة اللات والعزّى وأخرى بالإضافة إلى مناة التي كانت يعبدها عمرو بن الجموح وغيره من قومه، فهما مناتان، وإحداهما غير الأخرى بالإضافة إلى صاحبتها.

(٢) في قول آخر أنَّ النبي بعث لهدمها أبا سفيان بن حرب فهدمها وذكر القولان ابن هشام.

وروى ابن العربي عن ابن إسحاق أنَّ عمرو بن لحي نصب منـــاة على ساحل البحر مما يلـــي قديـــد، وكانـــت الأزد وغسَّـــان يحجونهـــا ويعظمونها، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى لـــم يحلّوا إلاَّ عند مناة.

وكانوا يهلّون لها، ومن أهَلّ لها لم يطف بين الصفا والمروة لمكان الصنمين.

مناف: صنم به سمّي «عبد مناف» قال أبو المنذر: ولا أدري أيـــن كـــان ولا من نصبه.

منهب: صنم ذكره الجاحظ في «التربيع والتدوير».

نائلة: صنم .. (انظر إساف).

نَسر: صنم .. قال أبو المنذر: **وأجابت عمرو بن لحي حِمير، فدفع إلى رجل من ذي رعين يقال له معد يكرب «نسرًا»، فكان بموضع من أرض سبأ يقال له «بلخع» تعبده حِمير ومن والاها، فلم يزل يعبدونه حتى هوَّدهم ذو نواس، ولم أسمع أنَّ حمير سمت به أحدًا ولم أسمع له ذكرًا في أشعارها وأشـــعار العرب، وأظن ذلك كان لانتقال حمير عن عبادة الأصنام إلى اليهودية.**

وأقول: ذكره في الشعر عمرو بن عبد الجن الجاهلي فقال:

أمَـــا وَالـــدِّمَاءُ المَـــائِرَاتُ تَخَالُهَـــا عَلَى قنَّةِ العُـــزَّى وَبِالنَّسرِ عَنْدَمَا

نصر :صنم (عن المخصَّص).

نهم: صنم عبدته مزينه، وبه سمّت عبدتهم، وكان سادنه خزاعي بن عبد نهم من مزينة، فلمّا سمع ببعثة رسول الله شرح الله صدره للإسلام فكسر صنمه و أنشأ يقول:

ذَهَبتُ إلَى نَهَمٍ لأذبحَ عِنـدَهُ — عَتِيرَةَ نُسكٍ كَالَّذِي كُنـتُ أفعَـلُ

فَقُلتُ لِنفسِي حِـينَ رَاجَعَـت — أهَذَا إلَـهٌ أبكَـمُ لَـيسَ يَعقِـلُ

أبَيتُ فَدِينِي اليَومَ دِينُ مُحَمَّدٍ — إلَهُ السَّمَاءِ المَاجِـدُ المُتَفَضِّـلُ

ثم لحق بالنبي فأسلم وضمن إسلام قومه مزينة.

هُبَـل: كان من أعظم الأصنام عند قريش، وكان من عقيقٍ أحمر علـى صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدًا من ذهب، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان يُقال له «هبل خزيمة»، ذكر ذلك أبو المنذر.

وحكى ابن هشام أنَّ هُبل قدم به عمرو بن لحي من مأرب فنصـبه في مكة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه واختلف في موضعه، فالشهرستاني ذهب إلى أنه كان على ظهر الكعبة، وابن إسحاق ذهب على أنه كان عند البئر التي كانت في جوف الكعبة على يمين من دخلهـا، وكـان عمقهـا ثلاث أذرع، حفرها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ليحفظ فيها ما يُهدى إلى الكعبة.

وكان يُسمَّى «الأخسف»، وكان أمامه سبعة أقدح يضربونها عنده إذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفرًا أو عملاً، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه.

ود: صنم عبدته كلب بدومة الجندل .. قال أبو المنذر: إنَّ عمرو بن لحي أتى شط جدَّة فاستثار الأصنام ثم حملها حتى ورد تهامة، وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة، فأجابه عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، فدفع إليه «ودًّا» فحمله على وادي القرى فأقره بدومة الجندل وسمَّى ابنه «عبد ود»، فهو أول من سُمِّي به، ثم سمَّت العرب به بعد، وجعل عوف ابنه عامرًا الذي يُقال له «عامر الأجدار» سادنه، له فلم يزل بنوه يسدنونه حتى جاء الله بالإسلام.

قال الكلبي: فحدثني مالك بن حارثة الأجداري أنه رأى ودًّا، قال: وكان أبي يبعثني باللبن إليه فيقول اسقه إلهك فأشربه .. قال: ثم رأيت خالد بن الوليد كسره فجعله جذاذًا، وكان رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد من غزوة تبوك لهدمه، فحالت بينه وبين هدمه بنو عبد ود وبنو عامر الأجدار فقاتلهم حتى قتلهم وهدمه وكسره .. قال الكلبي:

فقلت لمالك بن حارثة صف لي ودا حتى كأني أنظر إليه، قال: كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قد نقشت عليه حُلَّتان،

متزر بحُلَّة ومرتدٍ بأخرى، عليه سيف قد تقلَّده وقد تنكب قوسًا، وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل .. وفي ود يقول الشاعر:

حَيَّاكَ وُدُّ فَإنَّا لاَ يَحِلُّ لَنَا ... لَهوُ النِّسَاءِ وَإنَّ الدِّينَ قَد عَزَمَا

ودع: صنم (عن المخصَّص).

ياليل: وزن «هابيل»، صنم سمَّت العرب به «عبد ياليل» (عن تاج العروس).

اليعبوب: كان لجديلة طيء صنم فأخذته منهم بنو أسد فاتخذوا بعده اليعبوب صنمًا عبدوه، فلذلك قال عبيد:

فَتَبَدَّلُوا اليَعبُوبَ بَعدَ إلَهِهِم ... صَنَمًا، فَقِرُّوا يَا جَدِيلَ وَأعذِبُوا

أي: لا تأكلوا على ذلك ولا تشربوا.

يغُوق: صنم .. قال أبو المنذر:

وأجابت عمرو بن لحي همدان، فدفع إلى مالك ابن مرثد بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيران بن نوف بن همدان «يعوق» فاتَّخذته خيوان، فكان بقرية يقال لها «خيوان»[1] من صنعاء على ليلتين ممَّا يلي مكة تعبده همدان ومن والاها من أرض اليمن، ولم أسمع همدان سمَّت به ولا غيرها من العرب، ولم أسمع لها أو لغيرها فيه شعرًا، وأظن ذلك

(١) خيوان: بطن من همدان كما في ابن هشام.

لأنهم قرَّبوا من صنعاء واختلطوا بحِمير فدانوا معهم باليهودية أيام تهـوُّد ذي نواس فتهودوا معه.

أقول: قد ذكره في الشعر مالك بن نمط الهمداني في قوله:

يَريشُ اللّهَ فـي الـدُّنيا ويَبـري ... ولا يَبـري اليَعـوقُ ولا يَـريشُ[1]

يغُـوث: صنم .. قال أبو المنذر: اتخذته مذحج وأهل جـرش، وفيـه يقـول الشاعر:

وَسَـارَ بِنَـا يَغُـوثُ إلَـى مُـرَادِ ... فَنَاجَزْنَـاهُم قَبـلَ الصَّـبَاحِ

ودفعه عمرو بن لحي إلى أنعم بن عمرو المرادي، فكان بأكمة بـاليمن يقال لها مذحج تعبده مذحج ومن والاها.

كثـرة الأصنـام:

ليس في الاستطاعة حصر أصنامهم في الجاهلية؛ فكثرتها تتجاوز العد، وقد كان للقبيلة أكثر من صنم، وكان منهـا عنـد الكعبـة كثيـر .. حكـى الزمخشري أنه كان حولها ثلاثمائة وستون صنمًا، لكلِّ قومٍ صـنم بحيـالهم، ولمَّا دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة المسجد والأصنام منصوبة حول الكعبة

---

(١) يريش ويبري: من رشت السهم وبريته، ثم استعير في النفع والضر .. قال سويد:

فَرشني بِخَيـر طَالَمَـا قَـد بَريتَنِـي ... وَخَيرُ المَوَالِي مَن يَريشُ ولاَ يَبري

(١) سيئة القوس ما عطف من طرفها.

جعل يطعن بسيئة قوسه[1] في عيونها ووجوهها ويقول:«جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا».

ثم أمر بها فكُفئت على وجوهها، وارتقى علي بن أبي طالب ﷺ على منكبه الشريف حتى صعد الكعبة فقال له ﷺ: «ألقِ صنمهم الأكبر»، وكان من نحاس، وقيل من زجاج، وألقى كلَّ ما عليها من الأصنام، ولم يبقَ ألاَّ صنم خزاعة موتدًا بأوتاد من حديد، فما زال يعالجه حتى تمكَّن منه فقذفه فتكسَّر، ثم أُخرجت من المسجد فحُرقت.

وفي تكسيرها يقول فضالة بن عمير بن الملوح الليثي[2]:

قَالَتْ هَلُمَّ إِلَى الحَدِيثِ فَقُلْتُ لاَ ... يَأبَى عَلَيكَ اللهُ وَالإِسْلاَمُ

أَوَ مَا رَأَيتِ مُحَمَّدًا وَجُنُودَهُ[3] ... بِالفَتحِ يَومَ تَكسَّرُ الأَصنَامُ

لَرَأَيتِ دِينَ اللهِ أَضحَى بَيِّنًا ... وَالشِّركُ يَغشَى وَجهَهُ الإِظلاَمُ

وقال تميم بن أسد الخزاعي:

وَفِي الأَصنَامِ مُعتَبَرٌ وَعِلمٌ ... لِمَن يَرجُو الثَّوَابَ أَوِ العِقَابَا

---

(١) نسبها إبن الكلبي في كتاب «الأصنام» لراشد بن عبدالله السلمي.

(٢) في رواية «وقبيله».

(٣) رواية «نور الله أضحى ساطعًا».

وأصنامهم سَفرًا وحَضرًا تَجلُّ عن الحصر، أمَّا في الحضر فــذكر ابن إسحاق أنَّ أهل كلِّ دارٍ اتَّخذوا في دارهم صنمًا يعبدونه، فــإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسَّح بصنمه، وإذا قــدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسَّح به، فلمَّا بعــث الله تعالى نبيَّه ودعاهم لعبادة الله وحده قالوا: «**أجَعلَ الآلهَةَ إلهًا واحدًا، أنَّ هذا لشيءٌ عُجَاب**».

وأمَّا في السفر فكان الرَّجل منهم إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعــة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًّا وجعل الثلاثــة أثــافي لقــدره وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك .. قــال أبــو المنــذر: **واستهترت العرب في عبادتها، فمنهم من اتَّخذ بيتًا ومنهم من اتَّخذ صــنمًا ومن لم يقدر على اتخاذ صنم أو بناء بيت فنصب حجرًا، إمَّا من الحرم وإمَّا من غيره ممَّا استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسمَّوها «الأنصــاب»، وسمّوا طوافهم «الدوار»**.

واتَّخذ كثيرٌ منهم في داره صنمًا، وكثيرًا ما يُسميه باسم الصنم الذي تعبده القبيلة ويتخذه على مثاله ليتمكَّن من عبادته وهو في داره .. حكــى ابن هشام في سيرته أنَّ عمرو بن الجموح أحَــد ســادات بنــي ســلمة وأشرافهم كان قد اتَّخذ في داره صنمًا من خشب يقال له «منــاة» كمــا كانت الأشراف يصنعون تتخذه إلهًا تُعظِّمه وتُطهِّره، فلمَّا أسلم فتيان بني

سلمة كانوا يدلجون(١) بالليل على صنمه فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذر الناس منكسًا على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم، من غدا على آلهتنا هذه الليلة؟.. قال: ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهَّره وطيَّبه ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه، فإذا أمسى ونام عمرو غدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه، ثم يغدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك، فلمَّا أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يومًا فغسله فطهَّره وطيَّبه، ثم جاء بسيفه فعلَّقه عليه ثم قال له: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، فهذا السيف معك، فلمَّا أمسى ونام عمرو غدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبلٍ ثم ألقوه في بئر من آبار ابن سلمة فيها عذر من عذر الناس، وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر مُنكسًا مقرونًا بكلبٍ ميت، فلما رآه أبصر شأنه وكلمه من أسلم من قومه فأسلم وحسن إسلامه، وقال حين أسلم يذكر صنمه وما أبصر من أمره:

وَاللهِ لَو كُنتَ إِلَهًا لَمْ تَكُن ... أنتَ وكَلبٌ وَسطَ بِئرٍ فِي قَرنِ(٢)

---

(١) أدلج: سار أول الليل، وقيل: سار آخر الليل .. وقيل «الإدلاج» سير الليل كلِه.

(٢) القرن: الحبل.

أفٍّ لِمَلقَاكَ إِلَهًا مُستَدَنِ ... الآنَ فَتشنَاكَ عَن سُوءِ الغُبنِ[1]

الحَمدُ للهِ العَلِيِّ ذِي المَنَنِ ... الوَاهِبِ الرَّزَّاقِ دَيَّانَ الدِّينِ[2]

هُوَ الَّذِي أَنقَذَنِي مِن قَبلِ أَنْ ... أَكُونَ فِي ظُلمَةِ قَبرٍ مُرتَهَنِ

ومثله في ترك عبادة صنمه حين رآه عاجزًا عن الدفاع عن نفسه غاوى بن ظالم؛ فقد كان يأتي صنمه بالخبز والزبد فيضعه عند رأسه ويقول له أطعم، وقيل أنه كان سادنًا له فجاء ثعلبان (وهو ذكر الثعالب) فأكل الخبز والزُّبد ثم بال على رأس الصنم، فلما رأى ذلك غاوي بن ظالم تبيَّن له الحق فقال:

أَرَبٌّ يَبُولُ الثُّعلُبَانُ بِرَأسِهِ ... لَقَد هَانَ مَن بَالَت عَلَيهِ الثَّعالِبُ

ثم ضرب الصنم فكسره وأتى النبي فآمن وسأله ﷺ عن اسمه فقال غاوى بن ظالم.

قال: **«لا، بل أنت راشد بن عبد ربه»**.

وكانوا لا يتخذونها من مادة معينة .. قال أبو رجاء العطاردي: كنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجرًا أحسن منه نُلقي ذلك

---

(١) مستدن: من السدانة وهي خدمة البيت وتعظيمه، و«الغبن» يكون في الرأي، يقال «غبن رأيه» بمعنى خسر نفسه وأوبقها.

(٢) قال السهيلي: الدين جمع دينة وهي العادة، ويقال لها دين أيضًا، ويجوز أن يكون أراد بالدين الأديان، أي هو ديان أهل الأديان ولكن جمعها على الدين لأنها ملل ونحل.

ونأخذه، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حفنةً من ترابٍ ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طُفنا به.

وقال أيضًا: كنا نعمد إلى الرمل فنجمعه ونحلب عليه فنعبده، وكنا نعمد إلى الحجر الأبيض فنعبده زمانًا ثم نلقيه.

وقد اتَّخذت بنو حنيفة صنمًا من حيس[1] فعبدوه دهرًا طويلاً ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه، وفيهم يقول الشاعر:

أَكَلَتْ حَنِيفَةُ رَبَّهَا   زَمَنَ التَّقَحُّمِ وَالمَجَاعَةْ
لَمْ يَحْذَرُوا مِنْ رَبِّهِم   سُوءَ العَوَاقِبِ وَالتَّبَاعَةْ

وقال رجل من بني تميم:

أَكَلَتْ رَبَّهَا حَنِيفَةُ مِن جُو   عٍ قَدِيمٍ بِهَا وَمِنْ إِعْوَازِ

عِبَادَة الأصنَام وَمَا يُتقرَّب بِه لَهَا:

عبد أكثر العرب الأصنام لا لذاتها، بل لتقرِّبهم إلى الله زُلفى وتشفع لهم عنده، رُوي أنهم كانوا يقولون في طوافهم بالكعبة واللات والعزى ومناة الثالث الأخرى، فإنهنَّ الغرانق العلى، وإنَّ شفاعتهن لتُرتجَى، فجعلوا عبادتها وسيلة لعبادته .. ولمَّا كان ذلك من الشرك أنكره الله تعالى عليهم في غير ما آية من كتابه، كما أنكر عليهم اعتقادهم أنها بنات الله في

---

(١) الحيس: التمر المخلوط بغيره، أو ما نسميه نحن «العجوة».

قوله:﴿ أَفَرَأَيتُم اللاَّتَ وَالعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالثَةَ الأُخرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى *تلكَ إذَن قِسمَةٌ ضِيزَى * إنْ هِيَ إلاَّ أَسمَاءٌ سَمَّيتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلطَان﴾.

وما أسرع تزلزُل هذه العقيدة عند مبدأ النظر، فقد رُوي أنَّ قريشًا قالت: قيِّضوا لأبي بكر رجلاً يأخذه، فقيَّضوا له طلحة بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوم، فقال: يا أبا بكر، قم إلي.

فقال: إلام تدعوني؟

قال: أدعوك إلى عبادة اللات والعزى.

فقال أبو بكر: مَن اللات والعزَّى؟

قال: بنات الله.

قال: فمن أمُّهم؟

فسكت طلحة وقال لأصحابه: أجيبوا صاحبكم، فسكتوا، فقال طلحة: قُم يا أبا بكر؛ فإني أشهد ألاَّ إله إلاَّ الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

فكانوا يُعظِّمونها ويُلبسونها أحسن الثياب، وحلف الشنفري بثياب الأقيصر فقال:

وَإنَّ امرًا قَد جارَ سَعدَ بنَ مالِكِ ... عَلَيَّ وَأثوابِ الأُقَيصَرِ يَعنُفُ

وكانوا يتقرَّبون لها بالمناسك والمشاعر، وحلَّلوا لها وحرَّموا وسيبوا لها السوائب والبحائر.

وكانوا يحجُّون إليها، فلذلك نهى رسول الله ﷺ عن شدِّ الرِّحال إلاَّ إلى ثلاثة مساجد، مسجده عليه الصلاة والسلام والمسجد الحرام والمسجد الأقصى؛ لأنَّ الله ضاعف أجر العبادة فيها.

وكانوا يطوفون بها تقرُّبًا إليها، وشاهده قول أمريء القيس يشبه قطيعًا من البقر يلوذ بعضه ببعض ويدور كما تدور العذارى حول الصنم دوار.

فَعَنَّ لَنَا سِربٌ كَأنَّ نِعَاجَهُ عَذارَى دوَارٌ فِي المِلاَءِ المُذَيَّلِ

وكانوا يسبحون ويهلون لها قال ربيع بن صبغ الفزاري.

فإنني والذي نغمُ الأنام لهُ حول الأُقيصرِ تسبيحٌ وتَهليلُ

وكانوا يستقسمون عندها بالأزلام.

وكانوا يجعلون لها نصيبًا من إنعامهم وحروثهم.

وكانوا يقفون لها الأوقاف ويهدونها أقواتهم يرجون بذلك الخير والبركة.

روى نافع عن أبي نعيم قال: كان أبو طالب يعطي عليًّا قدحًا من اللبن يصبُّه على اللات، فكان علي يشرب اللبن ويبول على اللات.

وكانوا يسمُّون أنفسهم بأسماء مضافة إليها بالعبودية أو الاختصاص كـ«عبد اللات» و«عبد العزَّى» و«امرئ القيس»، فغيَّر النبي ﷺ ما كان من أسماء أصحابه كذلك بعبد الله وعبد الرحمن.

وكانوا يقسمون بها فيقول الحالف «واللات» أو «وهبل» مثلاً، ويرون أنَّ الحلف بها كذبًا يستوجب نقصًا في الأموال والأنفس والثمرات فلا يقدمون على ذلك ويستحلف الأخصام بعضهم بعضًا بأسمائها فنهوا عن ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**».

وكانوا ينذورن لها النذور، ومنها مولي السائبة، وهو ما سيّب نذر اللآلهة فلا يمنع من ماء ولا كلأ وإن كان رقيقًا وأعتقه مالكه سائبة فلا يعقل عنه ولا يورث ولا ولاء عليه لأحد، وممَّن أعتق سائبة سالم مولى أبي حذيفة، اعتقته قتيبة بنت يعار، وقيل اسمها «ثبيته بنت يعار»، فانقطع سالم إلى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة فتبنَّاه، فقيل سالم مولى أبي حذيفة:

وكانوا يسجدون لها وينكِّسون رأسهم عندها .. قال الشاعر:

فَباتَ يَجتَابُ شُقارى كَما ... بَيقَرَ مَن يَمشي إِلى الجلسَدِ[1]

وكانوا يستعينون بها في حوائجهم من شفاء المريض وغنى الفقير وغير ذلك، فأوجب الله عليهم أن يقولوا في صلاتهم «إياك نعبد وإياك نستعين»، وقال تعالى: **﴿فَلاَ تَدعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾**.

---

(١) البقرة: أن يعدو الرجل منكسًا رأسه، و«الجلسد» صنم.

وكانوا لا يمكنون الحيض من النساء من الدنو منها ولا التمسُّح بها، إنما كانت الحائض تقف ناحية منها .. قال بلعاء بن قيس بن عبد الله بن يعمر وهو الشداخ الليثي:

وَقرنٌ قَد تَركَت الطَّيرُ مِنه كَمُعتَنِزِ العَوَارِكِ مِن مَنَافِ[1]

وكانوا يجعلون لأصنامهم أعيادًا، وروينا حديث أم أيمن في ذلك عند ذكر الصنم بوانة.

وكانوا يهدون لها الهدايا ويقرِّبون لها القرابين، فمنها «الفرع»، وفسَّره الشافعي بأنه أول نتاج البهيمة كانوا يذبحونه ولا يُملِّكونه لأحد رجاء البركة في الأم وكثرة نسلها، وفسَّره أبو علي القالي بأنه ذبح كان أهل الجاهلية يذبحونه على أصنامهم ويُلبسون جلده سقبًا[2] آخر، وفي «المحكم» الفرع أول إنتاج الإبل والغنم، كان أهل الجاهلية يذبحونه لأصنامهم ثم يأكلونه ويُلقى جلده على الشجر.

وعن أبي مالك أنه البكر ينحره الرجل للصنم إذا بلغت إبله مائة، ويقال أنه ذبح كانوا إذا بلغت الإبل ما تمنَّاه صاحبها ذبحوه، وكذلك إذا بلغت إبله مائة يعتر منها بعير كلَّ عام ولا يأكل منه هو ولا أهل بيته، ويُطلق الفرع أيضًا على الطعام الذي يصنع لنتاج الإبل كالخرس للولادة، وقال الميداني في «مجمع الأمثال» عند قولهم في المثل «أول الصيد فرع» ما نصَّه:

---

(١) المُعتَنز: المتنحي في ناحية، و«مناف» صنم.

(٢) السقب: الذكر من ولد الناقة.

«الفرع» أول ولد تنتجه الناقة، كانوا يذبحونه لآلهتم، يتبرّكون بذلك، وكان الرجل يقول «إذا تمَّت إبلي كذا نحرت أول نتيج منها».

وكانوا إذا أرادوا نحره زيَّنوه وألبسوه، ولذلك قال أوس بن حجر يذكر أزمة في شدة البرد:

وَشُبِّهَ الهَيدَبُ العَبامُ مِنَ الأَ   أقوامِ سَقبًا مُلَبَّسًا فَرَعا[1]

وأفرع القوم إذا ذبحوا الفرع، يقال: أفرع إذا أراق الدم، مأخوذًا من الفرع، ومنه قولهم للضبع إذ وقعت في الغنم:

أفرَعتُ فِي قَرَارِي

كَأنَّمَا ضِرَارِي

أرَدتِ يَا جعَارِ[2]

ومنها «العتيرة» بوزن عظيمة، وهي كما قال أبو عبيدة: ذبيحة كانوا يذبحونها في الجاهلية في رجب يتقرَّبون بها لأصنامهم، وهي «الرجبية».

ولغيره أنهم كانوا ينذرون من بلغ ماله كذا أن يذبح من كلٍّ عشرة منها في رجب عتيرة.

وفي الصحاح: «العتيرة» هي أنَّ الرجل كان يقول في الجاهلية «إن بلغ إبلي مائة عترت منها عتيرة في رجب».

---

(١) الهيدب: الغبي الثقيل، و«العبام» العبء الثقيل، و«السقب» الذكر من ولد الناقة ساعة يولد.

(٢) القرار: الغنم، و«جعار» الضبع.

ونقل أبو داود تقييدها بالعشر الأول من رجب، وروى الحميدي أنها الشاة التي تذبح عن أهل بيت في رجب، وسُميت بذلك لذبحها وهو العتر، وفسَّرها النووي بأنها ذبيحة كانوا يذبحونها في العشر الأول من رجب ويُسمونها الرَّجبية، وفيها يقول النابغة الجعدي وكان من المعمرين:

قالَت أُمامَةُ كَم عُمِرتَ زَمانَةً وَذَبَحتَ مِن عِترٍ عَلى الأَوثانِ

وقد أبطلت الشريعة المطهرة كلاً من الفرع والعتيرة لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديث الصحيح «**لا فرع ولا عتيرة**»، وهذا النهي محمول على ما إذا كان ذبحهما لطواغيتهم وآلهتهم كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أمَّا إذا لم يقصد بذبحهما غير وجه الله تعالى فلا حظر فيه، وعليه يُحمل ما رواه البيهقي بسنده عن الحارث بن عمر قال:

أتيت النبي بعرفات - أو قال بمنى - وسأله رجل عن العتيرة فقال: «**من شاء عتر ومن شاء لم يعتر، ومن شاء فرع ومن شاء لم يفرع**».

ولكنهم نهوا عن تخصيص ذبح العتيرة في رجب لحديث أنَّ رجلاً نادى رسول الله: إنا كنا نعتر عشية في الجاهلية فما تأمرنا؟

قال: «**اذبحوا لله في أي شهرٍ كان**».

لِما في التخصيص من تفضيل بعض الأوقات على بعض وتمييزها بالعبادة من غير نصٍّ من الشارع، كما نهوا عن تخصيص ذبح الفرع أول ما يولد، لأنَّ رسول الله لما سُئل عن الفرع قال «**الفرع حقّ**،

وأن تتركوه حتى يكون بكرًا أو ابن مخاض أو ابن لبون[1] فتعطيه أرملة أو تحمل عليه في سبيل الله خيرٌ من أن تذبحه فيلزق لحمه بـــوبره[2] وتكفـــئ إناءك[3] وتوله ناقتك[4]».

ومنه تعلم أنَّ الفرع كان يصلح عندهم للنسك ولو ذُبح صغيرًا، أمَّــا غيره فلا يصلح لذلك إلاَّ إذا ذُبح كبيرًا، وشاهده قول أبي علي القالي في «الأمالي»: الحُلاَّن والحُلاَّم فويق الجدي.

وأنشد لابن أحمر:

تَهدي إليهِ ذِرَاعَ الجَدي تنكرمه　　　إمَّــا ذَبيحًــا وَإمَّــا كَــانَ حُلاَّنَــا

فـــ«الذبيح» الذي يصلح للنسك و«الحلان» الصغير الذي لا يصـــلح للنسك، ثم قال:

وأنشدنا أبو عبيدة قول مهلهل:

كُـــلُ قَتيـــلِ كُلَيـــبِ حُـــلاَّم　　　حتَّـــى يَنَـــالَ القَتـــلُ آلَ هَمَّـــام

---

(١) البكر: الفتى من الإبل والأنثى بكرة، و«ابن المخاضِ» الفصيل إذا لقحت أمه، وقيل ما دخل في السنة الثانية لأن أمه لحقت بالمخاض أي الحوامل وإن لم تكن حاملاً، و«ابن اللبـــون» ولـــد الناقة إذا كان في العام الثاني واستكمله وقيل إذا دخل في الثالث والأنثى «ابنة لبـــون» لأن أمـــه وضعت غيره.

(٢) يريد أنه لا شبع فيه.

(٣) يشير به على ذهاب اللبن، لأن ذهاب ولدها يدفع لبنها، فكأنه إذا فعل ذلك كفأ إناءه وأراقه.

(٤) يعني تفجُّعها بولدها.

يقول: كل قتيل صغير ليس هو بوفاء من كليب بمنزلة الحلال الذي ليس بوفاء أن يذبح للنسك حتى ينال القتل آل همام فإنهم وفاء به.

وكانوا يذبحون قربانهم عند الأصنام إذا كانوا بمقربةٍ منها، وحينئذ يلطِّخونه بدمائها يلتمسون بذلك الزيادة في أموالهم ودفع المكروه عنهم، وشاهده قول زهير بن أبي سلمي:

ثُمَّ استَمَرَّ فَأوفَى رَأسَ مَرقَبَةٍ ... كَمَنصِبِ العِترِ دَمِّيَ رَأسَهُ النَّسُكُ[1]

وقد هجا شاعرهم رجلاً فشبَّهه برأس بقرة قد قاربت أن يذهب بصرها فلا تصلح إلاَّ للذبح والنسُك فقال:

لَقَدْ أَنكَحتُ أسمَاءَ رَأسَ بُقَيرَةٍ ... مِن الأُدْمِ أَهدَاهَا امرُؤٌ مِن بَنِي غَنَمِ

رَأى قَدعًا فِي عَينِهَا إذْ يَسُوقُهَا ... إلَى غُبغُبِ العُزَّى فَوسَّعَ فِي القَسَمِ[2]

وكذلك كانوا يصنعون إذا نحروا هديًا قسموه فيمن حضرهم.

وكانوا يهلون بأسمائها عند الذبح، فيقولون «باسم اللات» أو «باسم العزَّى» مثلاً، وغلوا في ذلك حتى قالت كفار قريش: ما ذُكر اسم الله عليه فلا تأكلوه، وما ذبحتم لغيره فكلوه!

فحرَّم الله ذلك واعتبر ذبيحتهم نجسه يُحرَم أكلها بقوله:

---

(١) معنى البيت: نزل الصقر عن القطاة وأشرف على رأس "مرقبة"، وهي المكان المرتفع حيث يرقب الرقيب، وقوله «كمنصب العتر» أي كأنَّ الصقر مما به من الدم الحجر الذي يعتر عليه وهو النصب، و«العتر» ذبح كان يُذبح في رجب.

(٢) القدع: ضعف البصر من إدمان النظر، و«الغبغب» المنحر مهراق الدماء.

﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَم يُذكَرِ اسمُ اللهِ عَلَيهِ وَإِنَّهُ لَفِسْــقٌ[1]﴾.

وتبعت نصارى العرب كفار قريش في تعمُّد ترك اســم الله تعــالى عند الذَّبح، ولذلك نهى عليه الصلاة والسلام عن ذبيحة نصارى العرب، على أنَّ من العرب من فتح الله بصيرته فعلم سوء صنيعهم هــذا، مــن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان ممَّن اعتزل عبادة الأوثــان وحــرَّم أكل ذبائح المشركين، ومن قوله في ذلك:

«يا معشر قريش، أيرسل الله قطر السماء وينبت بقل الأرض ويخلق السائمة فترعى فتذبحِونها لغير الله؟!».

ومن أنــواع قــرابينهم فــي الجاهليــة «البحيــرة» و«الســائبة» و«الوصيلة» و«الحامي»، وتتميز كلٌّ واحدةٍ منها عمَّا عداها بعلامة كما قال الجاحظ:

قد أعلم العرب «البحيرة» بغير علم «السائبة» لتتميز عنها، وأعلموا «الحامي» بغير علم «الفحول»، وكذلك «الفرع» و«الرجبية» و«الوصــيلة» و«العتيرة» من الغنم، وكذلك سائر الأغنام السائمة.

ولنبين معانيها فنقول: أمَّا «البحيرة» فهي فعيلة بمعنى مفعولة من البحر، وهو الشَّق، جمعها «بحائر» و«بُحَر».

---

(١) فسّر «الفسق» بمتروك التسمية عمدًا لقوله تعالى: ﴿أَو فِسقٌ أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ﴾.

وفسَّرها الزجاج بأنَّ أهل الجاهلية كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها وحرموا نحرها وركوبها، ولا تُطرد من ماء ولا تُمنع من مراعي، وإذا لقيها المعيي لم يركبها!

وفسَّرها ابن إسحاق بأنها بنت السائبة .. وتعقَّبه ابن هشام بأنها عند العرب ليست كذلك، بل «البحيرة» عندهم الناقة تشقُّ أذنها فلا يُركب ظهرها ولا يجزُّ وبرها ولا يشرب لبنها إلاَّ ضيف ولا يتصدق به وتهمل لآلهتهم.

وقال الكلبي: كانت الناقة إذا نتجت خمسة أبطن فكان الخامس ذكرا أكله الرجال دون النساء، وإن كان أنثى بحروا أذنها وشقوها وتُركت لا يُشرب لها لبن ولا تُركب، ولا يجزُّ لها وبر ولا يُحمل عليها شيء ولا يُذكر اسم الله عليها إن ذكيت، وتكون ألبانها للرجال دون النساء، وإن كانت ميتة اشترك فيها الرجال والنساء.

وقيل: «البحيرة» الناقة التي ولدت خمسة أو سبعة، وقيل بل عشرة أبطن، وتُترك هملاً، وإذا ماتت حلَّ لحمها للرجال خاصة.

وقيل: هي في الشاة خاصة إذا نتجت خمسة أبطن بُحرت.

وعن ابن المسيب أنها التي مُنع لبنها للطواغيت فلا تُحلب، وقيل هي السقب الذي إذا وُلد شقُّوا أذنه وقالوا: «اللهم إن عاش ففتى وإن مات فذكى» فإذا مات أكلوه.

وقيل: التي تُترك في المرعى بلا راع.

أمَّا «السائبة» فهي فاعلة من سيبته أي تركته وأهملته، فهو سائب وهي سائبة .. قال ابن إسحاق:

هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهنَّ ذكر سيبت فلم يُركب ظهرها ولم يُجزّ وبرها ولم يشرب لبنها إلاَّ ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شُقَّت أذنها ثم خُلَّى سبيلها مع أمها فلم يُركب ظهرها ولم يُجزّ وبرها ولم يشرب لبنها إلاَّ ضيف كما فُعل بأمِّها، فهي «البحيرة» بنت السائبة.

وتعقبه ابن هشام بأنَّ السائبة عند العرب هي التي ينذر الرجل أن يسيبها إن برأ من مرضه أو إن أصاب أمرًا يطلبه، فإذا كان ذلك أساب ناقة من إبله أو حملاً لبعض آلهتهم، فسابت فرعت لا يُنتفع بها.

وعن أبي عبيدة: كان الرجل إذا قدم من سفر بعيد أو نجته دابته من مشقة أو حرب قال هي سائبة أو كان يُنزع من ظهرها فقارة أو عظمًا[1]، وكانت لا تُمنع من ماء ولا كلأ ولا تُركب، وكان هذا نذرًا من نذورهم.

وقيل: هي البعير الذي يدرك نتاج نتاجه فيُترك ولا يُركب.

وقيل: ما تُرك ليحجَّ عليه.

وعن ابن عباس وابن مسعود أنها التي تسيَّب للأصنام فتعطي للسدنة ولا يُطعم من لبنها إلاَّ أبناء السبيل ونحوهم، والسائبة أيضًا العبد يُعتق على ألاَّ يكون عليه ولاء ولا عقل ولا ميراث.

---

(١) نقل القلقشندي في «صبح الأعشى» سببًا آخر لإغلاق الظهر إذ قال: كان الرجل منهم إذا بلغت إبله مائة عمد إلى البعير الذي كملت به المائة فأغلق ظهره بأن ينزع شيئًا من فقراته ويعقر سنامه كي لا يُركب ليعلم أن إبل صاحبه قد صارت مائة.

وأما «الوصيلة» فهي فعيلة بمعنى فاعلة على الأظهر، وقيل بمعنى مفعولة، وفسَّرها ابن إسحاق بأنها الشاة إذا أنجبت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة قالوا «قد وصلت»، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلاَّ أن يموت منها شيء فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم، وتعقَّبه ابن هشام بأنَّ الوصيلة عند العرب هي التي تلد أمَّها اثنين في كلٍّ بطن، فيجعل صاحبهما لآلهته الإناث منها ولنفسه الذكور، فتلدها[1] أمها ومعها ذكر في بطن فيقولون «وصلت أخاها» فيسيب أخوها معها فلا يُنتفع بهما.

وقال **الفراء**: هي الشاة تنتج سبعة أبطن عناقين[2] عناقين، وإذا ولدت في أخرها عناقًا وجديًا قيل «وصلت أخاها»، فلا يشرب لبن الأم إلاَّ الرجال دون النساء وتجرى مجرى السائبة.

وعن ابن عباس: هي الشاة تنتج سبعة أبطن، فان كان السابع أنثى لم ينتفع النساء منها بشيء إلاَّ أن تموت فيأكلها الرجال والنساء، وكذا إن كان ذكرًا وأنثى قالوا «وصلت أخاها»، فتُترك معه ويُنتفع بها الرجال دون النساء، فإن ماتت اشتركوا فيها.

---

(١) أي الأنثى.

(٢) العناق: الأنثى من أولاد الماعز، جمعه «أعنق» و«عنوق».

قال ابن قتيبة: إن كان السابع ذكرًا ذُبح وأكلوا منه دون النساء، وقالوا «خالصة لذكورنا محرَّمة على أزواجنا»، وإن كان أنثى تُركت في الغنم وإن ذكرا وأنثى فكقول ابن عباس.

وقال الزجاج: هي الشاة إذا ولدت ذكرًا كان لآلهتهم وإذا ولدت أنثى كانت لهم وإذا ولدت ذكرا وأنثى قالوا «وصلت أخاها»، أي دفعت عنه الذبح فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم.

وقيل: هي الشاة تنتج خمسة أبطن أو ثلاثة، فإن كان جديًا ذبحوه وإن كان أنثى أبقوها وإن كان ذكرا وأنثى قالوا «وصلت أخاها».

وقيل: الوصيلة من الإبل هي الناقة التي وصلت بين عشرة أبطن لا ذكر بينها.

وقيل: إنها الناقة التي تبكر فتلد أنثى ثم تثني بولادة أنثى أخرى ليس بينهما ذكر فيتركونها لآلهتهم، ويقولون «قد وصلت أنثى بأنثى» ليس بينهما ذكر.

وأمَّا «الحامي» فهو فاعل من الحمى بمعنى المنع، واختلف فيه فقال ابن إسحاق إنه الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهنَّ ذكر حمى ظهره، فلم يركب ظهره ولم يجز وبره وخلى في إبله يضرب فيها لا يُنتفع منه بغير ذلك.

وقيل: هو الفحل ينتج له سبع إناث متواليات فيحمي ظهره، وقال الشافعي: أنه الفحل يضرب في مال صاحبه عشر سنين.

وقال الفرَّاء: هو الفحل إذا لقح ولد ولده، فيقولون «حمي ظهـــره»، فيُهمل ولا يُطرد من ماء ولا مرعى.

وقال أبو عبيدة والزجاج: إنه الفحل يولد من ظهره عشـــرة أبطـــن فيقولون «حمى ظهره»، فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعـــى .. وروى هذا القول عن ابن عباس وابن مسعود.

وكانوا يرَون أنَّ الضرورة تُبيح المحظور، وشاهده ما رواه المفضّل الضبي أنَّ جبيلة بن عبد الله أخا بني قريع بن عوف أغار على إبل جرية بن أوس بن عامر يوم سلوق فاطرد إبله غير ناقة كانت ممَّا يُحرِّم أهـــل الجاهلية ركوبها، وكان لجرية ابن أخت يرعى أبله فبلـــغ الخبـــر خالـــه والقوم قد سبقوا بالإبل غير تلك الناقة الحرام فقال جرية للغلام رد علـــيّ تلك الناقة لأركبها في أثر القوم، فقال الغلام: إنها حرام، فقـــال جريـــة: «حرامًا يركب من لا حلال له»، فجرت مثلاً لمن اضطرَّ إلى ما يكرهه.

واختلاف أئمة اللغة والمفسِّرين في معناها يرجع لاختلاف القبائـــل في ذلك، فنقل بعضهم عن قبيلة معنى يخالف ما نقله غيره عـــن قبيلـــة أخرى، وبهذا تعلم ألاَّ وجه لابن هشام في تعقبه ابن إسحاق، ويؤيِّـــد مـــا ذهبنا إليه ما رواه أبو هريرة أنَّ النبي ﷺ قال إنَّ عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أول من غير دين إسماعيل وبحَر البحيـــرة وسـيَّب الســـائبة وحمـــى الحامي، وما رواه زيد بن أسلم أنَّ رسول الله قال: «**قد عرفت أول مـــن بحـــر**

البحائر، رجل من مدلج كانت لـه ناقتـان فجـدع آذانهمـا، وحـرم ألبانهمـا وظهورهما».

قال: «فلقد رأيته في النار يؤذي أهل النار ريح قصبه»

فقد أخبر النبي ﷺ في حديث أبي هريرة أنَّ أول مـن بحـر البحيـرة عمرو بن لحي وهو أبو خزاعة من القحطانية[1]، وأخبر في حديث زيد بـن أسلم أنَّ أول من بحرها رجل من مدلج وهم بطن من كنانة بن خزيمـة بـن مدركة من العدنانية.

وأوليتهما أنما هي بالنسبة لمن اتبعهما فيما ابتدعا فلا ينافي أوليـة غيرهمـا فاختلف المعنى لاختلاف الواضعين، وقد أبطل الشارع ذلك وحرَّمـه لقولـه تعالى:﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّـذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ .

وقوله:﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِـزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِـرَاءً عَلَيْـهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَـةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَـيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ [2]إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

---

(١) قال القاضي عياض المعروف في نسب خزاعة إنه عمرو بن لحي بن قمعة بن إليـاس بـن مضر، وعليه فهو من العدنانية وإن لم يكن من بني مدلج.

(٢) أي سيجزيهم الله بما كذبوا عليه في التحليل والتحريم.

الاستِقسَام بِالأزلام:

من عادتهم معرفة ما قدر لهم بالاستقسام بالأزلام، أيِ القداح .. فإذا أراد أحدهم سفرًا أو غزوًا أو تجارةً أو أمرًا من عظائم الأمور؛ ضرب بالقداح؛ وهي ثلاث قطع من الخشب مكتوب على بعضها «نهاني ربي» وعلى بعضها «أمرني ربي» وبعضها «غفل».

كذا قال الفراء، فإن خرج الآمر مضى لطيته وإن خرج الناهي أمسك وإن خرج الغفل أجالها عودًا.

وقيل: كان يُستقسم بقدحين مكتوب على أحدهما «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل»، فإن خرج «افعل» مضى، وإن خرج «لا تفعل» ترك.

وقيل: كان لا يمضي حتى يخرج له «لا تفعل» ثلاث مرَّات، فإن خرج له مرة «افعل» ومرة «لا تفعل»، ولم يخلص له أحدهما ثم مضى في ذلك فقد مضى وهو يرجو ويخاف.

وذهب ابن ظفر إلى أنَّ الأزلام سبعة قداح مكتوب على أحدها «نعم» وعلى الآخر «لا» وعلى قدح «منكم» وعلى قدح «من غيركم» وعلى قدح «مُلصَق» وعلى قدح «العقْل» وعلى قدح «فضل العقْل»، وكانت بيد سادن الأصنام، فيأتيه ذو الحاجة بدراهم، فيسأل الصنم أن يُوضِّح له ما سأل عنه بضرب القداح.

وجعلها ابن هشام سبعة أيضًا، لكنه أسقط «فضل العقل» وجعل سابعها للمياه إذا أرادوا أن يحفروا المياه ضربوا به، فما خرج عملوا به،

وذكر أنها كانت عند الصنم «هُبَل»، فكانوا يذهبون إليه إذا أرادوا أمــرًا ممًّا يُستشار فيه، ويعطون الذي يضرب بالقداح مائة درهم وجزور، فإن شكوا في نسب أحد قرَّبوا من يشكون في نسبه ثم قالوا: «يا إلهنــا، هــذا فلان ابن فلان، قد أردنا به كذا وكذا، فأخرج الحــق فيــه»، ويــأمرون صاحب القداح أن يضرب بالقداح الموسومة بــ«منكم» و«من غيــركم» و«ملصق»، فإن خرج «منكم» أضافوا نسبه إلى أنفسهم، وإن خرج «من غيركم» كان حليفًا، وإن خرج عليه «ملصق» كان على منزلته فــيهم لا نسب له ولا حلف.

وإذا تنازعوا في «العَقْل»، وهي دية المقتــول، أحضــروا المــتهم بالقتل واستقسم لهم الأمين بقدحين أحدهما موسوم بــ«العقــل» والآخــر «غفل»، فإن خرج الموسوم بــ«العقل» تحمَّل الدية، وإن خرج «الغفل» لا.

وإن اشتبهوا فيمن يحمل العقل منهم ضربوا بهذين القدحين أيضًــا، فــإن خرج على قوم «العقل» برئ منه الآخرون، فإن اختلفــوا فيــه ضــرب بالقدح الموسوم بــ«فضل العقل»، فإن خرج عليه أدَّاه.

وإذا أرادوا معرفة ما في فعل ما من خيرٍ أو شرّ أجال لهــم أمــين القداح قدحي «أمرني ربي» و«نهاني ربي»[1]، فإن خرج قــدح الأمــر

---

(١) يروي أن الاستقسام حينئذ بقدحين كتب على أحدهما نعم وعلى الآخر لا.

ائتمروا وباشروا المسئول عنه من حرب أو سفر أو زواج أو ختان أو بناء أو نحو ذلك، وإن خرج قدح النهي أخّروا ذلك العمل إلى سنة أخرى، فإذا انقضت استقسموا مرة أخرى.

هذا ما ذكره الثقات، ويتلخّص من كلامهم أنّ الاستقسام عام وخاص، فالعام ما يزاوله كلُّ واحد بأن يعمد إلى ثلاث قداح مكتوب على أحدها «أمرني ربي» وعلى الآخر «نهاني ربي» والثالث «غفل»، فيضعها في خريطة ويُجيلها ثم يخرج منها واحدًا، فإن خرج الآمر فعل وإن خرج الناهي ترك وإن خرج الغفل أعاد .. والخاص وهو ما يُراد منه الحكم لا مجرّد الاستشارة، ويكون لدى سادن الصنم، كما إذا أرادوا معرفة من عليه العقل أو غير ذلك.

وقال ابن إسحاق:

كان لهبل سبعة قداح يُضرب بها على الميت والعذرة والنكاح، وكان قربانه مائة بعير، وكان له حاجب، وكانوا إذا جاءوا هبل بالقربان ضربوا بالقداح وقالوا:

إنَّا اختَلَفنَا فَهَبْ السَّرَاحَا ... ثَلاثَةً يَا هُبَلُ فَصَاحَا

المَيِّتَ وَالعُذْرَةَ وَالنِّكَاحَا ... وَالمُبرِئَ المَرِيضَ وَالصِّحَاحَا

إن لَـــم تُقِلـــهُ فَمـــرٌ القِـــدَاحَا

ولم يقصرها القلقشندي في «صبح الأعشى» على سبعة لقوله:

كانوا إذا أرادوا فعل أمر ولا يدرون ما الأمر فيه أخذوا قداحًا مكتوبا على بعضها «افعل» وعلى بعضها «لا تفعل» وعلى بعضها «نعـــم» وعلـــى بعضها «لا» وعلى بعضها «خذ» وعلى بعضـــها «ســـر» وعلـــى بعضـــها «سريع»، فإذا أراد أحدهم سفرًا مثلاً أتى سادن الأوثان فيُضرب لــــه بتلـــك القداح ويقول: «اللهم أيها كان خيرًا له فأخرجه»، فما خرج له عمـــل بـــه، وإذا شكَوا في نسب رجل أجالوا القداح وفي بعضها مكتوب «صريح» وفـــي بعضها مكتوب «مُلحَق»، فإن خرج «الصريح» أثبتـــوا نســـبه وإن خـــرج «الملحق» نفوه، وإن كان بين اثنين اختلاف في حقٍ سمَّى كلٌ منهمـــا لـــه سهمًا وأجالوا القداح فمن خرج سهمه فالحق له.

ومن شواهد الاستقسام عند النصب قول طرفه بن العبد:

لِلفَتـــى عَقـــلٌ يَعـــيشُ بِـــهِ   حَيـــثُ تَهـــدي ســـاقَهُ قَدَمُـــه

أَخَـــذَ الأَزلامَ مُقتَسِـــمًا   فَـــأَتى أَغواهُمـــا زُلَمُـــه[1]

عِنـــدَ أَنصَـــابٍ لَهَـــا زَفَـــرٌ   فِـــي صَـــعِيدٍ جَمَّـــةٌ أَدَمُـــه

وأخبار استقسامهم كثيرة، فمنها ما حكاه الصبهاني وغيره أنهم كانوا يستقسمون عند ذي الخلصة، وأنَّ امرأ القيس لمَّا قتل بنو أسد أباه حجرًا

---

(١) يُروى «فأفاض القدم مقتسمًا»، و«أغواهما» من الغواية، وثنَّى الضمير في أغواهمـــا وهـــو للأزلام لأنَّ الشعر لحكم قافيته يحتمل ما لا يحتمله النثر، و«الزلم» واحد الأزلام.

أخذ أزلامه وأتى الصنم ذا الخلصة فاستقسم فخرج له القدح الذي يكره فكسر الأزلام وضرب بها وجه الصنم وقال: لو كان أبوك قتل ما عُقتني، ثم أنشد:

لو كنتَ ياذا الْخَلصة الموتورا   دُونِي وكَانَ شيْخُكَ المقبُورَا

لم تَنْهَ عنْ قتل الأعادي زُورَا

ثم خرج فظفر بني أسد .. قال أبو المنذر:

فلم يستقسم أحد عند ذي الخلصه بعد ذلك حتى جاء الإسلام، فكان امرؤ القيس أول من أحفره.

ومن ذلك ما حكاه ابن إسحاق أنَّ عبد المطلب بن هاشم شرع في حفر بئر زمزم، فلمَّا تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب، وهما الغزالان اللذان دفنت جُرهم فيها حين خرجت من مكة، ووجد فيها أسيافًا قلعية[1] وأدراعًا، فقالت له قريش: يا عبد المطلب، لنا معك في هذا شركٌ وحقٌ.

قال: ولا، ولكن هلمُّوا إلى أمر نصف بيني وبينكم، نضرب عليها بالقداح.

قالوا: وكيف تصنع؟

قال: أجعل للكعبة قدحين ولي قدحين ولكم قدحين، فمن خرج له قدحاه على شيءٍ كان له، ومن تخلَّف قدحاه فلا شيء له.

قالوا: أنصفت.

---

(١) نسبة إلى «القلعة» بلد ببلاد الهند وإليه يُنسب السيوف.

فجعل قدحين أسودين له، وقدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أبيضين لقريش، وضرب صاحب القداح بها عند هُبل أعظم أصنامهم، وهو الذي عناه أبو سفيان بن حرب يوم أحُد حين قال: «اعلُ هُبل» أي: أظهِر دينك، فخرج الأصفران على الغزالين وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب وتخلَّف قدحا قريش، فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة وضرب في الباب الغزالين من ذهب، فكان أول ذهب حليته الكعبة فيما يزعمون.

ومنها أنَّ قريشا استقسمت في غزوة بدر الكبرى عند هبل للخروج لحرب رسول الله، فاستقسم أمية بن خلف وعتبة وشيبه، فخرج القدح الناهي، فأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل وخرج زمعة بن الأسود حتى إذا كان بذي طوى أخرج قدامه واستقسم بها فخرج الناهي عن الخروج، فلقي غيظًا ثم أعادها الثانية فلقي مثل ذلك فكسرها وقال: ما رأيت كاليوم قدحا كذب!

ومن الشواهد على استقسام الرؤساء بالأزلام قول شمعلة بن أخضر الضبي:

جلبنا الخيلَ مِن أكنافِ فَلْجٍ تَرَى فيها من الغَزو اقورارا[1]

بكلِّ طِمِرَّةٍ وبكلِّ طِرفٍ يَزين سَوَادُ مقلته العِذَارا[2]

---

(١) فلج: اسم بلد، و«الاقورارا» الضمور والتغيُّر.

(٢) الطمرة: الفرس الكريم، و«الطرف» الكريم الطرفين من الأمهات والآباء.

حَوالَيْ عَاصِبٍ بالتاجِ مِنَّا ... جبينَ أغرَّ يستلب الدُّوَارا[1]

رئيسٌ ما يُنَازِعُه رئيسٌ ... سِوَى ضَرْبِ القِداح إذا

على أنَّ منهم الحازم الذي لا يستشير قداحه، بل إذا همَّ بالأمر مضى فيه كجذع بن سنان حيث يقول:

أ أتاني قَاشِرٌ وبَنُو بَنِيهِ ... وقد جَنَّ الدُّجَى والنَّجْم لاَحا

وحَذَّرَني أُمورًا سَوفَ تَأتي ... أَهُزُّ لَهَا الصَّوارِمِ والرِّمَاحَا

سَأَمضي لِلَّذي قَالوا بعَزْمٍ ... وَلاَ أبْغي لِذلكم قِدَاحَا

وقد حدث الاستقسام بالأزلام فيهم بعد أن كانوا يعتمدون في المعرفة على الرؤيا المنامية، وقد رأى رسول الله ﷺ صورة إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام، فقال:

«لقد علموا أنهما لم يستقسما قط».

وقد حرَّمه الله تعالى وجعله رجسًا، أي مأثمًا وفسقًا في قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ . وقال:﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ .

وإنما حرَّمه لأنه تهجُّم على علم الغيب الذي استأثر به علاَّم الغيوب، وقال: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ .

---

(١) الدر: النفس وجمعه الدرار، يعني أنه شجاع تهابه النفوس.

فإنَّ الغيب لا يمكن إدراكه بصناعة من الصناعات وافتراء على الله في قوله «أمرني ربي» و«نهاني ربي»، وما يدريه أنه أمره ونهاه .. ومن الفسق أيضًا الرجوع إلى الكهنة والمنجِّمين.

الأقسَـام:

إذا أراد أحدهم فعل أمر أو تركه وخشي أن تهن عزيمته قواها بالحلف لأنَّ الحنث يوجب المؤاخذة، فكانوا يحلفون بمعبوداتهم وبشعائر دينهم وبما عظم فيه، ولما كان قصد تعظيم المحلوف به غاية التعظيم هو داعية البرِّ في اليمين، وهذا نوع من أنواع العبادة، وهي لا تليق لغير الله تعالى .. قال عليه الصلاة والسلام: «**من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت**».

فحرَّم الحلف بالنبي وبأحد من ذريته بالكعبة والصالحين، ولكن المسلمين خصوصا في هذه الأيام لبسوا الدِّين مقلوبا وفعلوا ما نهوا عنه.

وكان العرب مع اختلاف عقائدهم ونحلهم يحلفون بالله تعالى وبصفاته لأنهم ما عبدوا الأصنام إلا لتقربهم إليه، بل كان الحلف به أعظم إيمانهم .. قال النابغة الذبياني:

حلَفتُ فلَم أترُك لِنَفسِكَ رِيبَةً ... ولَيسَ وَراءَ اللَه لِلمَرءِ مَذهَبُ

وقال أوس بن حجر:

وَبِاللاَتِ وَالعُزَّى وَمَنْ دَانَ ... وَبِاللهِ إنَّ اللهَ مِنهُنَّ أكبَرُ

ومن الحلف بصفاته تعالى قول عنترة العبسي:

قَسَمًا بِالَّــذِي أَمَــاتَ وَأَحيَــا وتَــولّى الأروَاحَ وَالأجسَـــامَا

وقول مهلهل التّغلبي:

قَتَلُوا كُلَيبًا ثُمَّ قَــالُوا لاَ تَثِــب كَلاَّ وَرَبِّ البَيتِ ذِي الإحْــرَامِ

وأقولهم: لا ورب هذه البنية[١].

لا وقائت[٢] نفسي القصير.

لا والذي لا أتقيه إلاّ بمقتله[٣].

لا والذي أخرج العذق[٤] من الجريمة[٥] والنار من الوثيمة[٦].

لا ومقطع القطر.

لا وفالق الإصباح.

لا ومُهب الرياح.

لا ومنشر الأرواح.

لا والذي مسحت أيمن كعبته.

لا والذي جلد الإبل جلودها.

لا والذي شق الجبال للسيل والرجال للخيل.

---

(١) الكعبة.

(٢) القائت: من القوت يعطيه قليلا قليلا.

(٣) أي كل شيء مني مقتل من حيث شاء قتلني.

(٤) النخلة.

(٥) النواة.

(٦) هي المؤثومة أي المربوطة، يريد به قدح حوافر الخيل النار من الحجارة.

لا وبارئ الخلق.

لا والذي يراني من حيث ما نظر.

لا والذي نادي الحجيج له.

لا والذي رقصن ببطحائه.

لا والذي أمدَّ إليه بيد قصيرة.

لا والذي كلّ الشعوب تدينه.

لا والذي وجهي زمم بيته[١].

لا والذي شقَّهن[٢] خمسًا من واحدة.

لا والذي أخرج قائبه من قوب[٣].

وقد أكثروا من الحلف بشعائر الحج ومشاهده لأنهم كانوا على اختلاف نِحلهم يرون الحج من دين إبراهيم وإسماعيل، وحلف زهير ابن أبي سلمي بالكعبة فقال:

فَأقسَمتُ بِالبَيتِ الَّذي طَافَ حَولَهُ رِجَالٌ بَنَوهُ مِن قَريشٍ وَجُرهُمِ

وحلفوا بزمزم والحطيم .. قال ابن دريد:

وسُمي بـ«الحطيم» لأنَّ أهل الجاهلية كانوا يحلفون به فيحطم الكاذب.

وحلف زهير بن أبي سلمى بالمنازل من منى فقال:

فَأقسَمتُ جَهدًا بِالمَنَازِلِ مِن مِنَى وَمَا سحقَت فِيه المَقَادِيمُ وَالقَمَّلُ

---

(١) أي اتجاه وحذاءه.

(٢) يعنون الأصابع.

(٣) يعنون فرخًا من بيضة.

حتى حلفوا بالإبل التي تؤم مزدلفة، فقالوا: «لا والراقصات ببطن جمع وبالتي تؤم منى»، قال أعشى قيس:

حلفتُ لهُ بالرَّاقِصَاتِ إلَى مِنَى ... إذَا مُحرِمٌ خلَفْتَهُ بَعدَ مُحرِمِ

وحلفوا بشهر رجب لتعظيمهم له، لأنه الشهر الذي كانوا يعتمرون فيه ويذبحون فيه العتيرة، وهي الرجبية .. وحلف الوثنيون بالأصنام وبما ألبسته من الثياب، وبالأنصاب، وهي حجارة كانت في الجاهلية يُهل عليها ويُذبح وبما هريق لها أو عليها من الدماء .. قال مهلهل بن ربيعة:

قَتَلُوا كُلَيبًا ثُمَّ قَالُوا ارْتَعُوا ... كَذَبُوا لَقَدْ مَنعُوا الجِيَادَ رُتُوعَا

كَلاً وَأَنْصَابٌ لَنَا عَادِيَةٌ ... مَعبُودَةٌ قَدْ قُطِعَت تَقطِيعَا

وقال طرفة بن العبد يخاطب الملك عمرو بن هند:

إنِّي وَجَدِّكَ مَا هَجَوتُكَ وَالأَ ... نصَابِ يُسْفَحُ بَينَهُنَّ دَمُ

وقال النابغة الذبياني:

فَلا لَعَمرُ الَّذي مَسَّحتُ كَعبَتَهُ ... وَما هُرِيقَ عَلى الأَنصابِ مِن جَسَدِ

ما قُلتُ مِن سَيِّئٍ مِمّا أُتِيتَ بِهِ ... إِذًا فَلا رَفَعَت سَوطي إِلَيَّ يَدي

وقال رشيد بن رميض العنزي:

حَلَفتُ بِمَائِرَاتٍ حَولَ عَوَضٍ ... وَأنصَابٍ تُركنَ لَدَى السَّعِيرِ

---

(١) في رواية: «فلا ورب الذي قد زرته حججا»، و«الجسد» والجساد الزعفران والمراد به هنا الدم.

وقال المُتلمِّس من قصيدة يهجو بها عمرو بن هند الملقب بـ«المُحرِّق»:

أطرَدتَنِي حَذَرَ الهِجَاءِ وَلاَ ... وَاللاتِ وَالأنصَابِ لاَ تَئِلِ[1]

وحلفت مهلهل بن ربيعة بالحرام والحل فقال:

كَذَبُوا وَالحَرَامِ وَالحِلِ حَتَّى ... يَسلُبُ الخِدرُ بَيضَهُ المَحجُولاَ[2]

وحلف عدي بن زيد - وكان نصرانيًا - بالله والصليب، فقال يخاطب النعمان لمَّا حبسه:

سَعى الأَعداءُ لا يَألونَ شَرًّا ... عَلَيكَ وَرَبِّ مَكَّةَ وَالصَليبِ

أرادوا كَي تُمَهَّلَ عَن عَدِيٍّ ... لِيُسجَنَ أَو يُدَهدَهَ في القَليبِ

وحلفت النصارى بالإبل، وهو الناسك والراهب، جاء في لسان العرب: «وكانوا يعظمون الإبل فيحلفون به كما يحلفون بالله» حتى حلف الأعشى بمسوح الرهبان فقال:

حلفتثوبي راهِبِ اللُجِّ وَالَّتي ... بَناها قُصَيٌّ وَالمُضاضُ بنُ جُرهَمِ

وحلفوا بأنفسهم فقالوا «لعمري» أي وبقائي، و«لعمرك» .. قال طرفة بن العبد:

لَعَمرُكَ ما أمري عَلَيَّ بِغُمَّةٍ ... نَهاري وَلا لَيلي عَلَيَّ بِسَرمَدِ[1]

---

(١) أطردتني: أي صيَّرتني طريدًا، ويُروى «والله والأنصاب»، و«لا تئل» لا تنجو.

(٢) الحِل: بالكسر ما جاوز الحرم.

وحلفت العرب بالآباء، قال عروة بن الورد:

فَلاَ وَأَبِيـكَ لَـوْ كَـاليَومِ أمـرِي وَمَن لَـكَ بِالتَّـدَبُّرِ فِـي الأُمُـورِ

وكانت قريش تحلف بآبائها فنهاهم النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك بقوله: «**لا تحلفوا بآبائكم**».

وكانوا يحلفون بـ«الملح والرَّماد»، كقول الأعشى في حرب ذي قار فيما رواه الأصبهاني في الأغاني:

حلفتُ بِالمِلحِ وَالرَّمَادِ وَبِالعُـ ـزَّى وَبِاللاتِ نُسـلِمُ الدَّرَقَـة

وقد اختلفوا في المراد بـ«أسحَم» المقسم به من قول أعشى قيس:

رَضيعَي لِبانٍ ثَديَ أُمٍّ تَحالَفـا بِأسحَمَ داجٍ عَوضُ لا نَتَفَـرَّقُ

على سبعة أقوال ذكرها ابن السيد البطليموسي في الاقتضاب.

أولها: هو الرَّماد، وكانوا يحلفون به قال الشاعر:

حلَفتُ بِـالمِلحِ وَالرَّمَـادِ وَبِالنَّـارِ وَبِـاللهِ نُسـلِمُ الحَلَقَـة

حَتَّـى يَظَـلَّ الجَـوَادُ مُنعَفِـرًا وَتُخَضَّـبُ النَّبـلَ غُـرَّةُ الدَّرَقَـة

ثانيها: هو اللَّيل.

ثالثها: هو الرَّحم.

رابعها: هو الدَّم، لأنهم كانوا يغمسون أيديهم فيه إذا تحالفوا.

حكى هذه الأقوال الأربعة يعقوب، وحكى غيره وهو:

---

(١) الغمة: الكرب، و«السرمد» الدائم، أي إذا هممت بأمر لمضيته وأمضي همي بالليل ولا أبالي طوله.

الخامس: إنه حلمة الثدي، وقيل وهو:

السادس: زقُّ الخمر، وقيل وهو:

السابع: دماء الذبائح التي كانت تذبح للأصنام، وجعله أسحَم، لأنَّ الدم إذا يبس اسودّ، قال ابن السيد:

وأبعد هذه الأقوال من قال إنه الرَّماد، لأنَّ الرماد لا يوصف بأنه أسحم ولا داج، وإنما يُوصف بأنه أورق.

وممَّن ذكر حلفهم بالنار ابن قتيبة في أبيات المعاني عند الكلام على نار التحالف حيث قال:

كانوا يحلفون بالنار، وكانت لهم نار يُقال أنها كانت بأشواف اليمن لها «سَدَنة»، فإذا تفاقم الأمر بين القوم فحلف بها انقطع النزاع بينهم، وكان اسمها «هولة» و«المهولة»، وكان سادنها إذا أتى برجل هيَّبه من الحلف بها، ويقوم بطرح الملح والكبريت فيها، فإذا وقع فيها استشاطت فيقول «هذه النار قد تهددتك فاحلف، فإن كان مريبًا نكل وإن كان بريئًا حلف.

قال أوس بن حجر يصف عيرًا على مرتفع من الأرض:

إذَا استَقبَلَتهُ الشَّمسُ صَدَّ بِوَجهِهِ كَمَا صَدَّ عَن نَارِ المَهُولِ حَالِفُ[1]

وقال الكميث:

هُمْ خَوَّفُونَا بِالعَمَى هُوَّةَ الرَّدَى كَمَا شَبَّ نَارُ الحَالِفِينَ المُهُولِ

---

(١) المحلف.

وقال أبو عبيدة: كان في الجاهلية لكلٍّ قومٍ نار وعليها سدنة، وكان إذا وقع بين الرَّجلين خصومة جاء من ثبت عليه اليمين إلى النار فيحلف عندها، وكان السدنة يطرحون بها مِلحًا من حيث لا يشعر يهولون بها عليه.

قال الكميت وذَكر امرأة:

فقد صِرتُ عمًّا لَها بِالمَشِيبِ ... زوَالاً لَدَيهَا هُوَ الأزوَلُ

كَهَولَةِ مَا أوقَدَ المُحَلِّفُونَ لِلحَالِفِينَ وَمَا هَوَّلُوا

وفي القاموس:

«التهويل» شيء كان يُفعل في الجاهلية إذا أرادوا أن يستحلفوا إنسانًا أوقدوا نارًا ليُحلف عليها، وكان السدنة يطرحون فيها ملحًا من حيث لا يشعر، يُهوّلون بها عليه والجمع التهاويل.

والحلف عند النار أو بها أثر من آثار المجوسية سرى لهم من مجاورتهم لفارس.

وحلفت الكهان بما جلَّ قدره وعظم خطره كالسماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر، وامتازوا عن غيرهم بكثرة الإيمان في صدر كلامهم وأخبارهم بالمغيبات كقول سلمي الهمدانية الحميري:

"والخفو والوميض[1] والشفق والإعريض[2] والقلَّة والحضـيض" أنَّ خزيمًا لمنيع الجيز[3]. وقول زبراء أمة خويلة:

والليل الغاسق واللوح[4] الخافق والنجم الطارق والمـزن الـوادق أنَّ شجر الوادي ليأدو[5] ختلاً.

وقول الكاهن الخزاعي لمَّا تنافر إليه أمية بن عبد شمس وهاشـم بن عبد مناف:

والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طـائر وما اهتدى بعلم مسافر من منجد وغائر لقد سبق هاشم أمية إلـى المفـاخر ولامية أواخر.

ولقد أقسم الله في القرآن بكثير من الأزمنة والأمكنة والأشـياء، وحاشاه أن يحتاج في تأكيد أخباره إلى القسم بشيء هو صنع قدرته، بـل أقسم لأغراض منها تقرير وجود المُقسَم به في عقل من أنكره وتعظـيم شأنه عند من احتقره أوليُنبِّه الغافل إلى موضع العبرة فيه أو غير ذلـك من الأغراض الشريفة.

---

(١) الخفو اللمعان الضعيف، و«الوميض» أشد من الخفو.

(٢) الإعريض: حجارة.

(٣) الجيز: الناحية.

(٤) اللُوح بضم اللام: الهواء بين السماء والأرض، واللَوح بفتح اللام: العطش.

(٥) يأدو له: أدوا ختلته.

أمَّا الحلف بالطلاق فما كانت العرب تعرفه ولا تستحلف، به وفي «محاضرات الأدباء»:

وأول من استحلف به ابن مسلمة، وكان واليًا على كرمان، استحلف جنده بالطلاق فقال أحدهم:

رَأيتُ هُذَيلاً أحدثَت فِي طَلاقِهَا ... طَلاقَ نِساءٍ لَم يُسُوقُوا لَهَا مَهْرَا

وقيل أنَّ أول من استحلف بالطلاق العباس بن عبد المطلب، استحلف الأنصار ليلة العقبة حين اخذ عليهم البيعة لرسول الله ﷺ.

ويبعد صدور ذلك عن العباس خاصةً وعن العرب عامةً لأنهم لم يكونوا يذكرون الطلاق إلاَّ عند إرادة حلٍّ عقدة الزواج، وإني لم أعثر على ذكر ذلك في سيرة من السير، ولو صحَّ لنقل واستفاض، وكانت بيعة رسول الله أن يقول لمن بايعه «بايعتك» أو «أبايعك على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره».

فأحدث الحجَّاج كما قال ابن قيم الجوزية: بيعة غير هذه تتضمَّن اليمين بالله تعالى والطلاق والعتاق وصدقه المال والحج

وكانوا يُغلِّظون الإيمان بالحلف عند الأمكنة المحترمة كالأنصاب، وشاهده قول طرفه بن العبد:

فَأقسَمتُ عِندَ النُصبِ إنّي لَهالِكٌ ... بِمُلتَفَّةٍ لَيسَت بِغَبطٍ وَلا خَفضِ[1]

---

(١) الملتفَّة: المفازة، و«بغبط» أي تغتبط.

أو مكة كقول زهير بن أبي سلمى:

فَتُجمَـع أيمُـنُ مِنّـا ومِـنكُم بِمُقسَمَةٍ تَمورُ بِهـا الـدِماءُ[1]

أو الحطيم، وفي القاموس:

و«الحطيم» حجر الكعبة أو جداره، أو ما بين الركن وزمزم والمقـام - وزاد بعضهم والحِجر - أو من المقام إلى الباب، أو ما بين الركن الأسـود إلى الباب إلى المقام حيث يتحطَّم الناس للدعاء، وكانت الجاهليـة تتحـالف هناك.

وكانوا يحرصون على البرّ في اليمين وعدم الحنث فيها حتى لقـد زعـم علماء كندة كما حكاه الأصبهاني في الأغاني أن جد أمريء القيس وهـو الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن معاوية بن ثور وهـو كنـدة خرج إلى الصيد فألظ بتيس [2] من الظباء فأعجزه فآل إليه ألا يأكل أولا إلا من كبده فطلبته الخيل ثلاثا فأتى بعد ثالثه وقد هلك جوعا فشوى لـه بطنه فتناول فلذة من كبده فأكلها حارة فمات وفي ذلك يقول الوليـد بـن عدي الكندي في بني بجيلة:

فَشَـوُوا فَكَانَ شَوَاؤُهُم خَبطًا لَـهُ إنَّ المَنِيَّـةَ لاَ تجـلّ جِلِـيلاَ

(١) المقسمة: موضع القسم، وأراد بها مكة حيث تُنحر البدن فتسيل دماؤها.

(٢) ألظَّ به: لازمه ولم يفارقه.

وكانوا لا يتركون المحلوف عليه إلاّ إذا وجدوا مخرجًا من اليمين.

وشاهده ما ذكره ابن رشيق في العمدة من أنَّ المنذر بن ماء السماء حلف في يوم أوارة الأول ليقتلنَّ بكرًا على رأس أوارة حتى يلحق الدم بالحضيض، فشفع لهم رضيع المنذر مالك بن كعب العجلي وقال للمنذر: أنا أُخرجك من يمينك، فصبَّ الماء على الدم فلحق الأرض، وبرَّ يمين المنذر، فكفَّ عن القتل.

وما رُوي أن الحارث بن عبَّاد حلف ألاَّ يصالح تغلب حتى تكلمه الأرض، فلما كثرت وقائعه في تغلب ورأت تغلب أنها لا تقوى عليه حفروا سربًا تحت الأرض وأدخلوا فيه رجلاً وقالوا: إذا مرَّ بك الحارث فغنِّ هذا البيت:

أَبَا مُنذِرٍ أَفنَيتَ فَاستَبقِ بَعضَنَا ... حنَانَيكَ بَعضُ الشَّرِّ أَهوَنُ مِن

فلما أتى الحارث على ذلك الرجل غنى بذلك البيت فقيل للحارث برّ قسمك فأبق بقية قومك ففعل، واصطلحت بكر وتغلب.

وكانوا يخافون عقوبة الله في الحنث، ولا نعلم من تجرَّأ على الله بالحلف حانثًا قبل امرئ القيس في قوله:

فَقُلتُ يَمينَ اللَهِ أَبرَحُ قاعِدًا ... وَلَو قَطَعوا رَأسي لَدَيكِ وَأَوصالي

حَلَفتُ لَها بِاللَهِ حِلفَةَ فاجِرٍ ... لَناموا فَما إِن مِن حَديثٍ وَلا صالِ

ولقد نجا نحوه الشمَّاخ بن ضرار الغطفاني في الإسلام فقال:

وَجـاءَت سُـلَيمٌ قَضَّـها تُمَسِّحُ حَولي بِالبَقيعِ سِبالَها [1]

يَقولونَ لي اِحلِـف فَلَسـتُ أُخادِعُهُم عَنها لِكَيما أَنالَها [2]

فَفَرَّجتُ كَربَ النَفسِ عَنّي كَما شَقَّتِ الشَقراءُ عَنها جِلالَها

يقول: كشفت همَّ النفس عني باليمين الكاذبة، وخرجت من الهم كما خرجت الفرس الشقراء من جلالها .. ومثله قول بعضهم:

سَأَلوني اليَمينَ فَارتَعتُ منهَا لِيُغَـرُّوا بِـذَلكَ الارتِيَـاع

ثُمَّ أمرَرتُها كَمُنحَـدَرِ السَيـ ـلِ تَهاوى مِنَ المَكانِ اليَفاعِ

ومثله قول ابن الرومي:

وَإنِّي لَـذُو حِلـفٍ كَـاذِبٍ إذَا مَا اضطرَرتُ وَفِي الحَالِ

وَهَل مِن جُنَاحٍ عَلَى مُسـلِمٍ يُـدَافِعُ بِـاللهِ مَـا لاَ يُطِيـق

---

(١) قضها بقضيضها بالنصب: أي مُنقضنا أخرهم على أولهم، و«البقيع» موضع بالمدينة، و«السبال» جمع سبلة، وهي مقدم اللحية.

(٢) عنها: أي عن الحلفة.

(٣) قدت شقت، و«الجل» بالضم وبالفتح ما تلبسه الدابة لتصان به.

التَّحَالُف

التحَالُف التعاقُد، ولقد دعانا لذكره ما يكون عنده من الأقسام بما هو مُحترَم دينا؛ فقد كانت قبائلهم لكثرة شنِّهم الغارات وطلبهم الثارات ووقوع العداوة والبغضاء فيما بين بعضهم وبعض، تحتاج القبيلة لحفظ كيانها أن تتحالف مع قبيلة أو أكثر حسبما تقتضيه حاجتها إلى البقاء أو رغبتها في الانتصار على الأعداء، وقد يكون التحالف لكفٍّ القتال والصلح بعد النضال.

وكانوا يغمسون أيديهم في دم أو خلوق أو رُب أو غير ذلك عند الحلف كنايةً عن صبغتهم بصبغةٍ واحدة، فمن التحالف بغمس اليد في الدم ما كان من تحالف قبائل عبد الدار ومخزوم وعدي وسهم وجمح؛ فإنهم عندما تحالفوا على ألاَّ يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا أخرجوا جفنة مملوءة دم جزور نحروها وقالوا: من أدخل يده في دمها فلعق منه فهو منا، ففعلوا ذلك فسُموا «لَعَقَة الدَّم» لذلك.

ومن ذلك أيضًا ما كان من أمر الدَّم الذي قرَّبوه عندما أرادوا الحلف مع الهجرس بن كليب، وذكر خبر ذلك الأصفهاني في الأغاني قال:

إنَّ جسَّاسًا لمَّا قتل كُليبًا، وكان أخت جساس تحت كليب فرجعت على أهلها ووقعت الحرب بين الفريقين زمنًا طويلاً، ثم صاروا إلى الموادعة بعد ما كادت القبيلتان تتفانيان، فولدت أخت جساس غلامًا سمَّته «الهجرس» ربَّاه جسَّاس فكان لا يعرف أبًا غيره، فزوَّجه ابنته، فوقع بين الهجرس وبين

رجل من بني بكر بن وائل كلام فقال البكري: ما أنت بمنتهٍ حتى نُلحقك بأبيك، فأمسك عنه ودخل إلى أمّه كئيبًا فسألته عمّا به فأخبرها الخبر.

فلما آوى إلى فراشه ونام إلى جنب امرأته وضع أنفه بين ثدييها فتنفّس تنفسه تنفّط ما بين ثدييها من حرارتها، فقامت الجارية فزعة قد أقلّتها رعدة حتى دخلت على أبيها فقصّت عليه قصة الهجرس فقال جساس: ثائر ورب الكعبة.

وبات جسّاس على مثل الرضف حتى أصبح فأرسل إلى الهجرس فأتاه فقال له: إنما أنت ولدي ومني بالمكان الذي قد علمت، وقد زوّجتك ابنتي وأنت معي، وقد كانت الحرب في أبيك زمانًا طويلاً حتى كدنا نتفانى، وقد اصطلحنا وتحاجزنا، وقد رأيت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح، وأن تنطلق حتى نأخذ عليك مثلما أُخِذ علينا وعلى قومنا.

فقال الهجرس: أنا فاعل، ولكنّ مثلي لا يأتي قومه إلاّ بلأمته وفرسه .. فحمله جسّاس على فرس وأعطاه لأمه ودرعًا، فخرجا حتى أتيا جماعةً من قومهما فقصّ عليهم جسّاس ما كانوا فيه من البلاء وما صاروا فيه من العاقبة، ثم قال: وهذا الفتى ابن أختي، قد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه ويعقد ما عقدتم.

فلمّا قرّبوا الدم وقاموا إلى العقد أخذ الهجرس بوسط رمحه ثم قال: وفرسي وأذنيه ورمحي ونصليه وسيفي وغراريه لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه، ثم طعن جسّاسًا فقتله ثم لحق بقومه.

ومن ذلك ما كان من بكر بن وائل، وذلك أنَّ جساس بن مرة لمَّـا قتـل كليبا أخذه أبوه فأوثقه رباطًا وجعله في بيت ثم دعا بطون بكـر بـن وائـل واستشارهم في أمره.

فقال سعد بن مالك بن ضبيعة البكري: لا، والله ما نعطي تغلب جساسًا، ولنقاتلنَّ دونه حتى نفنى جميعًا، فدعا بجزور فنُحرت ثم تحالفوا على الدم.

ومن ذلك ما قيل أنَّ خثعم، وهم بطن من إنمار، سمُّوا بـذلك مـن التخثعم وهو التلطخ بالدم، وذلك أنهم نحروا بعيرًا وغمسوا أيديهم فـي دمـه واختلفوا عليه.

ومن التحالُف بغمس اليد في الخلوق ما كان من أمر بني عبـد منـاف وبني أسد بن عبد العزَّى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة والحارث بن فهـر؛ فإنهم تحالفوا على النصرة وغمسوا أيديهم في جفنة مملوءة طيبًا ثم مسـحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفسهم، فسمُّوا بـ«المطيبين» لذلك.

ومن ذلك ما روي أنَّ منشم التي ضُرب المثل بعطرها فقيل «أشأم مـن عطر منشم»، و«دقوا بينهم عطر منشم» .. ومنشم كانت امرأة عطارة تبيـع الطيب، فكانوا إذا قصدوا الحرب غمسوا أيديهم في طيبها وتحالفوا عليه بـأن يستميتوا في تلك الحرب ولا يولّوا أو يقتلوا.

ومن التحالف بغمس اليد في الرّب ما كان من أمر بني عبد مناة بـن أد بن طابخة، وهم تيم وعدي وعكل وثور، فإنهم غمسوا أيديهم في الرّب فـي حلف علي بن ضبة فلقِّبوا بـ«الرباب»، كذا في «العقد الفريد».

وفي القاموس: و«الرُباب» أحياء ضبة، لأنهم أدخلوا أيديهم في رُب وتعاقدوا .. و«الرُّب» بالضم سلافة خثارة كلٍّ ثمرة بعد اعتصارها وثفل السمن.

وكانوا يوقدون نارًا عند التحالف، وذكرها الجاحظ في البيان والتبيين فقال:

وكانوا يتحالفون على النار ويتعاقدون ويأخذون العهد المؤكد واليمين الغموس، مثل قولهم «ما سرى نجم وهبت ريح وبلٍّ بحر صوفة وخالفت جرّة درّة»، ولذلك قال الحارث بن حلزة اليشكري:

وَاذكُرُوا حِلفَ ذِي المَجَازِ وَمَا — دِّمَ فِيهِ العُهُودُ وَالكُفَلاَءُ

حَذَرَ الخَونِ وَالتَعَدّي وَهَل يَنـ — ـقُضُ ما في المَهارِقِ الأهواءُ[1]

وقال في كتاب الحيوان:

كانوا لا يعقدون حلفهم إلاَّ عند نار، فيذكرون عند ذلك منافعها، ويدعون الله بالحرمان والمنع من منافعها على الذي ينقض عهد الحلف

---

(١) الخون: الخيانة ويُروى «الجور»، و«المهرق» الصحيفة، جمعه «مهارق».

ويحنث بالعهد، ويقولون في الحلف «الدم الدم»[١] و«الهدَم الهدَم»، يحركون الدال في هذا الموضع[٢].

لا يزيده طول الشمس إلاَّ شدًّا وطول الليالي إلاَّ مدًّا، ما بلَّ البحر صوفة وما أقام رضوى في مكانه، إن كان جبلهم رضوى .. وكلُّ قومٍ يذكرون جبلهم، وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم ويهولون على من تخاف عليه الغدر بحقوقها ومنافعها والتخويف من حرمان منفعتها.

وقد تحالفت قبائل من مرَّة بن عوف عند نار فدنوا منها حتى محشَّتهم فسُمُّوا «المحاش»، وربما تحالفوا وتعاقدوا على الملح، قال الشاعر:

حلَفتُ لَهُم بِالمِلحِ وَالقَومِ شُهَّدٌ وَبِالنَّارِ وَاللاَّتِ الَّتِي هِيَ أعظَمُ

---

(١) قال ابن قتيبة: كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار دَمي دَمك وهدمي هدمك، أي ما هدمت من الدماء هدمته أنا، ويقال أيضا بل «اللدم اللدم والهدم الهدم»، وأنشد «ثم الحقي بهدمي ولدمي»، فاللدم جمع «لادم»، وهم أهله الذين يلتدمون عليه إذا مات، وهو من «لدمت صدره» إذا ضربته.

(٢) قال ابن هشام: الهدَم بفتح الدال الحُرمة، وإنما كُنى عن حرمة الرجل وأهله بالهدم لأنهم كانوا أهل نجعة وارتحال ولهم بيوت يستخفونها يوم ظعنهم، فكلما ظعنوا هدموها، والهدم بمعنى المهدوم كالقبض بمعنى المقبوض، ثم جعلوا الهدم وهو البيت المهدوم عبارة عمَّا حوى، فهو كقولهم «هدمي هدمك» أي «رحلتي مع رحلتك» أي «لا أظعن وأدعك»، وأنشد يعقوب «كأنها هدم في الجفر منقاض».

والملح شيئان: أحدهما المرقة والآخر اللبن .. وأنشدوا لشتيم بن خويلد الغزاري:

لا يُبعِدِ اللَهُ رَبُّ العِبادِ وَالمِلحِ ما ولَدَت خالِدَه

وأنشدوا في قول أبي الطمحان:

وَإنّي لأَرجُو مِلحَهَا فِي بُطُونِكُم وَمَا بَسَطَتَ مِن جِلدِ أَشعَثَ أَغبَرَا

وذلك أنه كان جاورهم فكان يسقيهم اللبن كأنه يقول «كنتم مهازيل - والمهزول يتقشَّف جلده وينقبض - فبسط ذلك من جلودكم».

قال ابن السيد البطليوسي:

ولأنهم كانوا يتحالفون على النار ذكر أعشى بكر النار عند المحالفة في قصيدته التي امتدح بها المحلق حيث قال:

لَعَمرِي قَد لاَحَت عُيُونٌ كَثِيرَةٌ عَلَى ضَوءِ نَارٍ فِي يَفَاعٍ

تَشُبُّ لِمَقرُورَينِ يَصطَلِيَانِهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى

رَضِيعَي لَبَانَ ثَديٍ أُمٍّ تَحَالَفَا بِأسحَمَ دَاجٍ عَوضَ لاَ نَتَفَرَّقُ

وعلَّل العسكري تحالفهم على النار بأنَّ منفعتها تختصُّ بالإنسان لا يشاركه فيها غيره من الحيوان، وأرى أنَّ حلفهم بالنار وتعاقدهم عليها أثر من آثار الديانة المجوسية سرى إليهم من مجاورتهم لفارس.

ثم رأيت ابن عبد ربه قال في «العقد الفريد» في بيت الأعشى المتقدِّم:

قوله «تقاسما بأسحم داج» يقول: تحالفا على الرَّماد، وهذا شيء تفعله الفرس، لا يتفرَّقوا أبد الدَّهر.

فإذا كان تحالفهم على الرَّماد الذي هو أثر النار المقدسة جاءهم من مجاورتهم الفرس، فيكون تحالفهم على النار جاءهم من مجاورتهم الفرس من باب أولى.

الـدُّعَـــاء:

العربي ككلِّ إنسان ذي دين، إذا نزل به مكروهٌ لجأ إلى معبــوده فــي كشف الضرِّ عنه، وإذا أصابه قوى بمصيبة تضرَّع لبارئه أن ينتقم له ممَّــن ظلمه.

وكانوا يعتقدون أنَّ من دُعِي عليه فاضطجع لم تُســتجَب فيــه دعــوى الداعي، وشاهد ذلك ما حصل عند دعوة خبيب بن عدي؛ وذلك أنه قدم رهط من عضل والقارة - وهما قبيلتان من الهون بن خزيمة بن مدركــه - علــى رسول الله فقالوا: يا رسول الله، إنَّ فينا إسلامًا، فابعث إلينا من يُفقِّهوننا فــي الدِّين، فبعث إليهم ستة نفر منهم خبيب بن عدي فغدروا بهم وباعوا خبيبًا من قريش بأسير من هذيل كان بمكة، فابتاع خبيبا حجير بن أبي أهاب التميمــي لعقبه بن الحارث بن عامر ليقتله بأبيه، فأقام في أيديهم حتى انقضت الأشــهر الحرم ثم خرجوا به إلى التنعيم ليصلبوه، ورفعوه على خشبة وقتلــوه طعنًــا بحربه..قال ابن إسحاق: **فلما أوثقوا خبيبًا قال: «اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تغادر منهم أحدًا»، ثم قتلوه رحمه الله، فكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقينــي إلــى الأرض فرقًا من دعوة خبيب، وكانوا يقولون: إنَّ الرجــل إذا دُعــي عليــه فاضطجع لجنبه زالت عنه.**

الصَّابئون

ينسب الصابئون دينهم إلى سيدنا نوح وإلى إبراهيم الخليل بالتلقي عن نوح وعن إدريس، ومنهم عبدة الأصنام والكواكب، والفئة الباقية منهم على معتقدها الإلهي بعد أن مزجته بالعقليات يتوجَّهون في عبادتهم للقطب الشمالي ويُصلُّون ثماني ركعات عند ظهور شفق الشمس الشروقي وخمسًا وقت الزوال ومثلها وقت غروب الشمس، يسجدون في كلِّ ركعة منها ثلاث سجدات بلا انحناء، ويتلون في قيامهم وسجودهم كلمات تشتمل على مناجاة ودعوات واستغفار، ويصومون في كلِّ سنةٍ ثلاثين يومًا عدد ما تقطعه الشمس في كلِّ برج من بروجها، يمسكون فيها عن الطعام والشراب من شفق شروق الشمس إلى شفق غروبها، ويطرون على غير اللحوم من الألبان والنباتات إلاَّ ما حرم منها عندهم، يصومون من الثلاثين يومًا أربعة عشر يومًا متتالية في فصل الشتاء موافقة لأعداد الكواكب السبعة وأفلاكها، وسبعة أيام في الربيع موافقة لأعداد الكواكب وحدها، وتسعة أيام في أواخر الصيف موافقة للأفلاك السبعة مع فلكي الثوابت والمحيط، ويقدمون الضحايا في هياكلهم ومعابدهم للسدنة والفقراء، ويعظمون الكواكب لاعتقادهم أنها أعظم أثر إلهي فعَّال في الأجرام السفلية، ويمنعون توريث الفاسق من العدل، ويعتقدون بعث الأرواح لا الأجسام وطهارة النفس العاصية بعد تعذيبها ثلاثة آلاف سنة، وأنَّ الرسُل لم يبعثهم الله، بل هم مُلهمون من

المجرَّدات، وإن الخير من الله والشرّ من النفوس، وإنّ الله لا تدركه الأبصار، لا في هذه الدار ولا في الدار الآخرة، وحرَّموا تعذيب الحيوان وقتله إلاّ ما أحِلّ أكل لحمه.

ذلك هو الأصل، ثم تعدَّدت المذاهب واختلفت، فبعضها يُحرِّم من النبات والحيوان ما أحلَّه الآخر، وبعضها يحلّ زواج امرأةَ الأب التي لم تعقب منه والبعض يحرمها مطلقًا، وبعضها يوجب غسل جراحات القتيل عند دفنه والآخر يُحرِّمه ... إلى غير ذلك من الفروع.

ثم اشتغل بالإلهيات الحكماء، واعتبروا كتُب الفلاسفة كتُبَ تعليم وإرشاد ككتُب الرسُل، والصابئون يعتقدون في الأنواء اعتقاد المنجِّمين في السيارات حتى لا يتحرّك أحدهم ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلاّ بنوء من الأنواء ويقول: «مُطرنا بنوء كذا».

وهم ينقسمون إلى «مؤمن» و«كافر»، ولذلك ذكرهم الله تعالى في الأمم الأربع الذين تنقسم كلٌّ أمة منهم على ناجٍ وهالك في قوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فذكرهم في آية الوعد بالجنة لذلك، ولما ذكر المجوس والمشركين وليس منهم سعيد حُكم عليهم بالفصل بينهم في قوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

و«حران» دار الصابئة، وهم فرق؛ فصابئة حنفاء وصابئة مشركون وصابئة فلاسفة وصابئة يأخذون محاسن ما عليه أهل الملل والنحل من غير تقيُّد بملَّة، ومنهم من يقرُّ بالنبوَّات جملة ويتوقَّف في التفصيل، ومنهم من يقرُّ بها جملةً وتفصيلاً، ومنهم من ينكرها جملةً وتفصيلاً.

والمشركون منهم يعبدون الله بالتقرُّب للكواكب والعلويات بأنواع للعبادة من التضرع والابتهال بالدعوات والصلوات وذبح القرابين والبخور والعزائم لتستمدَّ نفوسهم منها بغير واسطة الرسُل، وأقاموا لها الهياكل للعبادة، فكان كفرهم لعبادة العلويات والكواكب.

عبادتهم الكواكب وآثار عبادتهم لها:

نظر فريق من الناس إلى الكواكب نظر المتقدِّمين من علماء النجوم من حيث تأثير الكواكب في هذا العالم، فجعلوا الموجودات الأرضية أثرًا للشمس عند قوم وللكواكب بتوزيع التأثير فيها عند آخرين، وهذه الطائفة ترى الكواكب مدبِّرة لهذا العالم، وعنها يصدر ما فيه من خيرٍ وشرٍّ وسعادة ونحس وغير ذلك بسبب أوضاع الكواكب من التثليث والتسديس والتربيع، ومقارنة كوكبين أو أكثر من الكواكب السبعة السيارة

في درجة واحدة من برج واحد .. ومن الصابئين من عدل عن معتقده الإلهي فاعتقد التأثير للكواكب، وهؤلاء ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: ذهبت إلى أنَّ الكواكب واجبة الوجود لذاتها غير محتاجة إلى مخصِّص.

والفرقة الثانية: ترى أنَّ الكواكب آلهة، ولكلٍّ منها عمل قائم به في هذا العالم يصدر عنه لا يقدر عليه غيره، وأنها أبدية الوجود أزلية الأولية تجري أحكامها لا لغاية.

والفرقة الثالثة: ترى أنَّ لهذه الكواكب والأفلاك إلهًا مبدعًا أعطاها قدرة وإرادة ذاتية نافذة في هذا العالم وفوَّض إليها تدبيره.

وهذه الطوائف كان لها عصبيَّات في بلاد العرب، فدانت العرب بهذا الدِّين واعتقدته وبنوا الهياكل العظيمة للشمس، وقرَّبوا لها القرابين وحجُّوا إليها وذبحوا لها الذبائح واعتكفوا عندها خاضعين عابدين، وأول من دان بهذا الدِّين من العرب قبائل سبأ الحميرية، فلمَّا تهدَّمت سدودهم وتخرَّبت أراضيهم تفرَّقوا في بلاد العرب وقبائلها، فانتشر دينهم في القبائل التي نزلوا بها أو جاوروها والبطون التي سكنوا معها وعاشروها حتى شاع في بلاد العرب وانتقل منها على مجاوريهم أهل الحبشة والشام، ومن قبائل سبأ قوم بلقيس، وقد حكى القرآن حديث الهدهد لسيدنا سليمان عليه السلام عبادتها وقومها في قوله:

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾[1].

وعبدت ثمود الشمس، وكانوا بين الحجاز والشام بأرض الحجر، فدعاهم صالح لعبادة الله تعالى وهدم هياكل الشمس فما آمن به إلاَّ قليل.

وأخصُّ أنواع عبادتهم للشمس كانت بالسجود لها عند شروقها وعند غروبها وعند توسطها السماء، فلهذا نهى النبي ﷺ عن الصلاة في هذه الأوقات قطعًا لمشابهة الكفار ظاهرًا وسدًّا لذريعة الشِّرك.

وبعض كنانة كانت تعبد القمر والدبران وبنو لخم وجُرهم؛ كانوا يسجدون للمشتري، ومن العرب من عَبَد عطارد، وبنو طيء عبد بعضهم سهيلاً وبعضهم الثريَّا، وهي عدَّة كواكب مجتمعة، وبعض قبائل ربيعة عبدوا المرزم كمنبر (والمرزمان نجمان مع الشعريين يسمَّى أحدهما كفٌ الكلب، وهو يتبع الشعري العبور، وثانيهما هو الكوكب الأخفى من كوكبي الذراع)، وطائفة من تميم عبدوا الدبران، وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدوا الشِّعرى العبور، وهي الشِّعرى اليمانية.

---

١ - سورة النمل الآية ٢٢ – ٢٥ .

ذكر بعضهم أنَّ أول من سنَّ لهم ذلك أبو كبشة، وجزء ابن غالب جد وهب بن عبد مناف، وهو أبو آمنة أم نبيِّنا ﷺ، فلما بعث الرسول وخالف العرب في عبادتهم الأوثان دعوه بابن أبي كبشة[1] لمخالفته لهم كمخالفة أبي كبشة لقومه في عبادة الشِّعرى.

قال ابن قتيبة:

وكان قوم في الجاهلية عبدوا الشعرى العبور وفتنوا بها، وكان أبو كبشة الذي كان المشركون ينسبون إليه رسول الله ﷺ أول من عبدها وقال: «قطعت السماء عرضًا، ولم يقطع السماء عرضًا غيرها»، وعبدها وخالف قريشًا، فلما بُعث رسول الله ﷺ ودعا إلى عبادة الله وترك عبادة الأوثان قالوا «هذا ابن أبي كبشة» أي شبهه ومثله.

وخصَّ الله الشِّعرى بالذِّكر في قوله:﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ .

إمَّا لعبادة كثير منهم لها وإما للإشعار بأنَّ النبي ﷺ إن وافق أبا كبشة في مخالفته دين قومه فإنه يخالفه في أنَّ دين أبي كبشة باطل ودين محمد الحقّ لعبادته الله تعالى.

أمَّا آثار عبادتهم للكواكب فمنها تسميتهم أنفسهم بأسماء مضافة لها بالعبودية كـ«عبد شمس» و«عبد المشترى»؛ فإنَّ ذلك دليل على عبادتهم لها، ومنها تسميتهم للشمس بالإلهة والآلهة .. قال الشاعر:

---

(١) في القاموس وكان المشركون يقول للنبي ابن أبي كبشة شبهوه بأبي كبشة رجل من خزاعة خالف قريشا في عبادة الأوثان أو هي كنية وهب بن عبد مناف جده ﷺ من قبل أمه لأنه كان نزع إليه في الشبه أو كنية زوج حليمة السعدية أو كنية عم ولدها.

تَرَوَّحنَا مِن اللَعباءِ عَصرًا وَأعجَلنَا الإلَهَةَ أن تَؤوبَا[1]

قال الفارسي: سموها «إلهة» على نحو تعظيمهم لها وعبادتهم إياها، وعلى ذلك نهاهم الله عزَّ وجلَّ عن عبادتها، وأمرهم بالتوجُّه في العبادة إليه دون ما خلقه وأوجده بعد أن لم يكن فقال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ .

ومن آثار عبادة الشمس ما يفعله الغلام إذا سقطت سنّة، وذلك أنه كان إذا سقطت له سنٌّ أخذها بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال: يا شمس، أبدليني بها سنًّا أحسن منها، ولتجرِ في ظلمها آياتك.

زاعمين أنه يأمن على أسنانه العوج إذا صنع ذلك، وإلى هذا أشار طرفة بن العبد:

بادنٌ تَجلو إذا ما ابتَسَمَت عَن شَتيتٍ كَأقاحِ الرَملِ غُر

بَدَّلَتهُ الشَمسُ مِن منبَتِهِ بَرَدًا أبيَضَ مَصقولَ الأُشُر[2]

وقال أيضًا يصف ثغر محبوبته:

---

(١) تروحنا سرنا وقت الرواح وهو العشي أو من الزوال إلى الليل و(اللعباء) اسم مكان و(اعجلنا) سبقنا.

(٢) أشر الأسنان: التحريز الذي يكون فيها، يقال «أشرت المرأة أسنانها» حزرتها، وهذا كان من صنيعهم.

سقَتهُ إِياةُ الشَمسِ إلاَّ لثاتِهِ أُسِفَّ ولَم تَكدِم عَلَيهِ بِإِثمِدِ[1]

وقال آخر:

وَأَشنَبُ وَاضِحٌ عَذبُ الثَّنَايَا كَأَنَّ رِضَا بِهِ صَافِي المُدَامِ

كَسَتهُ الشَّمسُ لَونًا مِن سَنَاهَا فَلاَحَ كَأَنَّهُ بَرقُ الغَمَامِ

وقال آخر:

بِذِي أَشَرٍ عَذبَ المَذَاقِ تَفَرَّدَت بِهِ الشَّمسُ حَتَّى عَادَ أَبيَضَ نَاصِعَا

ووجه كون هذه العادة من آثار عبادة الشمس أنَّ الشمس كانت من معبوداتهم في الجاهلية، والعبد يطلب من معبوده سؤله، والغباء يلقِّنون عقائدهم لأبنائهم، فالظاهر أن يكون عابد الشمس علَّم ولده أن يسأل معبوده الشمس أن تُبدِّله بسنِّه التي سقطت سنًّا أخرى خيرًا منها بريئةً من الفساد والعوج، ويكون الولد قد امتثل أمر والده فسمعه غيره من الأبناء الذين لم تكن الشمس معبودة لهم ولا لآبائهم فقلَّدوه، وبهذا البيان لا تكون هذه العادة من الأوابد التي لا يُفهم معناها، ولا يزال الخلف ينقل هذه العادة عن السلف، إننا نرى اليوم من أسقطت سنُّه رمى بها في عين الشمس وقال: «يا شمس يا شموسة، خذي سنة الجاموسة، وهاتي سنة العروسة»!

---

(١) أي ثغرها برّاق إلاَّ لثاته، فإنها حواء، و«أسف» ذر عليه، و«الإثمد» الكحل، و«اللثاث» اللحم الذي تنبت فيه الأسنان، و«إياة الشمس» ضوؤها، و«لم تكدم» لم تعض، و«بإثمد» متعلق بأسف، أي ذر الإثمد على اللثاة والشفاة، وكانت تلك عادتهم التي يستحبونها

المَجُوسِيَّة والزَّندَقَة

المجوس يعتقدون نبوَّة إبراهيم الخليل، وقد بحثوا في كتُب الحكماء مُقتصرين على مبحثي «التكوين» و«الخير والشر»، فنظروا في مبحث «التكوين» إلى انفصال الحرارة التكوينية من ممكن الصادر الأول، ثم تدرُّجها إلى الحرارة المركزية بالنسبة لبطن الأرض ومحيط سطحها، وبها صارت الأرض ذات رواب وجبالٍ وصحارَى وجُزُر، ونظروا للإنسان من حيث تركيبه وأصل نشأته فجعلوه ابن الأرض التي هي بنت الحرارة المقابلة عندهم للقدرة الإلهية، فاتَّخذوا النار من حيث هي أثر الإله، وفيها صفته التكوينية دالاً على معبود، ومع تقادُم الزمن وكثرة تصرُّف الرؤساء الدِّينيين في هذا الأصل اختلفوا في الاعتقاد حتى قالت طائفة منهم إنَّ النار معبود قائم بذاته.

أمَّا مبحث «الخير والشر» فقد نظر قدماؤهم فيه لقول الحكماء: إنَّ الباري بتوحيد ذاته جهةً واعتبارًا يستحيل صدور التكثر عنه؛ لأنه لو صدر الخير والشر عنه لكان عين التكثر في إمكانه، وهو باطل، فقالوا بوجود فاعلين أزليَّين يصدر عن أحدهما الخير وعن الثاني الشرّ، فاعتقدوا بوجود إلهين: أحدهما نور ومبدأ الخير كله ويسمونه «أرمزاد» أو «يزدان»، والثاني ظلام ومبدأ الشر كله ويسمونه «أهرمان» أو «أهرمن»، يكون الغالب منهما إله الشر متى كثرت الشرور، ومنه يطلب الإنسان الشرَّ والبلاء لأعدائه، بينما يغلب إله الخير متى كثرت الخيرات وبه يتضرَّع

الإنسان في طلب الخير لنفسه ولأحبائه، وهؤلاء هم «الثنوية»، وانتهى الأمر بالمتأخِّرين أن صوَّروا إلههم بصورة على كتفيها صورتا الخير والشر، ولما نشأ زرادشت بن بيورشت (المتوفَّى سنة ٤٨٧ قبل الميلاد) أبطل القول بإلهي النور والظلمة، وعلَّمهم أنَّ الإله واحد، وأنه خلق ملكَي النور والظلام، وأنَّ الشرَّ في العالم يصدر عن طبيعة المخلوقات، وعند انتهاء العالم تُبعث الأموات للجزاء فيُسجن ملك الظلام وأتباعه في مكان ظُلمة وعذاب أبدي، أمَّا ملك النور وأتباعه فيتنعَّمون خالدين في مكان نورٍ وسعادة، وشرع لهم شرائع مدوَّنة في مجلَّدات.

والمجوس تقرُّ بنبوَّة زرادشت، وأتباعه هم «الزرادشتية»، ولم يكن للمجوس هياكل قبله، وكانوا يسجدون للشمس؛ لأنهم يزعمون أنها مسكن الإله، وللنار؛ لمشابهتها للشمس في الحرارة والنور، فأمرهم ببناء الهياكل حتى لا يمنعهم مزاج الفلك عن العبادة في أيِّ وقت، وجدَّد لهم بيوت النيران التي أخمدها «منوشهر»، وأخبرهم أنه عرج على السماء ورأى الله في سحابةٍ لامعة وسمع صوته، ثم هبط منها بقبسٍ من النار أشعلت به النار المقدَّسة التي في هياكلهم، ولا يجيزون للكهنة نفخها بأفواههم، ومن يفعل ذلك فجزاؤه القتل، ولا يقربها الكهنة إلاَّ وعلى وجوههم براقع لئلاَّ يفسدوها بأنفاسهم، ولا يطفئونها ليلاً ولا نهارًا، ووقودها حطب نظيف مقشور، وإن انطفأت لا تُجدَّد إلاَّ من نار هيكلٍ آخر .. وهو الذي

شرع لهم «عيد النيروز»، أي اليوم الجديد في الاعتدال الربيعي، و«عيد المهرجان»، أي الخريف في الاعتدال الخريفي.

ولمَّا ظهر «مزدك» الخارجي في أيام قباذ بن فيروز بن يزدجرد زعم أنه يدعو إلى شريعة إبراهيم واستحلَّ المحارم والمنكرات، وسوَّى بين الناس في الأموال والأملاك والنساء والعبيد والإماء حتى لا يكون لأحدٍ على أحدٍ فضل في شيء، وكان يأخذ امرأة هذا فيُسلمها إلى ذاك، وكذا في العبيد والإماء والأموال، فكثر أتباعه وعظم شأنه.

وكان ممَّا شرعه تحريم ذبح الحيوان واكتفاء الإنسان في طعامه بما تنبت الأرض وما يتولَّد من الحيوان كالبيض واللبن والسمن والجبن، وأتباعه هم «المزدكية».

وقد دخلت المجوسية بلاد العرب .. قال ابن قتيبة:

وكانت المجوسية في تميم منهم زرارة بن عدس التميمي وابنه حاجب بن زرارة، وكان قد تزوَّج ابنته ثم ندم[1] .. ومنهم الأقرع بن حابس[2]، كان مجوسيًا، وأبو سود جد وكيع بن حسان، كان مجوسيًا.

وفي تاريخ ابن الأثير قال أحد العلماء:

إنَّ المجوسية كان يدين بها بعض العرب بالبحرين، فكان زرارة بن عدس وابناه حاجب ولقيط والأقرع بن جابس وغيرهم مجوسيين، وإنَّ لقيط تزوَّج

---

(١) ندم لان زواج البنت كان من الفواحش عند قريش في الجاهلية.

(٢) أدرك الإسلام فأسلم وله صحبه.

ابنته دختنوس وسمَّاها بهذا الاسم الفارسي وقُتل وهي زوج له، فقال في ذلك:

يا لَيْتَ شِعْرِي عَنْكِ دَخْتَنُوسُ إذا أتَاها الخَبَرُ المَرْمُوسُ

أتَخْمِشُ الخَدَّيْنِ أمْ تَمِيسُ لا بَلْ تَمِيسُ، إنَّها عَرُوسُ

وقال أبو ويد أحمد بن سهل البلخي في كتابه «البدء والتاريخ»:

كانت المزدكية والمجوسية في تميم، ومن آثار هذه الديانة فيهم نار الاستسقاء ونار الحلف وحلفهم بالرَّماد والنار.

وأمَّا الزندقة فكانت عند العرب أيضًا .. قال ابن قتيبة في كتاب «المعارف عند الكلام على أديان العرب في الجاهلية»:

وكانت الزندقة في قريش أخذوها عن الحيرة.

وقال البلخي في كتاب «البدء والتاريخ»:

كانت الزندقة والتعطيل في قريش.

وقال ابن الأثير في تاريخه:

وفي أيام قباذ بن فيروز بن يزدجرد ملك الفرس خرج مزدك فدعا الناس إلى الزندقة، فأجابه قباذ على ذلك، ودعا قباذ المنذر بن ماء السماء عامله على الحيرة ونواحيها فامتنع، فدعا الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار ملك نجد إلى ذلك فأجابه، فاستعمله على الحيرة وطرد المنذر من مملكته.

وفي القاموس: **«الزِّنديق» بالكسر من الثنوية، أو القائل بالنور والظلمة، أو من لا يؤمن بالآخرة وبالرّبوبية، أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، أو هو معرَّب «زن دين» أي «دين المرآة».**

وفي اللسان: **«الزِّنديق» القائل ببقاء الدَّهر، فارسي معرَّب، وهو بالفارسية «زندكراي»، يقول بدوام الدهر، والزندقة الضيق، وقيل الزنديق منه؛ لأنه ضيَّق على نفسه.**

وردَّ ابن الكمال ما ذهب إليه القاموس من أنه معرب «ذن دين» وقال: **إنَّ زند اسم كتاب أظهره مزدك رئيس الفرقة المزدكية من الفرق الثنوية.**

ونقل بعضهم عن ابن خلدون أنه قال:

إنَّ زرادشت بن بيورشت الحكيم جاء بكتاب ادَّعاه وحيًا، وإنَّ «كيستاسف» وضع هذا الكتاب في هيكل باصطخر، ووكَّل به الهرامزة، ومنع العامة من تعليمه، ويُسمَّى هذا الكتاب «تستاه»، ثم فسَّره زرادشت وسمَّى تفسيره «زند»، ثم فسَّر التفسير ثانيًا وسمَّاه «زنديه»، فكانت هذه اللفظة أصلاً لكلمة «زنديق»؛ لأنَّ العرب عرَّبتها هكذا، واختُصَّت في عرف الشرع بمن يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر.

والظاهر أنَّ ابن قتيبة يريد بالزندقة إحدى الفرق المجوسية من الثنوية أو المزدكية أو الزرادشتية بدليل قوله: «أخذوها عن الحيرة»، فإنَّ الحيرة - وإن كانت من بلاد الفرس - سكانها وملوكها العرب دينهم دين الفرس أو دين المسيح، ولو كان مراده من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية لم يكن لأخذها من الحيرة وجه فإنَّ كثيرًا من قبائل العرب كانوا كذلك.

الموحِّدون من العَرب

كانت العرب قبل البعثة - عدا من كان على دين سماوي أو غير سماوي - مشركين يعبدون الأصنام إلاَّ من أنار الله بصائرهم، وهم أفراد قليلون وحَّدوا الله وعبدوه بما ارتضه عقولهم أو بما أخذوه عن الشرائع السابقة، ولا يخلو كتابنا من ذِكر بعضهم، فمنهم «تُبَّع الأول» و«خالد بن سنَّان العبسي» و«حنظلة بن صفوان»، وذكرت خبرهم في المختلف في نبوَّتهم من العرب.

ومنهم كذلك «زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزَّى»، وقد خلص هو وورقة بن نوفل بن أسد وعبيد الله بن جحش بن ذئاب وعثمان بن الحويرث بن أسد يتناجون فيما حكاه ابن إسحاق.

وقد اجتمعت قريش يومًا في عيدٍ لهم عند صنمٍ من أصنامهم كانوا يُعظِّمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به، وكان ذلك عيدًا لهم في كلٍّ سنة، فقال بعضهم لبعض:

تصادقوا ولا يكتم بعضكم على بعض.

قالوا: أجل.

قال: تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطوف به لا يسمع ولا يُبصر ولا يضر ولا ينفع؟!.. يا قوم التمسوا لأنفسكم؛ فإنكم والله ما أنتم على شيء.

فتفرَّقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم، فأمَّا ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية واتَّبع الكتُب من أهلها حتى علم علمًا من أهل الكتاب .. وأمَّا عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، فلما قدمها تنصَّر وفارق الإسلام حتى هلك هناك نصرانيًّا .. وأمَّا عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصَّر وحسنت منزلته عنده .. وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تُذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة وقال: «أعبد رب إبراهيم»، ونادى قومه بعيب ما هم عليه.

وروى البخاري في صحيحة بسنده قال:

حدَّثنا موسى قال: حدَّثنا سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح(١) قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة(٢) فأبى - أي زيد - أن يأكل منها ثم قال زيد: إني لست آكل ممَّا تذبحون على

---

(١) بلدح: مكان في طريق التنعيم ويقال هو واد.

(٢) تلك رواية البخاري في المناقب، وروايته في باب ما ذبح على النصب والأصنام فقدم إليه رسول الله سفرة فيها لحم فأبى أن يأكل منها، وجمع ابن المنير بينهما بأنَّ القوم الذين كانوا منها، وجمع ابن المنير بينهما بأنَّ القوم الذين كانوا هناك قدموا السفرة للنبي فقدمها لزيد فقال زيد مخاطبًا أولئك القوم ما قال.

أنصابكم ولا آكل إلاَّ ما ذُكر اسم الله عليه[١]، وإنَّ زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض الكلأ ثم تذبحونها على غير اسم الله إنكارًا لذلك وإعظامًا له.

قال موسى: حدَّثني سالم بن عبد الله ولا أعلمه إلاَّ تحدَّث به عن ابن عمر أنَّ زيد بن عمرو بن نفيل خرج على الشام يسأل عن الدِّين ويتبعه، فلقي عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم فقال:

لعلِّي أدين دينكم فأخبرني.

فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله.

قال زيد: لا أفرُّ إلاَّ من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا، وإني أستطيعه، فهل تدلني على غيره؟

قال: ما أعلمه إلاَّ أن يكون حنيفًا.

---

(١) قال السهيلي: فإن قيل فالنبي ﷺ كان أولى من زيد بهذه الفضيلة، فالجواب أنه ليس في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أكل منها، وعلى تقدير أن يكون أكل فزيد أنما كان يفعل ذلك برأي يراه لا بشرع متقدم، وإنما تقدم شرع إبراهيم بتحريم الميتة لا تحريم ما ذُبح لغير الله، وإنما نزل تحريم ذلك في الإسلام .. وإذا كانت الأشياء قبل ورود الشرع حكمها الإباحة كما يقوله بعض الأصوليين فإن كان أكل فقد فعل أمرًا مباحًا، وإن كان لم يأكل فلا إشكال، وإن قلنا على ما هو الأصح إنَّ الأشياء قبل ورود الشرع لا توصف بالإباحة ولا بالتحريم فإنَّ الذبائح لها أصل في تحليل الشرع المتقدم، ولم يقدم في هذا التحليل ما ابتدعوه من الذبح على النصب حتى جاء الإسلام وأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾.

قال زيد وما الحنيف؟

قال: دين إبراهيم، لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يعبد إلاَّ الله.

فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله فقال:

لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله.

قال: ما أفرُّ إلاَّ من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئًا أبدًا، وأنا أستطيع، فهل تدلني على غيره؟

قال: ما أعلمه إلاَّ أن يكون حنيفًا.

قال: وما الحنيف؟

قال: دين إبراهيم، لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يعبد إلاَّ الله.

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج، فلما برز رفع يديه وقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم.

وقال الليث: **كتب إلى هشام عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مُسندًا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري - وكان يُحيي الموءودة - يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيكها مؤنتها .. فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها.**

وكان زيد بن عمرو بن نفيل يقول: «اللهم لو إني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه»، ثم يسجد على راحته.

قال ابن إسحاق: وحدثتُ أنَّ ابنه سعيد وابن عمه عمر بن الخطاب قالا لرسول الله ﷺ: استغفر لزيد بن عمرو؟

قال: نعم، فإنه يُبعث يوم القيامة أمةً وحدة.

ولم يكن زيد يأكل الميتة ولا الدَّم، وهو القائل:

أسلمتُ وَجهِي لِمَن أسلَمَتْ ... لَهُ الأَرضُ تَحمِلُ صَخرًا ثِقالا

دَحَاهَا فلَمَّا رَآهَا استَوَت ... عَلى المَاءِ أرسَى عَلَيهَا الجِبالا

وَأسلَمتُ وَجهي لِمَن أسلَمَت ... لَهُ المُزنُ تَحمِلُ عَذبًا زُلالا

إذا هِيَ سِيقَت إِلى بَلدَةٍ ... أطَاعَت فَصَبَّت عَلَيهَا سِجَالا

ولمَّا خرج زيد بن عمرو بن نفيل من مكة يطلب دين إبراهيم سار يسأل الرّهبان والأحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلَّها، ثم أقبل فجال الشام كلَّها، حتى إذا كان بأرض البلقاء أخبره كاهن انتهى إليه علم أهل النصرانية بأنه قد أظلَّ زمان نبي يُبعث من بلاد العرب بدين إبراهيم، فرجع سريعًا يريد مكة، حتى إذا توسَّط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه، فقال ورقة بن نوفل يُرثيه:

رَشَدتَ وَأنعَمتَ ابنَ عَمرو وَإنَّمَا[1] ... تَجَنَّبتُ تَنُّورًا مِن النَّارِ حَامِيَا

بِدِينِكَ رَبًّا لَيسَ رَبٌّ كَمِثلِهِ ... وَتَركُكَ أوثَانَ الطَّوَاغِي كَمَا هِيَا

وَإدرَاكُكَ الدِّينَ الَّذِي قَد طَلَبتَهُ ... وَلَم تَكُ عَنْ تَوحِيدِ رَبِّكَ سَاهِيَا

---

(١) رشدت وأنعمت: أي رشدت وبالغت في الرشد كما يقال «أمعنت في النظر وأنعمته».

فَأَصبَحتَ فِي دَارِ كَرِيمٍ مقَامُهَا   تَعَلَّلَ فِيهَا بِالكَرَامَةِ لاَهِيَا

ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل في الإلهيات قوله:

عِبَادُكَ يُخطِئُونَ وَأَنتَ رَبٌّ   بِكَفَّيكَ المَنَايَا وَالحُتُوم[1]

ومنهم «قس بن ساعدة الأيادي»، كان من أقدم من آمن بالبعث من العرب، وعمر طويلاً، وسمعه النبي ﷺ قبل البعثة بعكاظ يقول في خطبته:

أيها الناس، اسمعوا وعوا، فإن وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آت آت .. إنَّ في السماء لخبرًا، وإنَّ في الأرض لعِبَرًا، مهادٌ موضوع وسقفٌ مرفوع ونجومٌ تمور وبحارٌ لن تغور، ليلٌ داج وسماءٌ ذات أبراج، أقسم قسٌّ قسمًا حتمًا أنَّ لله دينًا هو أحبُّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه .. ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟.. أرضوا بالمقام فأقاموا أم تُركوا فناموا؟

ومنهم «سحنة بن خلف الجرهمي»، وقدمنا قوله في لوم عمرو بن لحي على وضع الأوثان حول الكعبة، وحمله العرب على عبادتها.

ومنهم «المتلمس بن أمية الكناني»، وكان يخطب بفناء الكعبة ويقول: أطيعوني ترشدوا.

قالوا وما ذاك؟

---

(١) الحتوم: الأقضية.

قال: إنكم تفردتم بآلهة شتَّى، وإني لا أعلم ما الله راض به، وإنَّ الله ربُّ هذه الآلهة، وإنه ليُحب أن يُعبد وحده.

فتفرّقت عنه العرب وزعموا أنه على دين بني تميم ومنهم أجداده عليه السلام كعب بن لؤي وقصي وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب، فأمَّا كعب فقد كانت العرب تجتمع إليه في كلٍّ يوم جمعة فيحثهم على صلة الأرحام وحفظ العهد ومراعاة حقٍّ القرابة والتصدُّق على الفقراء والإحسان للأيتام، ويذكرهم بالموت وأهواله، ويُنبئهم ببعثة رسول من عند الله.

وأما «قصَي» فكان يأمر قومه بتعظيم الحرم وينهاهم عن عبادة الأوثان ويُخبر قومه ببعثة نبي ينهي عن عبادة الأصنام.

وأمَّا «عبد مناف» فكان يبغض الأصنام ويأمر قريشًا بتقوى الله وصلة الرَّحم.

وأمَّا «هاشم» فكان يؤدِّي الحقوق ويحمل ابن السبيل ويجانب عبادة الأوثان ويؤمن بالله.

وأمَّا «عبد المطلب بن هاشم» فقدمنا إيمانه بالبعث وتوحيده الله ورجوعه إليه في قصة الفيل.

ومن الموحِّدين أيضًا «وكيع بن سلمة بن زهير بن إياد»، وكانت له ولاية أمر البيت بعد جُرهم، وبني صرحًا بأسفل مكة وجعل فيه أمة يقال لها «حزورة» وبها سُميت حزورة مكة وجعل في الصَّرح سُلَّمًا، فكان

يرقاه ليخلو بنفسه ويتفكَّر في ملكوت السماوات والأرض والعرب يعدُّونه من الصديقين، ومن أقواله: «مرضعة أو فاطمة ووادعة أو قاصمة والقطيعة والفخيعة وصلة الرحم وحسن الكلم».

ومن كلامه:

زعم ربكم ليجزينَّ بالخير ثوابًا وبالشرِّ عقابًا .. إنَّ من في الأرض عبيد لمن في السماء، هلكت جرهم وربلت إياد، وكذلك الصلاح والفساد.

فلمَّا حضرته الوفاة جمع تابعيه فقال لهم:

اسمعوا وصيتي، الكلام كلمتان، والأمر بعد البيان من رشد فاتبعوه، ومن غوى فارفضوه، وكلُّ شاةٍ برجلها مُعلَّقة، ما مات نعيٌّ على الجبال.

وفيه يقول بشير بن الحجير الأيادي.

وَنَحنُ أَيَادُ عَبِيدِ الإِلَهِ وَرَهطُ مُنَاجِيهِ فِي السُّلَّمِ

وَنَحنُ وُلَاةُ حِجَابِ العَتِيقِ زَمَانَ النُّخَاعِ عَلَى جُرهُمِ[1]

ومنهم «قيس بن نشبة» قال فيه ابن سيدة في «مخصَّص»:

كان مُنجِّمًا مُتفلسِفًا واعدًا ببعثة الرسول، فلمَّا بُعث ﷺ أتاه فقال:

يا محمد، ما كحلة؟

فقال: السماء.

فقال: وما محلة؟

(١) هلك من جرهم بداء النخاع ثمانون كهلاً في ليلة واحدة سوى الشبان.

فقال: الأرض.

فآمن به وقال: لا يعرف هذا إلا نبيٌّ .. وقال حين آمن:

تَابَعتُ دِينَ مُحمَّدٍ ورَضِيتُهُ كُلَّ الرِّضَا لأَمانَتي ولِدِينِي

مَازِلتُ آمَلُهُ وَأرقُبُ وَقْتَهُ وَاللهُ قَدَّرَ أنَّهُ يَهدِينِي

ومنهم «عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة»، وروى له الشهرستاني في الملل قوله:

أدعُوكَ يَا رَبِّي بِمَا أنتَ أهلُهُ دُعَاءَ غَرِيقٍ قَد تَشبَّثَ بِالعُصُمِ

لأنَّكَ أهلُ الحَمدِ وَالخَيرِ كُلِّهِ وَذُو الطَّولِ لَم تَعجَلْ بِسُخطٍ ولَم

وَأنتَ القَدِيمُ الأوَّلُ المَاجِدُ الَّذِي بَدَأتَ خَلقَ النَّاسِ فِي أكتُمِ العَدَمِ

وَأنتَ الَّذِي أحلَلتَنِي غَيبَ ظُلمَةٍ إلَى ظُلمَةٍ مِن صُلبِ آدَمَ فِي

ومنهم «علاَّن بن شهاب التميمي» القائل في الإيمان بالله ويوم الدِّين:

وَعَلِمْتُ أنَّ اللهَ جَازٍ عَبدَهُ يَومَ الحِسَابِ بِأحسَنِ الأعمَالِ

ومنهم زهير بن أبي سلمى، وقد اعترف بوجود الله وأثبت له الحياة والعلم والقدرة، وأقرَّ بالعبث والنشور والثواب والعقاب وكتابة الأعمال ممَّا جاءت به الحنيفية في قوله:

فلاَ تَكتُمَنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُم لِيَخفَى وَمَهمَا يَكتُمُ اللهُ يَعلَمُ

يُؤخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرِ لِيَومِ الحِسَابِ أو يَعجَلُ فَيَنقَمُ

ومنهم «عبد الله بن تغلب بن وبرة بن قضاعة»، وكان ينهج في ديانته منهج الحنيفية، ومنهم عبيد بن الأبرص الأسدي القائل:

وَلَتَأتينَّ قَبلِي قُرُونٌ جَمَّةٌ تَرعَى مَخَارِمَ أيكَةٍ ولَدُودَا

فَالشمسُ طالِعَةٌ ولَيلٌ كاسِفٌ وَالنَجمُ تَجري أنحُسًا وَسُعُودا

ولَيَفنَيَن هَذا وَذاكَ كِلاهُما إلاَّ الإلَهَ وَوَجهَهُ المَعبُودا

ومنهم «عامر بن الظرب العدواني»، وقدمنا قوله في البعث.

ومنهم «سيف بن ذي يزن»، وقد بشَّر عبد المطلب بن هاشم ببعثته عليه الصلاة والسلام.

ومنهم «أبو قيس علي بن هارون» الذي كان يخاف البعض من دعوته، فدعوه وسألوه أن يشرفهم بإتيانه إليهم فأتاهم، ففتكوا به وبمن معه، ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز، فأقاموا بها .. وزعم بنو قريظة أنَّ الروم لمَّا غلبوا على الشام خرج قريظة والنضير وغيرهم هاربين من الشام يريدون من كان بالحجاز من بني إسرائيل، فوجَّه ملك الروم في طلبهم فأعجزوا رسُله.

اليَهُـوديَّـة

أمَّا الذي أدخل اليهودية بلاد اليمن فهو تُبَّع الأصغر أبـو كـرب تبـان أسعد، وقدمنا خبر ذلك عند الكلام على المختلَف في نبوَّتهم من العرب، وقيل سبب تهوُّد العرب غير ذلك.

ولمَّا خربت أورشليم على عهد طيطوس في القرن الأول للميلاد نـزح كثيرون من اليهود إلى بلاد العرب وتوطَّنوها ونشروا تعـاليم ديـنهم بـين العرب، وأشهر من دان باليهودية من قبائل العرب بنو نمير وبنو كنانة وبنـو الحارث بن كعب وبنو كندة، ولعلَّها سرت إليهم من مجاورة اليهود لهم فـي تيماء ويثرب وخيبر.

ولم تتغلَّب اليهودية على الوثنية في بلاد العرب لأنَّ كثيرًا من أحكامهـا مبنيٌّ على المشقَّة، وتلك لا يسلس لها قياد العربي، ولأنها وإن أباحت قتـال الوثنيين –والقتال دين العربي– إلا أنها لا تبيح الانتفاع بغنائمهم بل تحرقها، والعربي إنما يقاتل لينتقم من عدوه في نفسه وينتفع بماله وأهله .: ومن طرق معاشهم الغزو والسلب والنهب، وكانت بعض نساء العرب تُنذر تهوُّد ابنهـا، ففي «الروض الآنف»:

إنَّ جملة من كان من اليهود بالمدينة وخيبر إنما هم قريظة والنضير وبنـو قينقاع، غير أنَّ في الأوس والخزرج من قد تهوَّد، وكان من نسائهم من تنذر إذا ولدت إن عاش ولدها أن تهوِّده، لأنَّ اليهود عندهم كانوا أهل علم وكتاب.

وقد ذكر لبيد بن ربيعة صلاة اليهود من قصيدة له يصف رجلاً غلب عليها النعاس:

يَلمسُ الأحلاسَ في منزِلِه ... بيدَيهِ كاليَهُودِيِّ المَصَلْ[1]

قال البغدادي في «خزانة الأدب»:

وقوله «كاليهودي المصلِّي».

قال الطوسي في شرحه: كأنه يهودي يصلِّي في جانب يسجد على جبينه.

هذا كلامه، واليهودي يسجد على شقٍّ وجهه، وأصل ذلك أنهم لمَّا نتق الجبل فوقهم قيل لهم إمَّا أن تسجدوا وإمَّا أن يلقى عليكم، فسجدوا على شقٍّ واحد مخافة أن يسقط عليهم الجبل، فصار عندهم سُنةً إلى اليوم.

---

(١) فاعل يلمس: ضمير المجود في البيت قبله وهو «ومجود من صبابات الكرى»، والمجود الذي جاده النعاس وألحَّ عليه حتى أُخذ فنام، و«الأحلاس» جمع «حِلس» بالكسر، وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير تحت رحله، أي «يطلب الإحلاس بيديه وهو لا يعقل من غلبة النعاس».

النّصـرَانيَّـة

هي دين المسيح بن مريم عليه السلام، والناصرية نسبة لـ«الناصرة»، أول قرية بثَّ فيها عيسى دعوته، فقال العرب «ناصري» و«نصراني»، وكان يقال للمسيح «الناصري».

وقد دخلت النصرانية بلاد العرب زمن الحواريين، فقد نُقل أنَّ القديس توما أول من دعا إليها في بلاد اليمن أثناء مسيره إلى الهند، وأنَّ بولس دعا إليها في الشام فاعتنقها كثير من عرب الشام، وفي بعض التواريخ المسيحية أنَّ أوريجانوس في القرن الثالث للميلاد زار أحد حكام العرب فهدى قبيلة للنصرانية .. وفي القرن الرابع سار موسى الراهب المصري إلى العرب ودعاهم للنصرانية فتنصرت زوجة حاكمهم المسمَّاة «موفيه».

وفي تاريخ القرون الوسطى أنَّ عرب غسَّان تنصَّروا في أيام القيصر فالنتين، وكان تنصرهم على يد عُباد الصحراء بالشام، (يعني النُسَّاك).

وقال ابن خلدون:

كان أهل نجران (هم بنو الحارث بن كعب من مذحج) **من بين العرب يدينون بالنصرانية، وكان لهم فضل في الدِّين واستقامة، أخذوا هذا الدِّين عن رجل سقط لهم من ملك التبعية يقال له «سيمون» من بقية أصحاب الحواريين.**

وكانت العرب تسمى عيسى عليه السلام «أبتل الأبيلين» .. و«الأبيل» هو الرّاهب أو الناسك والزاهد في الدنيا .. وشاهده قول عمرو بن عبد الجن:

أمـا والـدِّمَاءُ المَـائِرَاتُ تَخَالُهَـا ... عَلَى قنَّةِ العُـزَّى وَبِالنَّسرِ عَنـدَمَا [١]

وَمَا سَبَّحَ الرُّهبَانُ فِـي كُـلِّ لَيلَـةٍ ... أَبِيلُ الأَبِيلَينِ المَسِيحُ بـنُ مَريَمـا [٢]

لَقَـدْ هَزَمَتنِـي عَـامِرٌ يَـومَ لَعلَـعٍ ... حُسَامًا إذَا مَا هَزَّ بِـالكَفِّ صَـمَمَا [٣]

وكان ولدان النصارى يتبرّكون بالرّاهب الذي يجيء مـن بيـت المقدس وبمسحه الذي هو لابسه وأخذ خيوط منه حتـى يتمـزّق ثوبـه، وشاهده قول امرئ القيس الكندي يصف إدراك كلاب الصيد لفرسه:

فَأَدرَكْنَهُ يَأخُذنَ بِالسَّاقِ وَالنَّسَـا ... كَمَا شَبرَقَ الوِلدَانُ ثَوبَ المَقدِسِ [٤]

وكانت النصرانية تُقيم أعيادها في بلاد العـرب، فمنهـا «يـوم السباسب»، ويُسمونه «يوم السعانين».

ويقال «شعانين»، و«عيد الفصح»، وهو ما يتقـدَّم عليـه صـوم الأربعين.

---

(١) نسر: صنم، و«المائرات» المتردّدات، من مَارَ الدم على وجه الأرض يمور إذا تردّد، و«قمّة العزّى» أعلاها، و«العندم» البقر ودم الأخوين.

(٢) سبّح :أي نزّه، وسمي الراهب أبيلا لتأبله وبُعده عن النساء.

(٣) يريد أنّ عامرًا وجده حساما ذلك اليوم، و«صمم» مضى يقال صمم الرجل في الأمر إذا جد فيه.

(٤) شبرق جلده: أي قطعه.

أنشد سيبويه لأحد العرب:

صَدَّت كَما صَدَّ عَمّا لا يَحِلُّ لَهُ ... ساقي نَصارى قَبيلِ الفَصحِ قَوامِ

وكانوا في الفصح يوقدون المشاعل، قال أوس بن حجر يصف رُمحه ويُشبِّه سنانه بمصباح يوقده رئيس النصارى يوم الفصح:

عَلَيه كَمِصباحِ العَزيزِ يَشُبُّهُ ... لِفِصحٍ وَيَحشوهُ الذُبالَ المُفَتَّلا

وقال عدي بن زيد يشير إلى تعمير قنديل الفصح:

بَكَرُوا عَلَيّ بِسَحرَةٍ فَصَبحتُهُم ... بِإنَاءِ ذِي كَرمٍ كَقَعبِ الحَالِبِ

بِزْجَاجَةٍ مِلءِ اليَدَينِ كَأنَّهَا ... قِنديلُ فِصحٍ فِي كَنِيسَةِ راهِبِ

ومن أعيادهم «الذِّنح»، ذكره ابن سيدة في «المخصَّص» عن ابن دريد، وكانت الرَّاهبات تلبس في الأعياد الملاء والأنسجة الطويلة الأذيال .. قال امرؤ القيس يصف سربًا من بقر الوحش:

فَآنَستُ سِربًا مِن بَعِيدٍ كَأَنَّهُ ... رَوَاهِبُ عِيدٍ فِي مَلاَءٍ مُهدبِ

ولم تستطع النصرانية أن تتغلَّب على الوثنية في بلاد العرب، لأنَّ تعاليمها تباين أخلاقهم الغريزية، فمَن مِن العرب يرضى إذا ضربته على خدِّه الأيمن أن يدير لك خدَّه الأيسر لتصفعه عليه مرةً أخرى؟.. بل قلَّد النصارى العرب في كثيرٍ من أمورهم الدِّينية، فكانوا يحجُّون ويعتمرون، إلاَّ أنهم كانوا يقفون في الحجِّ في بطن محسر.

وأنشد عليه الصلاة والسلام لما أفاض من عرفة إلى مزدلفة، وكان في بطن محسر الذي كان موقف النصارى، قول شاعر جاهلي:

إِلَيْـــكَ تَعْـــدُو قَلِقًـــا وَضِـــينُهَا مُعْتَرِضًا فِـــي بَطْنِهَـــا جَنِينُهَـــا

مُخَالِفًـــا دِيـــنَ النَّصَـــارَى دِينُهَـــا

يشير إلى الناقة التي كان راكبها في مسيره إلى الحرم، وكانوا يُعظِّمون الكعبة، ووضعوا فيها صورة السيدة مريم وسيدنا عيسى عليها السلام مع ما وُضع فيها من صور الملائكة والأنبياء كموسى وإبراهيم، وكانوا لا يذكرون اسم الله على الذبيحة، يُقلِّدون في ذلك مشركي العرب.

وخالفوا تعاليم المسيحية في شنِّهم الغارات وطلبهم الثارات؛ لأنَّ العربي جعل رِزقه في ظلِّ رمحه، ولذلك لمَّا قدم عُدي بن حاتم الطائي على رسول الله ﷺ قال له:

أولم تكن تسير في قومك بالمرباع؟

فقال عدي: بلى.

فقال عليه الصلاة والسلام:

فإن ذلك لم يكن يُحلُّ لك في دينك.

فقال: أجل، ذلك لأنَّ الدِّين الذي يُحرِّم القتال لا يُحلُّ غنائم الحرب.

وقد بيَّن عقيدة العرب هذه جابر بن حني التغلبي النصراني في قوله:

وَقَدْ زَعَمَتْ بَهـرَاءُ أَنَّ رَمَاحَنَـا رِمَـاحُ نَصَـارَى لاَ تَخُـوضُ إِلَـى دَمِ

وأشهر من تديَّن بالنصرانية من العرب ربيعة وبعض قضاعة، وكأنهم تلقَّوها عن الروم؛ فقد كانوا يُكثرون التردُّد إلى بلادهم للتجارة .. وكذلك الأساسنة بالشام لمجاورتهم نصارى الروم.

ودان بالنصرانية كثيرٌ من بني تغلب وتنوخ وحِمير وطـيء، وشـاعت النصرانية في قبائل شتّى بالحيرة يُقال لهم «العِبَاد» (بكسر العـين وتخفيـف الباء)، منهم عدي بن زيد العبادي.

وتنصَّر ملوك الحيرة على عهد امرئ القيس الأول ابن عمرو في أوائل القرن الرابع على قول، وقيل أنَّ أول من تنصَّر منهم النعمان بن المنذر فـي آخر القرن السادس، وفي سجل الكنيسة الشرقية أنَّ الحيرة كان عليها أسـقف سنة ٤١٠ ميلادية، وأنَّ ملكها حمى النصرانية سنة ٤٢٠ ميلادية، وقيـل أنَّ ملوك الحيرةِ كانوا في أواسط القرن السادس وثنيِّين، وأنَّ المنذر بن امـرئ القيس بن ماء السماء كان يُقدِّم ذبائح من بني آدم إلى العزَّى، وكان من بـين نسائه امرأةٌ من غسَّان اسمها «هند البكرى» أم «عمرو بـن هنـد»، كانـت مسيحية، فبثَّت مبادئ النصرانية في ابنها فنشأ نصرانيًّا.

ويستظهر بعضهم أنَّ النصرانية لم تثبت بعد عمرو المذكور، فلمَّا مات عاد خليفته المنذر إلى الوثنية، ونشأ ابنه النعمان وثنيًّا حتَّى تنصَّر علـى يـد «الجاثليق صبر يشوع» أو على يد «عدي بن زيد العبادي» كما يقول مؤرِّخو العرب.

وكان نصارى العرب يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح كاعتقاد أتباع يعقـوب البرادي أسقف أورقا سنة ٩٧٨، وهم «اليعاقبة»، ونُسب هذا المذهب ليعقوب لأنـه قال به بعد أن كاد يندثر، وإلاَّ فقد سبقه بالقول بالطبيعة الواحدة «ديوسـقوروس» و«برسوماس» و«زينياس» و«فلو» وغيرهم من القائلين بأنّ طبيعتي المسـيح قـد اتحدتا حتى صارتا طبيعةً واحدة.

وكانت النصرانية شائعة في بعض أمكنة من جزيرة العرب، وذكر حاتم الطائي شيوعها بين نابٍ وداره في قوله:

وإنّي لمُزجٍ لِلمَطِيِّ علَى الوَجا　　وَما أنا مِن خلاّنِك ابنَةَ عَفزَرا

وما زِلتُ أسعى بَينَ نابٍ وَدارَةٍ　　بِلَحيانَ حَتّى خِفتُ أن أتَنَصَّرا

والعجب لصاحب شعراء النصرانية كيف عدَّ حاتمًا من النصارى مع نقله له قوله: «خفت أن أتنصَّر»، أي «خفت الدخول في دين النصارى»، وذلك منه كثير، فقد عدَّ طرفة بن العبد والمتلمِّس نصرانيين مع نقله حلف طرفة بالنصب في قوله:

فأقسَمتُ عِندَ النَّصبِ أنّي لَهَالِكٌ　　بِمُتلَفةٍ لَيستَ بِغَبطٍ ولاَ خَفضِ

ونقله حلف المتلمِّس بالأنصاب في قوله في هجاء عمرو بن هند:

أطرَدتَنِي حَذرَ الهِجَاءِ ولاَ　　وَاللهِ وَالأنصَابِ لاَ تَئِلُ

وعُدَّ أعشى قيس في النصارى مع نقله قوله يخاطب ناقته من قصيدة يمدح بها سيدنا رسول الله ﷺ:

فَآلَيتُ لا أرثي لَها مِن كَلالَةٍ　　وَلا مِن حَفىً حَتّى تَزورَ مُحَمَّدا

نَبِيٌّ يَرى ما لا تَرَونَ وَذِكرُهُ　　أغارَ لَعَمري في البِلادِ وَأنجَدا

مَتى ما تُناخي عِندَ بابِ ابنِ　　تُريحي وَتَلقَي مِن فَواضِلِه يَدا

الإســــلام

كانت العرب في الجاهلية في شرِّ حالٍ من الاضطراب والفوضى، سواءً في ذلك نظام الحكومة أو سياسة البيت أو غيرهما، فكانت النفوس في كلِّ حين عرضةً للسَّفك، والأموال في كلِّ وقتٍ معرَّضة للسَّلب والنهب؛ وذلك لأنهم كانوا شعوبًا وقبائل تغلي صدورهم بالأحقاد، وكلُّ قبيلة إما مقاتلة أو لقتال غيرها على قدم الاستعداد أخذًا بثأر مقتولٍ عمدًا أو خطًا أو لهفوةٍ لم يتناولها الصفح ولم يغفرها العفو، وكانوا يورِّثون أبناءهم الأحقاد، وناهيك بحرب «داحس والغبراء» التي لم تضع أوزارها إلاَّ بعد أربعين سنة، وسببها أهون من أن يُرمى فيه سهم عن كبد قوس أو يُجرَّد فيه حسام من غمد، وكان الصعاليك المدلّون بقوتهم يؤلِّفون عصابات للغارة على المراعي لسلب الأنعام ورعاتها، أو على الأحياء إذا علموا أنَّ المحلفين بها من الرجال لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم لنهب ما بها من الأموال وأسر النساء والولدان والرجال.

وكان أسر النساء يُجيز الاستمتاع بهنَّ ولو كنَّ ذوات أزواج، أمَّا الأسرى من الرجال فكانوا يُكبَّلون بالسلاسل والأغلال وجزاؤهم القتل أو الفداء، وكم قتلوا من رجالٍ وولدان أو استذلُّوهم أو باعوهم أرقَّاء.

وكان الفتى المدلّ بقوته أو بمنعة عشيرته يرى الفتاة فيصبيه حسنها فيختطفها من أبيها أو أخيها أو غيرهما ولو كانت في مدينة آهلة بالسكان بلا حياءٍ ولا خجل كأنما يفعل أمرًا معروفًا غير منكَر، ومثل هذه الحادثة كان سببًا في «حلف الفضول»، وناهيك بقومٍ بلغ من اعتدائهم على المرأة أنهم كانوا يُكرهون فتياتهم على البغاء يبتغون عرض الحياة الدنيا!

ولم يكن عندهم قانون للقصاص يمنع البغي ويقف في سبيل الظلم، بل كان أولياء الدم يقيمون على الخسف إن كانوا ضعفاء انتهازًا لاقتناص الفرص للأخذ بثأرهم غدرًا، وإن كانوا أقوياء أسرفوا في القتل، فربما قتلوا بظنة واحد العدد العديد والجم الغفير، قال شاعرهم:

«الذبيحة مجاراة للمشركين».

واتخذوا في كنائسهم الأصنام، إمَّا لأنهم لم يتجرَّدوا من الوثنية، وإمَّا لترغيب الوثنيين في المسيحية، كما اتَّخذوا الصنم كعيبًا في كنيسة «القُلَّيس»، وكانت تعاليم المسيحية لا تناسب أخلاق العربي الطامح بطبيعته على الفخر والخيلاء والسفك، لا يعرف القعود على الضيم ولا الصبر على أذى المؤذيين وصفع الصافعين، فنبذ أوامرها أكثرهم حتى لم يبقَ لهم من المسيحية إلاَّ اسمها ولا من النصرانية إلاَّ وسمها، نبذوا على اختلاف أديانهم الأوامر الإلهية فأكلوا الرِّبا أضعافًا مضاعفة، وعدُّوا شُرب الخمور ولِعب الميسر من مفاخرهم التي يُفاخرون بها.

هذا حال العرب .. أمَّا غيرهم من الأمم في ذلك العصر فلم يكونوا أحسن حالاً منهم، فكان من رحمة الله بالعالم إن يرسل إليه رسولاً يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، فبعث محمدًا بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ بدين الإسلام .. جاء الإسلام بنشر لواء السلام ويضع الدعائم الثابتة لنظام الاجتماع ويزيل الأثرة من النفوس ويُفهم كلَّ فردٍ أنه جزء من جماعة لا يصلح إلاَّ بصلاحها ولا تصلح إلاَّ بصلاحه .. **«المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضًا»**.

سوّى بين الناس في القصاص، ووضع من الحدود ما يكفل سعادة كلّ إنسان ويصونه من غائلة غيره، وبيّن ما يجب على كلّ فرد أداؤه والقيام به من الواجبات التي فيها صلاحه وحياة المجتمع، وبثّ في النفوس رُوح العطف والرِّفق والتسامح حتى في أحوال الخلاف في الدِّين والعقيدة .. قال تعالى:﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾.

صان الإسلام حقوق المرأة ونهض بها إلى أوجٍ لم تصل إليه في أمة من الأمم ولا في شريعة من الشرائع فأعاد لها حقَّها المسلوب وجعل لها وحدها حقَّ التصرُّف في مالها ونفسها، وسوّى بينها وبين الرجل في التكاليف وغيرها، ولم يميِّز الرجل عنها إلاَّ في الأحكام التي لا يقدر عليها أكثر أفراد جنسها كالجهاد، أو لأمرٍ اقتضى تمييزه عنها .. والمتقصي لمعرفة ذلك يراه مُفصلاً في الكتب التي تبيِّن أسرار التشريع .. نهى الإسلام عن كراهة البنات وعد وأدهنَّ أمرًا إدًّا فقال:

﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ**﴾.

وقال:﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾.

كثيرًا ما وصَّى النبي الكريم ﷺ بالمرأة، ودعا الرِّجال للرفق بها والإحسان إليها.

كما أحاط الإسلام الرِّقَّ بسياجٍ يحميه من عبث العابثين وسلب السالبين، فلم يضرب الرقَّ إلاَّ على الأسير الذي حارب المسلمين للإيقاع بهم والإذلال بدينهم. ثم طفق الشارع الحكيم يدعو إلى عتق الإرقاء بمختلف الوسائل حتى جعله قربة القرب وكفارة تطهر بها النفوس وتغسل بها أدران الذنوب، فجعل العتق واجبًا في كفارة القتل والظهار واليمين

والإفطار في رمضان، وندب إليه في غير ذلك مرضاة لله تعالى، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أيما مؤمن أعتق مؤمنا في الدنيا أعتق الله تعالى بكلِّ عضو منه عضوًا منه من النار**».

سوَّى الإسلام بين الناس في الحقوق، فلم يميِّز جنسًا من الأجناس البشرية على آخَر، وضرب على أيدي الأمراء والرؤساء ليرفعوا عن رءوس العامة عصا الاستبداد وينزعوا من أعناقهم غلَّ الاستعباد، وقضى على التعاليم التي ابتدعها رؤساء الأديان من وجود الوساطة بين العبد وربِّه، فاجتثَّ بذلك أصلاً من أكبر أصول الوثنية؛ فلقد كان يتوسل لذلك الوسيط بأنواع التعظيم ويُمتُّ له بضروب التكريم ممَّا لا يليق إلاَّ بالخالق الحكيم.

كذلك أمر الدين كلَّ واحدٍ بالاجتهاد والعمل بما يصل إليه اجتهاده فيما لم ينزل فيه حكم بين ولا نصٌّ صريح، فلم يجعل الدِّين بذلك بعيد التناول على أحد ومقصورًا على طائفةٍ تُطاع فيما تدَّعيه دينًا من غير تبصُّر ولا تفكير.

نبَّه العقل من نومه واحترمه وأمر بالنظر والتفكُّر، فمزَّق بذلك حُجب الأوهام التي أسدلها رؤساء الدِّين على أهله إذ زعموا أنَّ الدِّين عدوٌّ العقل وما يُثمره العقل إلاَّ ما كان تفسيرًا لكتابٍ منزَّلٍ جعل الأخلاق مصدر حياة الأمم والسرَّ في بقائها .. قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

نهى عن الكسل والخمول والمسكنة التي زعمها رؤساء الدِّين من الدِّين، فأمر بالعمل كلَّ قادرٍ عليه، وأباح لكلِّ إنسان أن يتمتَّع بما شاء من الطيبات:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزقِ﴾.

كذلك حثَّ على التعليم ورغَّب فيه، ودعا لإرشاد العامة إلى الصراط المستقيم والطريق القويم .. قال الله تعالى:

﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ .

أمر الأغنياء أن يجعلوا من أموالهم حقًّا معلومًا للفقراء تطييبًا لنفوسهم وسدًّا لعوزهم وعطفًا على أبناء جنسهم ليستأصل من نفوس الفقراء الحسد والضغينة على الأغنياء.

لم يترك الإسلام فضيلةً من الفضائل إلاَّ أمر بها ولا سُنةً من سُنن الترقِّي والإصلاح إلاَّ قرَّرها، ولا رزيلةً يعود وبالها على المجتمع إلاَّ نهى عنها وقبَّحها.

أعاد الإسلام للحنيفية شبابها، وجدَّد عهدها، وجرَّدها من الوثنية التي أبلت محاسنها وغيَّرت معالمها؛ فالإسلام دين إبراهيم، حكى ذلك القرآن في غير ما آية فقال:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقال تعالى:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقال سبحانه:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾

والآيات في ذلك كثيرة، ولذلك قال ابن حزم:

وكان الذي ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الأرض، على أن أحدثوا فيه الحوادث وبدّلوا شرائعه، فبعث الله عزَّ وجلَّ إليهم إبراهيم خليله بدين الإسلام الذي نحن عليه الآن، وتصحيح ما أفسدوه بالحنيفية السَّمحة التي أتى بها محمد ﷺ من عند الله تعالى.

ومعنى مجيء الإسلام بالحنيفية دين إبراهيم دون اليهودية أو النصرانية مع أنَّ أصول الشرائع من حيث الإلهيات وتحريم المتحقّق ضرورة وتقرير أمهات مكارم الأخلاق واحدة؛ أنَّ الإسلام قرَّر الأحكام والعبادات التي شُرِّعت في دين إبراهيم بعد أن جرَّدها من الوثنية التي أُلصقت بها، وهذا سرٌّ ما تراه من موافقة الإسلام للأحكام التي كان العرب عليها وذكرناها مُفصَّلة في هذا الكتاب، لم يقف الإسلام عند ما شرع في دين إبراهيم بل زاد كثيرًا من الأحكام التي اقتضاها الزمان، فأنقذ الأحوالَ الاجتماعية من براثن الفوضى التي فتكت بها أيام الجاهلية، وأصبح الإسلام بنظامه الدقيق المحكم صالحًا لكلِّ زمانٍ ولكلِّ أمة، لا

يزيده رُقي العقول في المدنية إلاَّ ثباتًا، ولا تنمو العلوم الاجتماعية والكونية إلاَّ لتضمَّ برهانًا بعد برهان على سداده ولطيف حكمته .. كيف لا يكون كذلك وهو الدِّين الخالد التليد الذي أراد الله أن يتعبَّد به الخلق على قيام الساعة .. قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدًا أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمًا﴾.



مؤلَّفات صاحب هذا الكتاب

١- **المرأة العربية في الجاهلية:** كتاب تتبَّع فيه مؤلِّفه حال المرأة عند العرب في الجاهلية من المهد إلى اللحد فجمع عاداتها وجميع أحوالها وهو نحو ثلاثمائة صفحة.

٢- **اللباب في علم الأنساب:** كتاب جمع أنساب العرب في الجاهلية بأحسن ترتيب.

٣- **كتاب يبحث عن عادات العرب:** في الجاهلية في الحرب وعدَّتهم لها.

٤- **الأحوال المدنية والاجتماعية:** عند العرب في الجاهلية.

٥- **رسالة في الكلام:** على الحديث الموضوع، وبيان القواعد التي يعرف بها وضع الحديث والأسباب الداعية إليه.

٦- **كشف اللثام عن أشعار العوام:** رسالة أسهب فيها الكلام على جميع الأوزان التي لم ترد عن العرب من الموشحات والزجل والدوبيت وبحر السلسلة وغيرها وبيان أوزانها.

٧- **رسالة في العلوم الموضوعة لمعرفة الغيب:** كعلم الرمل والأحكام والزابرجة وغيرها وبيان عدم صحة دلالتها.

٨- **علوم العرب في الجاهلية:** كتاب جامع لِما كان عندهم من علم الأخبار وفنِّ القصص، وعلم الريافة، وعلمي العروض والقافية

والشعر والخطب والوصايا - وعلم الألغاز - وعلم الفراسة وعلم فراسة أعضاء الإنسان - وعلم الشامات - وعلم الأسارير - وعلم الاختلاج - وعلم قيافة البشر والأثر - وعلم نزول الغيث - وعلم تعبير الرؤيا - وعلم إيجاد نسل قوي جميل في أخلاقه وتناسب أعضائه - وعلم الكهانة - والطرق بالحصى - والعرافة - وعلم الرمل وعلم النجوم وعلم الطيرة والفأل - وعلم الطب والجراحة - وفنّ الولادة والتشريح - وعلم البيطرة - وعلم الرقى - وعلم السِّحر والطلاسم - وعلم الأنواء - وعلم الفلك - وعلم الموسيقى - وعلم الحساب - وعلم الأنساب - وعلم تقويم البلدان - وعلم الاهتداء في البراري - وعلم الميراث - وعلم ما وراء المادة وعلم أيام العرب - وعلم الرمي - وعلم الفلاحة - وعلم الحيوان - وعلم الإبل والخيل .. وهو نحو ثمانمائة.

الفهرس